BOBST LIBRARY
3 1142 02889 0542

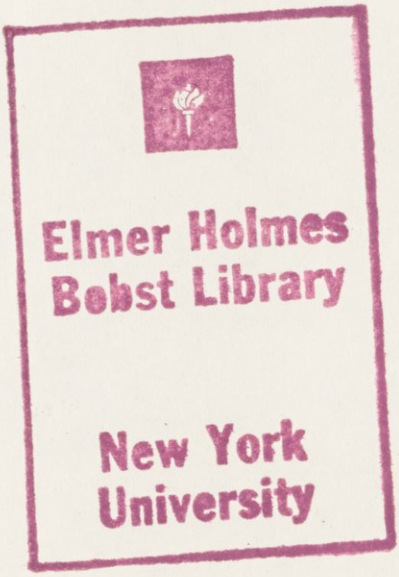

عفراء

6621

Karam, Karam Milḥim.
"

كرم ملحم كرم

/'Afrā'/

عفراء

قصة وتاريخ

مكتبة صادر
بيروت

PJ
7842
.A68
A32
1953
c.1

الحقوق محفوظة للمؤلف

١٩٥٣/١٤٤

MAY 02 1985

الجزء الاول

ثورة روح

١

اهتزّ سوطه بيده مكدوداً حانقاً ، ثم اندلع . وأصاب رأساً شامخ الأنفة ، فأدماه . وعربد اللاسع كالسكران الهائج : خائن ، لص . لانثرنّ لحمك ولحوم رفاقك جميعاً . أتحملكم الجرأة ، بل السفالة ، على سرقة بندقيات الجيش ؟

وعلا سوطه ينتفض كما انتفض صوته وشعر شاربيه العسليّين . واحمرّ وجهه والتهبت عيناه . وكان يزعق بالتركية . وهمّ باللسع مرة أخرى. فاذا يد المضروب ترتفع وتقبض على السوط، فتشلّ منه الحركة . وجبهت عينان فائرتان عينين فائرتين . إلا أن المبربر بالتركية اشتدّ به الحنق وكاد يعمد الى اللطمة . فصاح به الملسوع بغضبة تلذع نارها ، ويعمي دخانها : مكانك . إحذر سوء المغبة !

فعزّ على التركي ، وهو ضابط في الجيش العثماني ، أن يلقى الصدمة . واستشاط غيظاً ترقّص به كأن جنوناً دهمه . وبات لا يدري كيف ينال

من أسيره المقدام ، فهتف : يدك عن السوط . إفلته وإلا حطمت رأسك!

فلم يتبدل موقف الملسوع . وجمعت يده الأخرى قبضتها وتأهبت لرد الضربات . كيلة بكيلة . ووقف ثمانية ينظرون الى المشهد ولا يتحركون ، ولا تضطرب شفاههم بنبسة . فكانوا أشبه بالألواح المنصوبة . واتسعت عيونهم وجمدت كأنها من بارد الزجاج

ولجأ الضابط العثماني الى القوة يحاول ان ينزع بها السوط من يد مقاومه . بيد أن القوة انتهت الى وهن . خصمه أمضى ساعداً . فكاد ينشقّ . وامتدت سبابته إلى زر قريب تضغطه . فارتجف رنين جرس ، وأطلّ حاجب كالشرارة ، التصقت يمينه بصدغه بامتثال صاعق ، ووقف كعصا الناطور . فتعالى صوت الضابط كالزمجرة : جئني برهط من ذوي البأس . إسرع !

وأشرق في وجهه الحنين الى التشفي . سيعاني من انتقامه ذلك المعاند ما لا يبقي عليه . وظلت اليدان ممسكتين بالسوط . إلا أن عيني الضابط اتجهتا الى الباب بانتظار النجدة . وتكلمت الالواح المنصوبة فقالت تخاطب الشاب الأنوف ، المتشبث بسوط الضابط الحانق : مجيد ، دعه . لا تعرّض نفسك للاهانة !

ولكن مجيداً ، وقد خطا خطوته ، أبى أن يتراجع . ليقتله الضابط اذا شاء . ذلك أهون عنده من أن يجلده بالسوط ، كما يجلد اللصوص . وكان قد سال من رأسه الدم في خيط دقيق صبغ قميصه ، على انه احتمل . فليس يؤلمه الجرح بقدر ما تؤلمه الاهانة . واذا ضجة تعلو . وماجت الارض تحت ضربات نعال الجنود الغلاظ ، وخطواتهم الثقال الموزونة . وبدا في الطليعة اكبرهم رتبة يحي الضابط . فاقتدى به الآخرون ، وقد ملأوا الحجرة حتى

كادت تتصدع لفرط الحشد . وهتف رئيسهم الباشجاويش ذهني ، فقال بصوت حاد يعلن الطاعة : امر ، أفندم !

فنبر الضابط ، وقد انتشى بخمرة الفوز : أوثقوا هؤلاء جميعاً !

وانتزع السوط من يد مجيد بخشونة ، وصاح : سوف ترى ما تكلفك قحتك !

فوثب الجند على المتهمين التسعة وكتفوهم . فما سمعوا منهم كلمة اعتراض ، إلا ظلامة ملتاعة اطلقها احدهم ، فقال : خربت بيتنا ، يا مجيد !

والتفت الباشجاويش ذهني الى الضابط يقول ، وهو يعود فيحيي التحية العسكرية الخانعة : أوثقناهم ، افندم !

فصرخ الضابط بحنق يطمع في الاذلال : إجلدوهم واحداً واحداً ليعترفوا بالسرقة . أين هي بندقيات الجند العشر ؟... اول من امس انتقلت كتيبة من الجند العثماني الى رياق ، واضطرت الى قضاء ليلتها هنا ، في معلقة زحلة . ولما استفاق الجنود شعروا بان عشر بندقيات مفقودة منهم . وأعلن الخفير أنه لم يبصر أحداً يخترق النطاق . بيد أنه يشتبه بهؤلاء ، وقد أبصرهم يطوفون حول مضارب الكتيبة . إضربوهم بلا شفقة . وشددوا في الانتقام من هذا القبيح !

واشار الى مجيد . فانهال عليه الجلد من كل ناحية ، حتى عمي تحت وقع السياط الحمر . وزاد في عماه الدم المتدفق من جراح رأسه . فاضحى فوّارات ، كأن هامته ينابيع

غير انه لم يسقط الى الارض ، بل ظل جامداً مكانه ، تهوي عليه السياط ولا يشكو ، ولا يئن . فشاء أن يكون جباراً حتى في موقف التنكيل .

وأعجب به الجنود وأشفقوا عليه . غير أن الضابط لم يشفق . قال يميل الى الاستئصال : لا تقفوا عن جلده الا وقد أقرّ بالسرقة !

فامتثلوا مكرهين . ولكن مجيداً لم يتكلم وهو يجهل أمر السرقة . فتوالت عليه الضربات حتى امسى واهي العزمة ، قلق الوقفة . فما نزف من دمه يقلقل طوداً . وتضاءل الجسد عن مجاراة النفس في أنفتها ، فهوى في الارض كالدعامة الصديع . ونظر اليه الجنود ، فاذا الغشيان نصيبه . فالتفتوا الى الضابط يقولون ببعض نداوة من رأفة : أغمي عليه !

فدنا منه الضابط وقد اطمأنت نفسه ، وركله . وجالت في شفتيه ابتسامة الغبطة . بيد أنه محاها فوراً بعبوسه . وقال بصوت أجشّ : عليكم بالآخرين !

والآخرون لا يعرفون من امر البندقيات خبراً . فهم من الزحليين المقيمين في المعلقة طلباً للرزق . وليسوا باضطرار الى سرقة اعتدة الجيش وما يغيب عنهم ما تكلفهم من اهوال ، وما تجرّ عليهم من بلايا . على أن قائد موقع المعلقة ، نوري بك ، أبى إلا اتهامهم بما هم منه براء . ومن يسرق بندقيات الجيش سوى أعداء الجيش ؟ ... واعداء الجيش العثماني ، في عرف نوري بك وانداده ، هؤلاء اللبنانيون المقلقون على ضؤولتهم . فإنهم ليكيدون صباح مساء للدولة العثمانية ، كأن كرههم لها يغلي في دمهم . فيرثه الابن عن الاب ، كما يتوارث ابناء الاسرة الواحدة الدور ، والامتعة ، والكروم

وحفرت الاسواط في الاجساد الطرق والاخاديد . وتخضبت بالدم المتدفق من الكلوم البواكي ، والسارح في ارض الحجرة صارخاً ، شاكياً . وأمعن الجنود في جلد ضحاياهم ، كأنهم أثمار هاجتها رؤية النجيع المسفوك . وصاح أحد الزحليين ، وقد كوته السياط : ولكني أؤدي اليكم بدل هذه

البندقيات كلها . فكم هو ؟

غير أن الجنود أرادوا البندقيات ، لا ثمنها . وجنحوا الى القسوة للعظة . قال الزحلي المنهوك القوى ، المتطاير دماً : خذوا منا ما شئتم ، وعاقبونا بما شئتم . ولكن لا تضربونا . أُقتلونا ، ولا تضربونا . أُحسّ بان روحي أضحت في حنجرتي ، فأكاد ألفظها !

وشهق وانطفأ . هل مات ؟ ... لا . دهمه الاغماء . وعلا الصراخ فملأ الثكنة . وتصاعدت الاصوات تعلن البراءة ، والضابط نوري بك يسدّ اذنيه . قالوا : لك منا بدل مئة بندقية على ان تمسك عن جلدنا !

فازادهم على الاقرار بالسرقة . وكيف يقرّون بما لم يرتكبوا ؟ ... وأزعجه الانكار فشهر بنفسه عليهم السوط وأخذ في لسعهم بشراسة . فتعبت يمناه ، وتلاشت عزيمته ، والزحليون ماضون في إعلان براءتهم ، وليس للناصع اليد ان يوافق على اجتراح ما لم يتلطخ به . وأوجعه عنادهم فتقاقمت موجدته حتى اخذ يميد . وأيقن بان الجلد لن ينيله شهوته ، فصاح برجاله : إحملوهم الى السجن !

فوسقوهم كالجثث المحنّطة ، لولا ان علا من صدور بعضهم أنين ، كالحشرجة . وطرحوهم في السجن كالاموات . وأقفلوا عليهم الباب دون أن يكلفوا انفسهم دعوة الطبيب للانعاش ، وتضميد الجراح . ليسوا افضل من اولئك المتساقطين في ساحات الجهاد

ودرت زحلة بأمر ابنائها السجناء ، المضرّجين بذوب اكبادهم ، فانطلق اقطابها الى آمر الجيش ، المقيم فيهم ، يسألونه الرفق والعطف . وزحلة أضحت في سنة ١٩١٦ ثكنة عسكرية ، يقبض الجيش العثماني على مفاتيحها ، ويملك

زمامها . إن هي الا وكر من اوكاره المختارة، يسيطر منها على صقع لبناني عريق ، ويحتل بها ركناً ركيناً . وما كانت استانبول ترمي الى سوى استعباد لبنان . وما انفكت تراه ، منذ عهد فخر الدين، قذى في عينها ، وظهيراً للأجنبي عليها . غير ان المروءة لم تمت في الزحليين ، حتى في الجو الخانق . واستجلى القائد : ولكن اين البندقيات العشر ؟

فعليه ان يلتفت الى مصلحة الجيش قبل ان يساير ويعفو . قال الاقطاب : نصر الله مولانا السلطان . ما تعوّد المقبوض عليهم السرقة !

فابان بلهجة تترجح بين الحزم والرفق : نريد البندقيات ، ثم ننظر في امر من تتشفعون فيهم !

فتجرأوا على القول : ألا يجوز أداء ثمن المفقود ؟

فقطب ، وأعلن بجفاء حاسم : لا يجوز !

فلم يبق الى الكلام مجال . فالبيان قاطع . وهمّ الزحليون بالانصراف على اخفاق . واذا جرس الهاتف يدق في ديوان القائد . فانتظر الاقطاب ريثما يخاطب محدثه . وليس محدثه غير نوري بك ، قائد موقع المعلقة . فعالنه بان البندقيات المسروقة ظهرت ، وان سارقيها ليسوا من الاهلين ، بل من الجند . فكادت السماعة تتحطم بيد القائد العثماني . أيقدم جنوده على سرقة بعضهم بعضاً ؟...وصاح بكاسح النقمة : ليس للانذال غير الموت !

فاستفهم نوري بك ، وهو يشاطر قائده امتعاضه : وماذا نفعل بالمقبوض عليهم من الاهلين ؟

— سننظر في امرهم !

وتبدلت ملامحه . وخشي الزحليون هذا التبديل . ولم يدروا كيف

يتقون شره ، وقد سمعوا صرخة الموت . ليتهم لم ينتظروا . واندفعت خواطرهم الى الباب وودوا ان تسبقها اليه أرجلهم . فالحكمة في الفرار . وجالت فيهم عينا القائد ، وقد شاب وجهه الاحمرار ، فالاصفرار . وتكلم ولم يشأ اعلان الواقع ، وهو الراغب في ترويع من يرى فيهم خونة ، لا يتقدون بحتاتة من ولاء للدولة العثمانية . قال : عندما تأتون اليّ اريد منكم ان تقبلوا لمحادثتي في ما اقوى على تحقيقه . فهل لكم ان تثبتوا براءة المقبوض عليهم من اخوانكم ؟

فاجاب من رسخت له منهم قدم وطيدة في العلم والدهاء : يقيننا بكونهم ابرياء حملنا على المجيء الى مولانا صاحب العطوفة !

واستطالت في شفتيه بسمة الملاينة . قال القائد : أنا ممن يحبون زحلة ، ويشوقهم أن يؤدوا لها خدمة تسرّ بها . فان أمكنكم أن تثبتوا براءة المتهمين ، فهاتوا براهينكم ، كي أطلقهم من السجن !

فارتفعت الايدي الى الصدور ، فالشفاه ، فالرؤوس ، تبدي جزيل الشكر . وخرجت الكلمات من الافواه تقول بشدة تتصنع الصدق : الله ينصر جلالة السلطان . ولتعش الدولة العثمانية أم الفقير ، والضعيف ، وقاهرة العدو . وليَدُمْ مولانا !

وهذه الدعوات بضاعة ذلك العصر ، وقد شاعت فيه الحكمة القائلة : « اليد التي لا تقوى على عضّها قبّلها وادعُ عليها بالكسر ! » . والموقف يحمل على المصانعة . وهل يحب بعضهم بعضاً قومٌ لا يثق بعضهم ببعض ؟

قال القائد العثماني : أعلنت وسانجز . هاتوا الادلة وخذوا السجناء !

فتعاظمت الدعوات ، وتوالى الانحناء . وخرج الوفد في طلب الادلة .

ورأى القائد العثماني أن يمضي في الترويع ، فدعا الى ديوانه كبار القوم في زحلة ، فاوجسوا شراً . ولم تبرح أشباح الأعواد ماثلة للاذهان ، وقد ترجحت عليها في سنة ١٩١٦ القافلة تلو القافلة ، سواء في ساحة الشهداء في بيروت ، او في ساحة الشهداء في دمشق . وخسر اللبنانيون والسوريون زهرة احرارهم ، من امثال المؤيد ، والعسلي ، والمحمصاني ، وطباره ، وحمد ، وعقل ، وباولي ، وسلوم ، والخازن . ولم تزل شكوى المنفيين تثقب بلوعتها ومرارتها الآذان . فما يحمل القائد العثماني على دعوتهم اليه ؟ ... ووفدوا على ديوانه مكرهين ، يتعمقون في صفحات ماضيهم . أتنطوي على سيف رهيف الحدّين تُضرب به أعناقهم ؟... وغاروا في التخمين الهالع . وطلبوا عفو ربهم لمجيد حريز ، وقد ساقتهم عنجهيته الى هذه الورطة الخطرة

وهزوا رؤوسهم ليوقنوا بانها لا تبرح مستقرة بين اكتافهم . ومشوا الى القائد والشحوب يكسو وجوههم ، والارتعاش في خطواتهم . وتولاهم الوجوم كأنهم في جنازة انفسهم . ووقفوا في حضرة القائد والابتسامة في أساريرهم . غير أنها اشبه باكليل الورد على النعش . هي ابتسامة مغتصبة تطفو عليها المالأة الخشيا

واحدودبوا وهم يصافحون القائد العثماني ، والابتسامة الحائرة ترتجف ابداً في الشفاه . فرحب بهم بمظهر ماكر . وضغط الايدي المصافحة يشير الى المودة . بيد أنه احتفظ في نظراته برصانة راعبة تحمل ميزان الدينونة . فالسماح صعب ، والعقاب صعب . وليس للحاقد ان يلين حتى في معرض الانصاف

وما نسي القائد العثماني انه يطعم الزحليين من مالهم . فيعالنهم عفوه

عن المتهمين، مع كونهم ابرياء ، وليسوا بحاجة الى عفو يشملهم. قال بانتفاخ الواهب الارواح : يشوق الدولة العثمانية أن تخلع عليكم حلمها . بيد انها ترقب منكم ان توضحوا لها جدارتكم بهذا الحلم . نحن نرى فيكم قوماً من العثمانيين الاقحاح . وعليكم ان تحققوا رأينا فيكم . وإلا اضطررنا ان ننظر اليكم كاعداء لئام . المتهمون التسعة عفونا عنهم ، لندلكم على مبلغ ندانا. فلا تكرهونا على الكفران بالسماح !

فلم يبق فم إلا انطلق بالهتاف للدولة العثمانية . وسرّي عن القوم ، فنفحوا القائد العثماني ببضاعته . ولو صدقت النيات لكان لبنان عين الدولة العثمانية، وزحلة إنسانها . وأُخلي سبيل التسعة المقبوض عليهم، والدعاء لجلالة « مولانا » السلطان يتعالى : بادشاهم جوق ياشا !

كأن الهتاف ، حتى على صدقه ، يقيم ميتاً من القبر

٢

مجيد حريز لا يبرح دامي الرأس والكرامة . فما شفي من كلوم جسده ، ولا من جراحات أنفته . جار عليه نوري بك، وزاد في نفرته من العثمانيين . فتولاه عبوس دائم قعد به عن الضحك ، حتى لابنة عمه عفراء

وعفراء بهجة العين والقلب . رفقت بها الآلهات فمنحنها قامة ترفل بمائس قدودهن . ونشرن في عينيها السماء . وسكبن على شعرها وهج الشمس . وألقين في نهاها حكمتهن . فاضحت، وهي في العشرين، قمة في الجمال الوضاء ، تشخص اليها الابصار معجبة ، تتمنى

ومجيد يهوى ابنة عمه . أحبها منذ كانا صغيرين ، يرتادان ضفاف البردوني لاعبين ، ضاحكين ، ويتغلغلان في الكروم يقطفان الحصرم ، ويتراشقان بحباته . ونما الحب وهما يمثلان في رفاقهما الصغار دور العروسين . فتنثر عليهما الازهار ، وتعلو الاهازيج . واجمع الاهل على أن هذا الصبي لهذه الصبية . وترعرعا وأخذا يتقاسمان اللقمة ، بل قلب اللوز ، فما يأكله مجيد إلا وقد شطره بينه وبين عفراء

وطمع في ذات السنى حفلٌ من ذوي اليسر . فرفضت الجميع . هي لمجيد . ولم يكن لها ان تخجل في قولها إنها لابن عمها ، وهو يملك طبع السخيّ ، وحمية الأبيّ . وضحكت له الدنيا فأجرت عليه رزقها ، وقد اتسعت في معلقة زحلة دوره وخمائله

وليلة القبض عليه كان في نفر من اخوانه . دعاهم الى سكرة عامرة في بساتينه ، وهو على اوفى ما يكون من الاطمئنان . فالحرب معلنة ، الا

ان الجيب ملآن ، والقلب هانىء . وليس لمن ورم كيسه ، وبسم حبه ، ان تلذعه النار

على ان هذا الاطمئنان لم يسلم من كدرة تشوبه . فالاحتلال العثماني كان اشبه بالكابوس . فما بدا العثمانيون في لبنان اصدقاء وخلاناً ، بل اعداء اشداء . وما استقروا به على شبع ، بل على جوع . فهم قوم عضّهم الاملاق ، ومالوا الى خوض المجزرة وليسوا يملكون ما يسدّ الرمق . وانى للخالي اليد ان يقاتل ، وله من نفسه عدو لا يقوى على كبح جماحه ، لينصرف الى مغالبة عدو الوطن ؟

واللبنانيون رهبوا اولئك المملقين ، الجياع ، وقد اقبلوا بوجوه عابسة ، وحزازات سافرة ، كما يقبل الذئاب على النعاج . فما تقع عليه ايديهم فهو لهم . ولولا عين النمسا اليقظى — وهي احدى حاميات نظام لبنان — لجاوزوا في الاستباحة كل مدى . غير ان « فينا » كانت العقبة دون الاسراف في التنكيل . وهيهات !

والجائع ابن الفوضى ، وقد كفر بالنظام . ولم يكن للجند العثماني الحافي ، العاري ، المشتهي قضمة من رغيف ، نظام . كبيره يسرق . وصغيره يقتدي بكبيره . فالاخلاص للسدة العليا ، المقيمة على الطوى ، مات . وليس يفرض الحب ، والطاعة ، غير الثراء ، والعطاء ، والايمان

ولولا الخوف من الموت رمياً بالرصاص لباع الجندي العثماني بندقيته . ومنهم من كان يبيعها لا يبالي سوء المغبة . واذا تحامى المجازفة بنفسه سطا على رفيقه ، وسرق له سلاحه ليبيعه ويأكل بثمنه ، فيتقي غائلة الجوع

والبندقيات العشر ، المسلوبة في معلقة زحلة ، هذه حالها . استولى عليها

الجنود انفسهم، وباعوها ليأكلوا . ونزلت التهمة بالزحليين التسعة، وقد شهد عليهم من ابصرهم، في ليلة السرقة، يدخلون بستان مجيد حريز القريب من المخفر

على ان اخلاء السبيل ، بعد ظهور البراءة ، لم يبدد من نفوس المتهمين الابرياء مضض الاهانة . فان آثار السياط ما تنفك تكويهم . واذا شفيت من آلام لذعها اجسادهم ، فما تزال منهـا ارواحهم في لهيب . وخصوصاً روح مجيد حريز . فما كان مجيد يدري كيف يحرر نفسه من مرارة الضيم . ورأى ان ينتقم لتبريد لظى حنقه . أفما يستطيع ان يثأر لكرامتـه ممن اذاقوه الهضيمة ؟

وانطوى على نفسه والوجع في صميمه ، والميل الى الاشتفاء يتوقد فيه . والا فلن يسكن جأشـه . ولزم الصمت الطويل . وتولاه القطوب . فلا كلمة ، ولا بسمة ، كالمشدوه . وجلست اليه عفراء تلاطفـه ، وقد خافت عليه من الصدمة . هل دهمه وسواس ذهب بلبه ، فاخرجه عن وسعة الحلم؟

قالت ابنة عمه بصوت رفيق كالندى ، تتحايل به على الابتسام وفي قلبها ساخن الشجن : مجيد ، أما تزال تشكو ألم جراحك ؟

فرنا اليها بعين يزأر فيها الحرد ، وامسك عن كل نأمـة . فهتفت وقد صالت فيها الخشية : أليس لهذا الغيظ ان يهدأ ؟

فنبر بصوت عميق ، وجيع ، حاقد : انا اشتعل ، يا عفراء . اشتعل من رأسي حتى قدميَّ ، وليس للاهانة ان ينطفىء ضرمها ، في كبدي ، الا وقد سكبت عليها الماء بيدي . فما ابقى مني الوغد ، وهو يلسعني بسوطه ، على انفة . وددت لو قضيت تحت الجلد حتفي ، اذاً لشفيت ممـا يأكلني من موجدة !

– وهل نال منك بهذا المقدار ؟

فتنهد بعسر وقال ، وفي كلماته نواتىء من غيظ جيّاش : نال مني بما اقامني حيال فرض محتوم ، لا ندحة لي فيه عن الانتقام ، والا قتلت نفسي !

فصاحت مرعوبة : أتقتل نفسك ؟

– نعم ، يا عفراء . اقتل نفسي . والا فكيف اطيق الظهور في قومي ولسعات السوط تنهش ضلوعي ؟... هذه اللسعات بحاجة الى ما يذهب عني بوقعها . ولن تتبدد بسوى زوال احدنا . فإما انا ، وإما نوري بك !

فهتفت عفراء باعوال : نوري بك ؟

ورهبت الاسم . أيميل الى القضاء على الضابط العثماني ؟... ولكنه يرمّد بلداً . أيجهل ما تكلفه الجريمة ، وستطويه ، وتطوي زحلة برمتها ؟ ... وزعقت وهي ترتعد : أمجنون انت ؟ ... أما يتراءى لك هول المغبة ؟... أيطيب لك ان تودي بنا جميعاً ، فينحرنا الطغاة عقاباً لنا على إثمك ، ونمسي عبرة ؟ ... ألا انعم النظر في ما تبدي ، وليس لمثلك ان يقوده جامح الهوس . فهل لك ، وانت الفرد ، ان تقاوم دولة ؟

فاوضح ، والاستخفاف بالمكاره يصول فيه : مجيد حريز ليس آل حريز على بكرة أبيهم ، ولا زحلة برمتها !

– هذا رأيك . أما الدولة العثمانية فتعدّنا جميعاً شركاء . وتقبض على امك ، وعلى اخي نجيب ، وعلى عمنا سليم . وربما أصابني رشاش من عملتك . أتجازف بنا كلنا ، ولا تشفق ؟

وحدثته عمداً عن نفسها كي يرعوي . فلن يرضى لها باللطمة . قال لا يدركه نزرٌ من رحمة : أنا بريء منكم جميعاً . مجيد حريز يمثل نفسه دون

سواه . وهل لكم ، اذا لقيتَ الموت ، ان تموتوا معي ؟ ... لا ، كل عنزة معلقة بكراعها !

فاستنبأت بجدة : أيروقك أن اذهب بجريرتك؟...ألا تصونني من النكد؟

فما كان ليلين . قال ماضياً في استهانته بالعواقب : لن يصيبك أذى . فالتبعة عليّ وحدي !

– وماذا تفعل وقد انتقمت ؟

– اركن الى الفرار !

– وتنأى عني ؟

وطوّقته بالعقبات . إلا أنه ازمع الانتقام ممن اهانه . فليس يطيق ان يعروه الاحتقار وينام عنه ، ودمه يهيب به الى غسل الاهانة . وهل من حياة له في بني قومه ، وقد أصاب فيهم المكانة المرموقة ، إن هو سكت على الضيم ؟... وانى يستطيع رؤية نوري بك يسرح امامه ويمرح على إزراء به ، فتتوالى عليه الغصص ، ولا يملك دفعها ، وهو الحسير ؟

ربما كان في ما ينوي الاقدام عليه جنون . غير أنه راضٍ به ، مع كل ما سيناله منه . لن يرجع عما أقرّ . وساءه إيلام عفراء ، ابنة عمه ، فقال يخفف عنها ، وقد ابتسم : صدقتِ . ما لنا وللانتقام ، وليس اليوم اوانه !

فما آمنت فيه بالسكوت عن الاخذ بالثأر ، وهي الملمّة بفطرته . فما ينفي الا تمويهاً ، لئلا يرمض خاطرها . قالت تبدي ارتيابها بما يذيع : لا تضحك مني !

قال وابتسامته تتسع فيه : ومتى كنت أجرؤ على الضحك منك، يا عفراء؟

فما اطمأنت الى بيانه، مع دعوته اياها الى الاطمئنان، وقد عجمت عوده .

فمن المحال ان يطوي إهانة نزلت به إلا وقد ردّها. وطلبت اليه أن يقسم بحبه لها انه لن ينتقم . فقال متأففاً : إنك لتحرجينني . دعي لي فسحة الى إرضاء نفسي . لا ، لن اسير الى نوري بك كي امحو إهانتـه لي . ولكني اذا ابصرته ...

– واذا أبصرته ؟

– لست أدري ما يكون !

فشاءت أن تعود الى التضييق عليه . ولكنها خشيت انفجار غضبـه . قالت تميل به الى الامساك عن جفوته : سأظل ابداً بجانبك كيفما انتقلت . وساحول بينك وبينه ، بما لي من دالة عليك !

غير أنها ، مع شديد سعيها للحؤول دون الفائرة ، لم تؤمن بدرء الشر . فكانت تحس بأنه واقع حتماً . وخافت على إبن عمها . إذا تغلب على نوري بك، فهل له ان يقهر دولة بأسرها ، يمضّها أن تطير ، في لبنان ، شعرة واحدة من رأس أحقر جندي عثماني ؟

وحدثت عفراء ذوي قرباها بما يلتمس مجيد . فاقبلوا اليـه ينفرون به عن مبتغاه الخطر ، بكلمات يسودها التأنيب . واوجعه النصح الخشن فلاذ بالنجاة ، يرتاد داراً له في المعلقة . وقضت المقادير بان يصادف في طريقه الضابط نوري بك ، يضرب الارض بجزمته السوداء ، اللمّاعة ، ويتبختر على مرأى من الاهلين ، وسوطه بيمينه ينتفض شموخاً . ففار دم مجيد ازاء ما يلوح لعينيه . بيد أنه تذكر ما عاهد عليه عفراء ، فاجتهد في ان يتوارى عن نظر الضابط العثماني . ولكن التفاتة عارضة من نوري بك ألقت العين في العين . فارتعش الرجلان امتعاضاً . وتجسمت الاهانة لمجيد حريز فوثب على نوري بك بدافع

من حميته الجريح ، وهو يحس بكونه دون متوتر اعصابه

ووقف الضابط مكانه ويده تهزّ سوطه . سيجلد به مجيداً ، كما فعل بالامس . فيدمغه بالحقارة على مشهد من الجميع . ولن يكتفي ، بل سيتهمه بالسعي للفتك به . وعقابه الموت

ومض هذا الخاطر كالشرارة في ذهن نوري بك . غير ان مجيداً كان ايماضة . فلم يشعر الضابط بسوى انقضاض خصمه عليه ، وقد امسى على قيد خطوة منه . فرفع سوطه ليهوي به على مهاجمه ، إلا أن يد مجيد أمسكت بالسوط وانتزعته من قبضة الضابط العثماني . وفاجأته اليد الاخرى باللطمة . فامتدّت يد نوري بك الى مسدسه . فلسعها مجيد بالسوط . فانطلقت رصاصة طائشة ، وعوى الضابط عواء مؤلماً . وأغار مجيد على المسدس فاختطفه . وسدده الى صدر الضابط . بيد ان الناس ، وقد هالهم ما يرون ، صاحوا بالشاب يقعدون به عن نزقه : مجيد ، مجيد !

وعلا صفير نوري بك يدعو اليه الجند . وهال مجيداً ان يقترف جناية وخيمة العاقبة ، فاكتفى بالسوط وبالمسدس ولجأ الى الهرب . ونهد نوري بك الى اللحاق به كي يقبض عليه ، فاعترض الناس طريقه يتظاهرون بدرء الاذية عنه ، على حين يفسحون للضارب مجال الفرار بتضييقهم على الضابط الامد . واقبل نفر من الجند لنصرة رئيسهم ، إلا أن مجيداً توارى . واخذ نوري بك يصيح بكل قوة فيه : إقبضوا عليه . إرموه بالرصاص . أقتلوه !

ولكن أين هو كي يقبضوا عليه ؟... احتجب كالهباءة . فما استقر بضع دقائق بارض المعلقة حتى اندفع تواً الى زحلة يختبىء فيها ريثما يجنّ الليل . واضطربت زحلة بالنبأ ، وقد شاع فيها أن مجيد حريز قتل نوري بك الضابط

العثماني. فارتاعت الخواطر، وحسب القوم للامر رهيب الحساب. فأي فظاعة لا يقدم عليها العثمانيون انتقاماً للضحية ؟... بل اي غرامة لا يفرضونها على الزحليين لبهظ عواتقهم ، وأي مذلة لا يسومونهم إياها ؟

وسأل بعضهم بعضاً عن موقفهم حيال ما يسمعون. واجمعوا على اختيار فئة من ارباب الرأي للمثول في حضرة القائد والاعتذار اليه عن رعونة مجيد حريز. ولا ندحة عن هذه المظاهر لتخفيف وقع البلية . ولكن جاءهم أن مجيداً لم يقتل الضابط ، بل لطمه ولسعه بالسوط . فزال الشطر الاوفر من القلق والرهبة . وابتسم الزحليون فيما بينهم . ما ضاعت اللطمة ولا اللسعة . وفترت هممهم . فلماذا الوقوف بين يدي القائد العثماني وليس في ما اقدم عليه مجيد ما يدعو الى الاسترحام ؟... على أنهم لم يروا من غضاضة في إبداء الاسف . فيسير الى آمر الجيش في زحلة من يتبرأ من مجيد، ويتألم من هوسه. فيصغي القائد ببعض الرضى، وتزول عنه حدته . فلا يهدر هدير الغيظ، ولا ينتقم . فيذهب بزيد بهفوة عبيد

والقائد العثماني ، وقد نمي اليه ما كان من مجيد، اظلمت عيناه ، وثارت أحقاده . وود لو ملك القوة على تدمير المعلقة ، وزحلة نفسها ، بقذيفة يرميهما بها . أيهان احد ضباطه في الطرق العامة ، وعلى مرأى من الصفيّ والشانىء ، كأن امتهان الجيش حلال ؟

وارتجفت يداه وهو يتمنطق بسيفه . واعتلى صهوة حصانه . وخفّ الى قائم مقام البلدة ، ولهيب النقمة يتصاعد من عينيه أحمر كاوياً . ودرى القائم مقام بان القائد العثماني مقبل اليه، فهالته الزيارة، ولن تحمد فيها المغبة. وقال فيما بينه وبين نفسه : لعن الله خفة مجيد حريز !

وتكلف الطمأنينة . ونهض للقائد يرحب به ويصافحه ببشاشة . ولكن وجه القائد كان اشبه بطلعة الغراب ، كريهاً مفجعاً . فاستوضح القائم مقام يبدي الدهش ويتصنع الولاء : ما بال صاحب السعادة مولانا ؟

فانطلقت الكلمات من فم القائد العثماني كقصف البارود . قال بقسوة لا تتماسك على نضاضة من حلم : صدق من روى لي عنكم أنكم اعداء لنا . انتم حلفاء الفرنسيين والانكليز . وعلينا ان ننظر اليكم نظرة الحذر . فلا نثق بكم ولا نعتمدكم حتى في التوافه . أعتقد أن القائم مقام بك سمع بما كان من مجيد حريز في نوري بك ، أحد ضباطي . وان لم يكن أذن بالنبأ فليعلم أن القحة دفعت مجيداً الى اهانة الضابط بلطمه ، ولسعه بالسوط ، ونزع مسدسه . وقد جئت أطلب مجيداً هذا . أريده اليوم والا أبلغت أمره القيادة العليا . ولها ان تفزع الى تدابير لا أراكم بمأمن من غائلتها !

فتلعثم القائم مقام . وعاد يلعن مرة أخرى في نفسه خفة مجيد حريز . أتصادم العين مخرزاً ، والزجاجة حجراً ؟ ... قال بعد لأي : من حق صاحب السعادة أن يغضب . فما جرى آلمنا جميعاً . ولم نكن نعتقد في حين من الاحيان أن زحلياً يخاشن جندياً من جنود صاحب الجلالة . غير أننا لن نتوانى في البحث عن المجرم ، وفي جرّه اليكم لتنزلوا به أشد العقاب . إن من يتجرأ على كرامة جندي عثماني ينتهك حرمة المصونات !

فعلت نبرة قاطعة تزخر بالامر العسكري الجازم : أريده اليوم ، وإلا فحذار !

وظل القائد العثماني يرتجف . ونظر الى القائم مقام نظرة لا تخلو من التنديد . ووقف منه موقف السيد المطلق ، القابض بيمينه على الارواح .

والقائم مقام رجل ما نبت عنه الخنكة . فابتسم ابتسامة تدعو الى إجلال الامر ، وقال بليان الاسترضاء : سنجتهد في ان نمسكه على الفور . فلتسكن غلواء سيدي . زحلة المخلصة للدولة العثمانية ، اخلاصها لربها ، تفدي كرامة صاحب العرش المبجّل بدمها . ومن الظلم ان ترضى عن الغادر الاثيم !

فاعاد القائد العثماني قوله متوعداً صاخباً : اريده اليوم . واذا طلع صباح غد ولم تقبضوا عليه ، أصبح الامر مردوداً الى القيادة العليا . فكونوا على احتراس مما ستفجعكم به من ويل !

وانصرف باحتدامه . فما هذا الدلال في قطر ليس من شواهق الدولة العثمانية غير حصاة تسحقها مطرقة ؟ ... ودعاه القائم مقام الى الجلوس فلم يجلس . ورفض ان يتناول القهوة . وضنّ بنظرة على لفافة من التبغ عرضها عليه القائم مقام المستعطف ، الخشيان

ولو أجاز القائد لغضبه أن يبلغ مداه لاجتاح زحلة كالزلزال ، مقوّضاً ، مدمراً . وعاد فامتطى جواده يسلك طريقه الى مقره في تل شيحا ، ومنه يشرف على زحلة باجمعها . ووصل اليه الوفد المقبل لابداء الاسف ، فانفجرت سخائم القائد العثماني وزمجر : أتقبلون اليّ لمخادعتي ، كأني اجهلكم ؟ ... كلكم مجيد حريز . وما فيكم من لا ينطوي لنا على الكره . اني لأدرى منكم بميولكم الى الدولة العثمانية . فلو استطعتم ان تنقذوا الساعة أنفسكم منها لدعستمونا . أنتم اعداء ، بل انتم شرّ من الاعداء . فالاعداء ندرك موقفنا منهم . أما انتم فلسنا ندري اي سياسة نعتمد عليها فيكم . فإذا لجأنا الى الشدة ملأتم الارض صياحاً ، زاعمين أننا نقسو عليكم . وإذا استندنا الى اللين لقينا من قحتكم ما لا يبدر من سوى اللئام . أأنتم تأسفون على كون مجيد

حريز لطم نوري بك ؟ ... ألا دعوني أضحك من كذبكم . إنكم لتودون من اعماق نفوسكم لو قتل مجيد الضابط العثماني . أعرفكم . أعرفكم . لم أجد فيكم غير الثعالب والافاعي . إنصرفوا عني !

فاعترتهم الخيبة ، وكسفت الاهانة وجوههم ، فباتوا كأنهم من شمع ، صفر الملامح ، أعلاء الارواح . واتقدت الجرأة في احدهم ، فحدثته النفس بالاعتراض على ما صارحهم به القائد ، فقال : ولكن ، يا صاحب العطوفة ...

فقاطعه القائد بالقولة الناخعة : إخرس . تدعوني هنا صاحب العطوفة ، وما ان تبتعد خطوة واحدة عني حتى تصفني بالوحش الضاري . أنا لا أطيق الكذب ولا التدجيل . لقد سخر بكم من أوهمكم أننا نصدقكم في تزلفكم ومكركم . إنصرفوا . إن لم يكن مجيد حريز غداً في السجن ، عرفت أي سياسة تنجع فيكم !

وصرفهم عنه بنزق ، باحتقار ، كأنه يطرد فئة من الخدم . فغاظت الخشونة الزحليين ، إلا أنهم اضطروا الى الامتثال ، وليسوا مكلفين أن يترجحوا على الاعواد ، ولا أن يتبددوا في المنافي . وما جهلوا أنهم في عهد إرهاب ، وأن عهد الارهاب لا يرحم . ولكن ما أقلقهم ليس ما نالهم من الاهانة ، بل ما سمعوا من تهديد . على مجيد حريز أن يظهر في مهلة لا تجاوز صباح غد ، وإلا فلتنتظر زحلة ما لا تطمئن اليه من محن

واين مجيد ؟

فوضح الاستفهام في كل فم ، وفي كل عين . أيدرون اين هو ؟

وساروا الى اقربائه الادنين يسألون عنه . وكان الدرك قد سبقهم الى هذا السؤال ، واقتحم المنازل يبحث عن مجيد . ولكن الشاب ليس بادي

الاثر. فقبض الجنود على عمه، وابن عمه . وكادوا يقبضون على أمه ، لو لم تكن مريضة ، طريحة الفراش

وكل دار من دور آل حريز دهمها الجند . وأقاموا الارصاد ، وبثوا العيون . وشعرت زحلة بانها تحت الكابوس . ولكن أين مجيد ؟

سؤالٌ عطلٌ من الجواب

من يدري في أي لجة يغور ؟

٣

عفراء وحدها تدري

ما ضرب مجيد ضربته حتى اندفع الى ابنة عمه يقول: عفراء ، قضي الامر . هل لك ان تخفيني ؟

فطارت عيناها رعباً . واستوضحت وهي ترتجف : أخفيك ؟ ... ولماذا ؟ ... هل انتقمت ؟

— نعم ، يا عفراء . انتقمت !

— وممن ؟ ... من نوري بك ؟

— منه بعينه . لطمته ولسعته بالسوط . وهذا مسدسه !

— هل قتلته به ؟

— كدت أقتله . ساقص عليك الخبر بجلاء . ابحثي لي الآن عن مكان يقيني النظرات الواشية . فمن الراهن أن الجند يطاردني !

فاضطربت حتى لم تكن تهدأ لها رعشة . الا ان الموقف يدعوها الى امتلاك الروع . فاكرهت نفسها على الجلد وفكرت في طريقة الانقاذ . فلاحت لها في ان يتنكر مجيد في زيّ امرأة . فخلعت عليه ثوباً من ثيابها . وحفا شاربيه . وأذاب من عنف نظراته لئلا تفضحه . وهي نظرات تتوهج لظى وبأساً . ورنت اليه ابنة عمه في ما اعتراه من تبديل ، وابتسمت على رغمها . فالانقلاب يبشر بالنجاح ، وقد امسى مجيد حريز ، الشاب المتأجج عزماً ، امرأة ذات فتنة وغنج . واطمأنت عفراء بعض الاطمئنان ، وقالت : والآن ، تعال الى مبيت صديقة لي ، وليس من يدري انك تأوي اليه !

وقادته الى احدى صديقاتها الوفيّات ، هامسة في اذنها : هـذا مجيد ابن عمي يطارده الجند. أُريد له في منزلك مكمناً يحتجب فيه ريثما يدلهمّ الليل !

فما خيّبتها في ما التمست ، والصداقة عون على الشدة . واستقر مجيد بعليّة على السطح تظاهر فيها بغزل الصوف . على حين جالت عيناه في ما حوله . وامتدت مراراً يده الى وسطه ، تجسّ مسدسه ، بل مسدس نوري بك . فقد يحتاج اليه

وعادت عفراء الى مقرها لا تخالجها وهلة . مجيد بسلام . وعلمت أن الجند سألوا عنـه ، وأن الجميع صارحوهم بكونهم لم يبصروه . فامسكوا عمه وابن عمه . ورضيت عفراء ان يقبض الجند على أخيها وعمها ، على أن ينجو مجيد. فلن يصيب عمها وأخاها من الاذى بعض ما يواثب منه مجيداً ، وهو المسيء

والزحليون أنفسهم بحثوا عن مجيد حريز . فالقائـد العثماني أنذرهم بوخيم المغبة إن هم لم يأتوه بالشاب كي يدينه . ولكنهم لم يهتدوا اليه . فقال بعضهم : هو في الكروم !

وأين يجدونه في الكروم المبسوطة في أعالي القمم على شسوع أطراف؟... وقال آخرون : قد يكون سلك طريقه الى سهول البقاع الرحاب !

وجهل الجميع مقره . وشدد الجند في الاهتداء اليه . وما تورعوا عن ضرب عمه وابن عمه . فعالجوهما بالفلق يشدّون اليـه أرجلهما ويجلدونها بالسياط . ولكن الاثنين يجهلان مقر مجيد . فما أبصراه يعود الى المنزل ، وما سمعا عنه ما يدلهما عليه

ونوري بك هرع اليهما يستوضحهما أمر الشاب، ويلسعهما بسوط اسود ،

موجع ، من ذنب الفيل . لا يقع بقسوة على الجسد الحي إلا ويسيل غزير الدم . وأدماهما وما أفاضا بجواب يشفي نهمة الاستقصاء الملحّ . فانتقم بهما من مجيد ، ومن مضيهما في الكتمان ، دون ان يسمع منهما كلمة واحدة عن المختفي . فما كانا يعالنانه بسوى غامض القول : لا نعلم . لا ندري !

وكل تهديد اخفق في حملهما على الابانة . فما أبصرا ولا سمعا . وكاد نوري بك يضيع عن نفسه لشدة حنقه . قال وفي حنجرته غصة ، وفي ساعديه كلال : ولكنكما ستلقيان في كل يوم مثل هذا العذاب ، وانتما تعتصمان بالكتمان . جاهراني بما تعلمان ، والحرية ملء ايديكما !

قال العم مسلماً امره الى ربه : إن يكن العدل يجيز هـذا الاضطهاد ، فاننا لنخضع لاحكام العدل !

وصاح نجيب ، شقيق عفراء ، وقد كوى جسده اللذع المضني : إضربونا ما استطعتم ، فلن تصلوا منا الى الحقيقة ، ونحن نجهلها مثلكم !

فدمدم عليهما نوري بك ، وقد أمسى كتلة تتفجر غلًا : سنرى كم يطول حبس هذه الحقيقة بين الضلوع !

ومنع عنهما الطعام . وطرحهما في حجرة لا يكاد النور ينفذ اليهـا . واجرى تحتهما الماء كأنهما في غدير . فرسا كلاهما في زاوية وقلبـــه يغلي اضطغاناً ، ويمور هولاً . وما ساءهما ما كان من مجيد بعدما عرفا نوري بك . هذا رجل نوري ، قليلٌ فيه أن يُلطم . ولو انصف مجيد لانقذ منه الاحياء ، وهو النافر من كل مخلوق . وربما كان في نقمة على نفسه وقد ولدته امه

ومجيد لم يعلم أن الجنود دهموا منازل اهله ، وقبضوا على عمه سليم ، وابن عمه نجيب . فلم ترجع اليه عفراء لتحدثه بما وقع . وربما جنح الى اللين

لو وقف على ما يكابد اقرباؤه في سبيله. ولكن اللين مضيعةٌ له. فالضابط العثماني لن يرأف به، بعد كل إهانة اصابته منه، وقد يسلبه حياته. والخوف على مجيد أهاب بعفراء الى التمويه في ما دهم عمها واخاها

وغالت في الحرص على موقفها الابكم بما أُوتيت من عزم واخلاص. ودفعت عنها الارتباك لئلا تخطو خطوة غير موفقة. وما جهلت كونها امرأة. على انها شاءت ان تكون على قدر المهمة. فلا تندم على وهن يبدر منها، ولا تتهاون في اداء ما عليها

وتردد اليها فريق من كرام الزحليين يطلبون منها أن ترشد الجند الى مقر ابن عمها، وتدفع النكبة عن الاسرة وعن البلدة. فقالت تبدي الجهل: وهل من يدري اين أصبح مجيد ؟

قالوا: ربما كنت تعرفين مقره. ومن الخير لنا ولك أن تذيعي النبأ، فلا يقسو الجند علينا، ولا ينتقمون من ابن عمك بعمك واخيك. وهيهات ان تقف المجزرة عند امد !

فاعلنت بلهجة حاسمة: لو كنت أعرف اين هو لمانعت في المجازفة باهلي وقومي !

فحملتهم بمنطقها الجازم على الايمان بما تعلن. قالوا: سامح الله مجيداً، أيجهل اي حالة انتهينا اليها باستطالته على العتاة ؟ ... على صاحب السيف في هذا العهد أن يحطم سيفه. فالمجال لا يتسع للبطولة، وثمة دولة تخوض الحرب مدججة بالسلاح، وترى فينا عصبة من اعدائها !

فغمغمت: سامحه الله !

ولم تعدم فئة من الاصدقاء تقبل اليها مؤاسية. فالمؤاساة ظلت تجول

في صدور الناس ، حتى والارهاب يشهر سنانه . على أن عفراء ودت ساعة يظلم الليل أن يخلو منزلها من الجميع ، وهي بحاجة الى رؤية مجيد ، والتمهيد له الى الهرب . ولكن ما ارتجت لم يتم لها . فظلت دارها تغص بالقوم ، ومعظمهم من النساء ، ولا سيما العجائز المبالغات في تجسيم المصائب ، وقد اضحت شيخوختهن عليهن وقراً

وشعرت عفراء بأن عليها ان تبصر مجيداً مهما كلفها الجهد . فتظاهرت بأنها مصابة بالصداع ، ودخلت حجرتها تنام فيها . وعهدت في شؤون المنزل الى جارة أمينة . غير أنها لم تنم ، بل اندفعت الى باب ينفتح على الحديقة ، تتبطن منه الليل الى ابن عمها

وتلفتت الى ما حولها لترى هل من يلحق بها . وأيقنت أنها بمأمن من العيون ، فانسلّت الى حيث يختبىء مجيد ، وكان يرقبها على نار . واول ما ابتدرها به قوله الحشيان : ماذا ؟ ... هل دهم الجنود منازلنا ؟

فاجابت لا تخفي عنه الواقع : دهموها !

فارتعد واستوضح بقلق : وماذا فعلوا ؟ ... هل نالوا بعضنا بأذى ؟

فاكتفت بأن تجيب ، كأن كل ما تصبو اليه ان يسلم : لم يقعوا فيها عليك !

— وهل اساؤوا الى احد منا ؟

— لا !

— أما تعرضوا لكم بسوء ؟

— قالوا انهم لن يتهاونوا في البحث عنك !

— واين عمي سليم ، وأخوك نجيب ؟

فأمسكت عن الجهر بالبلية لئلا تؤلمه . وتذرعت بالكذب لتخفيف الشدة ، قائلة : هما في المنزل يعالنان كل من يسألانهما عنك بانهما يجهلان مخبأك !

— أما أطلعتهما على مقري ؟

— لم أشأ إذاعة السر !

فأعجبته رصانتها وامانتها وقال : أحسنتِ . غير عجيب أن تتلألأ فيك رجاحة النهية . على أن موعد نزوحي عن بلدي حان . وجودي هنا يؤذيني ويؤذيكم . فعليّ ان ارحل !

فجللت عينيها غشاوة من دمع . إلا أن الظلام حال دون افتضاحها . قالت : وإلى اين تبغي الرحيل ؟

قال : الى حيث أتقي الشر الكالح الناب . أما ترينه يتوعدني مسنون الشباة ؟

فرضّ مهجتها هذا السعي للهجران . ومالت الى الحؤول دونه ، فاستنبأت ، وفي استنبائها نزوع الى تثبيط الهمة : وأين تتقي الشر ، وسلطانهم مبسوط على هذه الديار جمعاء ، والبحر مقفل الابواب ؟

فابان بهدوء كأنه رسم طريقه ، واجمع على انتهاجه : هل غابت عنك الصحراء ؟

وتراءى له أنه رجحها حجة . فاستفهمت وقد أبت أن تقرّ بالغلبة : لا ، لم تغب عني . ولكن أتقوى على الحياة في تلك الفلوات ؟

فظل يرين عليه الهدوء . قال بثقة العزوم ، المطمئن : أتعوّدها !

فصاحت بألم وخوف : ولكنك لم تخلق لها كي تنطبع ببيئتها ، ولست تملك القدرة على احتمال مشقتها !

— إن فيها لبشراً أمثالي !

– هؤلاء أدمنوا وحشتها وقيظها ، وقد نشأوا فيها !

فقهقه ضاحكاً وقال : اني لصلب العود ، فلا تقلقي عليّ . أيشوقك أن تعلمي لماذا اخترت الصحراء ؟ ... لكونها الملجأ الوحيد الآمن ، ولكون العرب يقاتلون فيها الدولة العثمانية ؟

فصاحت بجزع : أتمشي الى القتال ؟

– وما يقعد بي عنه ؟... فالعرب قومي . وثورتهم على العثمانيين حافزها اتقاء الظلم . أيخفى عليك ما انزلت بنا استانبول من محنة ؟ ... دماء من هذه السائلة على المقاصل ؟ ... وجثث من هـذه المتورّمة جوعاً ؟ ... ومواكب من هذه السالكة طريقها الى المنـافي ؟ ... أليس جميع هؤلاء منا ؟ ... أوَ ليس علينا ان نثور على الاستعباد ، وان نحطم نير الجور ، وان نبني لانفسنا دولة تحمينا ؟

فخشيت أن يقهرها في رحبة الاقناع ، ففزعت الى لغة الرفق بالارواح معلنة : أراك تعرض نفسك للمهالك بلا جدوى . فما يفيـدك فوز العرب وهزيمة العثمانيين ؟

فأجاب بقوة بعثها في نفسه الايمان ، كأنـه بات من ارباب العقائد : يفيدني ان اقوّض هيكل الحيف ، وان استعيد عزّ قومي . فما كنا عبيداً ، يا عفراء . نحن قوم رفعنا بالامس راية النصر . ولقد رهبنا معاوية نفسه . ومن الفخر لنا اليوم أن نسير في ركاب حفـدة معاوية . هم عرب ، ونحن عرب ، فلماذا ينكر الآخ أخاه ؟

فرهبت فيه عنف اليقين . إلا انها ما فتئت تقيم في نهجه الصعاب . فاستوضحت برغبة في القعود به عن التشمير لبغيتـه : وهل تستطيع بلوغ الصحراء ؟

ولم يكن من الهين عليه الوصول الى البادية ، والجيش العثماني منشور في كل صقع ، حارس كل فوهة ، مانع كل اتصال بالاعداء . أما ومجيد حريز اجمع على براح أرض تغور في العدوان ، وليس للحر موطىء قدم فيها ، فاستهان بكل حاجز ، قائلاً بهمة العابث بالاهوال : أنا هنا في خطر ، وفي مسيري الى رمال الحجاز في خطر . على اني اذا بلغت الحجاز توفرت على خدمة أمتي . أما هنا فساظل اسير المنازل ، كالنساء . وقد يباغتني الجنود فألقى الاهانة . وربما الموت . فدعيني ألفظ انفاسي في عمل تفاخرين به أترابك . فأبذل مجهودي في ما يضمن لنا المجد . وأي قدر لسيف يأكله الصدأ ؟

وانها لمن هذا الرأي . أي شأن للاسد المربوط في قفص ؟ ... ولكن أيسلم ابن عمها من كيد العثمانيين في مسيره الى الحجاز ؟ ... ألا يضيع في الفلوات ؟ ... ألا يفتك به اللصوص ؟ ... إنها لمغامرة ، بل مجازفة . على أن بقاءه في زحلة مجازفة أدهى : فمن يعلم الى كم تطول الحرب ؟ ... وأنى يأمن مجيد حريز شر الخيانة ، والوشاية ، وساعة التخلي ؟ ... قالت عفراء متأوهة : ما كان لك ولتلك اللطمة تهوي بها على خد الوضيع . بيدك خلقت لنفسك المتاعب !

فابدى راضياً عما ظهر منه : دافعت عن شرفي . ولو لم افعل لكنت خسيساً نكساً !

فاعلنت وما انفكت تتأوه : انتقمت لنفسك واهلكتني !

فابان يحفزها الى تأييده في المحاولة : عفراء لا ترضى لنفسها حبيباً من الاوغاد !

فاوضحت وهي تتحرق : أما تدرك الى اي ملمة قادتنا نزوتك ؟ ... الى الفراق . فالرغبة في الخلاص من شر غريمك تزجيك الى مفاوز الرمال . وهل ما يحمل عفراء على الامل أنك ستعود يوماً اليها ؟

ولم تقوَ على حبس دمعها بعد شديد إمساكها عليه في المواقي . وارتمت ، على كره منها ، بجانب ابن عمها وهي تجمجم نداءها : مجيد ، مجيد !

فتولته عليها الشفقة . لقد ملكته أنانيته في انتقامه من الضابط العثماني نوري بك . فبذل من نفسه لنفسه . كأنه يعيش وحيداً ، متنائياً عن الخلق . وتناسى أن وراءه فتاة وقفت عليه قلبها ، وألقت بين يديه زمامها . وهل يجهل أثر الحب في المهج ؟...لا . فهو اذا آثر كرامته على كل خلجة فيه ، فما يقوى على الانكار ان لحبه من شعوره المكان الارفع . وما انتصاره لحميته غير وجه من وجوه منازعه . وليس يرضى ان يبدو ازاء من يعشق خائر العزم ، ركيك الانفة . فالهيام يقدر على حامله اتقاء الحسة . والا فكيف يتسع له الى الاعتزاز بابائه حيال من توثقه بها الالفة ؟ ... ومجيد ، وقد شغف بابنة عمه ، رام ان يقف منها موقف الجدير بحنينه اليها . نزلت به الاهانة فردّها ، لئلا تقول فيه عفراء انه ذليل . والمرأة تتنكر للمذلة . غير ان رد الاهانة كلف مجيداً الجسيم من الراحة . فاوجع كبده ، ورضّ روح عفراء . والآن ، وقد فجعها بالقلق عليه ، أيسعى لهجرها ؟... والى اين ؟ ... إلى بوادي الحجاز . ومتى يعود ؟ ... أيدري ؟ ... بل هل له ان يعلم انه سوف يعود ، وربما لن يصل ، والجند العثماني بالمرصاد ؟

وأدمى قلبه أن يرى عفراء تبكي . عفراء زينة فتيات البلدة ، وأرقّهن مبسماً ، واشهاهن حديثاً . وضمها الى صدره يقول وكلماته ترشح بالعطف ،

والحب يطفو على خميل اللهجة : عفراء ، انا الآن بين اشداق المصيبة . وقد اكون اخطأت في ما أقدمت عليه . غير أن الشرّ وقع . وإني لمستعين بنصحك . فبمَ تشيرين عليّ ؟

وأحرجها بمقدار استسلامه اليها . وشعرت بهذا الاحراج . فهو بخطر . وفي مسيره الى رمال الحجاز بخطر . فما هو اقصى الخطرين كي تهديه الطريق ؟

بقاؤه بقربها أفضل . إلا أن خوفها عليه ، وقد ثوى بقربها ، أشدّ من جزعها عليه في ابتعاده عنها . فكل ما تنعم به ، وهو بجانبها ، أنها تتمتع بمرآه . ولكن العثمانيين قد يظفرون به ، وينتقمون منه تحت عينيها . على حين يمنحه اندفاعه الى القتال، في صفوف اخوانه العرب ، الفضل والمجد ، وربما الخلاص

وعفراء تصبو الى المجد ، ككل من لا يرى ان يضيع ايامه في اللغو ، كأن لم يقبل الى دنياه ، ولم يستنشق عرف البقاء . غير انها لم تشعر في نفسها بالجرأة على مخاطبة إبن عمها بما يجول في نفسها . فلن تزجيه الى ساحة القتال. ولن تدعوه الى الاستقرار بفوهة المكاره. فمن حقه أن يختار، وهي تؤيده في ما يقع عليه اختياره . وليس لها ان تحمل تبعةً قد تندم عليها . وأبطأت في الجواب . فقال مجيد : بمَ تشيرين عليّ ؟ ... هل لي أن أقف على رأيك ؟

فأخفت وجهها في صدره ، واطلقت لزفرتها المدى . بمَ تشير على ابن عمها ، والخطر ينتابه من كل ناحية ؟... كل ما استطاعت بيانه أنها رددت قولها : ليتك لم تنتقم من نوري بك !

فقال ببعض التبرم : أما وقد انتقمت ، فماذا ترين أن أفعل ؟

قالت تلقي اليه امره : إختر ما يرشدك اليه ضميرك !

وفي الاختيار كل الحيرة . فتنهد مجيد حريز وأطرق . وفيما يمينه تشدّ الى قلبه برأس عفراء ، تمتمت شفتاه : أرى أن أرحل !

فلم يبقَ من سبيل الى البقاء . ولم تطق عفراء الصدمة ، فعلا نحيبها . فقال مجيد متوجعاً : أنبكي ابداً ؟ ... ألا ترين السلامة في الرحيل ؟ ... لو كنت أقوى ، في بلدي ، على قيادة احدى العصابات ، لاحراج الدولة العثمانية ، لفعلت . ولكن من يسير بجانبي ؟ ... واذا اتفق لي أن اجمع هذه العصابة ، فهل تطول حياتها ؟... أما يخونني فيها حتى بنو قومي ؟... ساجازف . موقفي يهيب بي الى المجازفة . فدعيني أنطلق فيه على هواي . أجل ، كان عليّ أن أُبدي من هدوء الأعصاب ما لم يتوافر لي . بيد أني تسرعت . وإني لشاعر بهفوتي . على أنها هفوة ليس بالامكان النجاة من تبعتها . فارحميني ولا تطرحيني بين أيدي العثمانيين . سيصيبني منهم كل هوان . أتجهلين اي قسوة تطغى عليهم في الانتقام ممن يتمرد على أحكامهم؟... بيروت ودمشق نشرتا علينا ، في اكبادهما ، قاطع البرهان !

قالت وهي تكاد تتقطع لهفة : كيفما أدرتُ عيني بدوت لي في ضيق . فالبقاء ملمة ، والفرار فجيعة . وإن يكن لا بد من الرحيل ، فلست امنعك منه !

فابان بمفرط الكياسة ، حذراً من الايلام : لا بد منه لصيانة شرفي وحياتي . وربما لقيت في الصحراء حتفي . على أني لن أعرف فيها من الهوان ما يصيبني وأنا في قبضة العثمانيين !

وأفضى اليها بسديد العذر . فهو يذود عن الكرامة في كل ما يجمع

عليه . وليس لها إلا ان تؤيده في المرمى . قالت برغبة منها في انقاذه من الجور والحقارة ، كأن الميل الى التضحية اتقد عفواً فيها : إذهب ، وليحرسك الله . إسرع في الذهاب . حياتي ولا شعرة تسقط من رأسك . أنا لا أرضى بأن اجني عليك . استقرارك بهذه الربوع اضحى عليك خطراً . فابتعد لاتقاء الويل !

ونهضت تشتعل فيها القوة على البذل من قلبها . وأنار الفداء وجهها ، وصقل عزيمتها. فشددت في دعوة مجيد الى الجلاء عن دار تتوعده فيها الذلة ، قائلة : من الافضل ان ترحل الساعة . فالليل انتصف ، أو كاد . وزحلة بدأت تنام . وليس بين الجنود من يحرس المعابر . ولكن اخلع عنك هذه الثياب . فقد تفضحك . واخلع عليك ثياب الفلاحين . واحمل المعول . واذا ما فوجئت بقوة من الجند ، فقلْ إنك شاخصٌ الى السهل لتسقي فيه ارضك !

فاعجب بحسن تدبيرها . واستوى للعمل بما أقرّت . فنزع منه ثوب النساء . وارتدى ثوب الفلاحين . وقبضت يمينه على معول رفعه الى كتفه . والتفّ بعباءة سوداء توارى تحتها مسدسان ، وكمية من الرصاص ، وخنجر ، وبندقية قصيرة لا تكاد تبدو للعين ، وقد احتجبت وراء الظهر . وملأ كيسه دنانير وهاجة. وإلا فكيف يقوى على بلوغ الصحراء إن يكن يعوزه المال ؟

ووقف تجاه عفراء والغصة في قلبه ، وفي حنجرته . ماذا يقول ؟ ... بأي كلام يودع من ملك فؤادها ونزلت لبه ؟ ... أيجد كلاماً يساعده على النطق بعبارات الوداع ؟

وعفراء وقفت إزاءه لا تنطق بكلمة . ولم يكن يفصل بعضهما عن بعض غير خطوة . واذا كل منهما يقع عفواً بين ذراعي الآخر ، كأنهما على اتفاق . وتمتمت عفراء ، وقد غلب عليها دمعها : مجيد ، مجيد !

فغمغم : عفراء ، مصباح حياتي ، نور الامل في قلبي وهداي !

وسكتا . وتكلم الدمع . والاثنان يذرفانه . فبكى مجيد حريز وقد هاله الفراق . وودّ أن لا ينفصل عن إبنة عمه ، فيظل معانقاً اياها . ولكن الخطر يزجر ، ولا سبيل الى درئه بسوى الامعان في الرحيل . غير ان الحب كان أقوى من الرغبة في النجاة . وللصبابات مستحكم النزوع الى الاندلاع ، والاستمتاع ، وليس يقف بها عن أمنيتها وعيد ، او هلكة . واذا وقع اقدام يعلو . فخشيت عفراء على ابن عمها ، وجمجمت قولها : إسرع في الفرار . اراهم دروا بك !

وجمدا معاً . وجالت أعينهما في الظلام يتبيّنان المزعج . وضاق بمجيد صبره ، فضمّ عفراء اليه ضمة أخيرة ، وقبلها في شفتيها وهو يقول : الى اللقاء !

وتدلى عن سطح العلية . واستند الى شجرة من الحور ، وبلغ الارض بهدوء وامان . وارتمت عفراء على السطح ساجدة ، تصلي لله كي يرد عن إبن عمها النكبات . وفيما هي مستسلمة الى صلاتها ، وقد تفتحت أذناها لكل هينمة ، سمعت إطلاقة نارية . فتولاها الذعر . ولملمت نفسها والرعدة في قلبها وعروقها . ولم تدر كيف تتدحرج الى الطابق الادنى . وبلغته وكل ما فيها يصرخ رعباً : من أطلق النار ؟ ... وعلى من أطلقها ؟

واستفاقت صديقتها والاضطراب يهزها . ونظرت الى عفراء بعينين تائهتين . فماذا جرى ؟

وما استطاعت عفراء البقاء في المنزل . فوثبت الى ما حوله من الحقول تريد ان تعلم هل من شر اصاب مجيـداً . واذا بها حيال جندي عثماني يشهر عليها بندقيته ، ويصيح بها : مكانك !

فانحلّت قواها . أطلق الجنود رصاصهم على مجيد ، ابن عمها . ودنا منها الجندي ، وكان يحسن العربية ، يقول : أتكونين ربة المنزل ؟

فاجابت ، وهي تكاد تكون معقودة اللسان : لا !

– وماذا تفعلين هنا ؟

– انا ضيفة على صاحبة الدار !

– وأين صاحبة الدار ؟

فأطلّت ربة المنزل ورجلاها لا تكادان تحملانها . واستندت الى الجدار لئلا تقع ، وقالت : انا هي ، فماذا تريد ؟

قال الجندي، وكأنه آلة تدور بلولب : أبصرنا رجلًا يتوارى الساعة في الحقل . أتدرين من هو ؟

فانكرت أن تكون تعرفه . ولاحظ عليها جزعها فوثب عليهـا يمسك بشعرها ويصيح بها : ألا تعرفينه ؟

فاجابت بهلع : لا ، والله !

وألقت على عفراء نظرة جازعة ، منددة ، وكأنها تقول لها بها : أرأيت في أي شدة طرحتني ؟

فقالت عفراء ، وقد تمالكت تجاه النائبة : ليس في المنزل رجال . فإننا لنقيم فيه معاً دون سوانا !

فاذاع الجندي ، وما برح أشبه بالآلة الحاكية ، الناطقة بما أُلقي اليها :

نحن نبحث عن جندي فارّ . ولاح لنا رجل يركض في الحقل مندفعاً من هذا المنزل ، فاطلقنا عليه النار . ولكننا اخطأناه . فمن كان يقيم في هذا المقر من الرجال ؟

فتنفست عفراء بارتياح ، وقد سمعت الجندي يقول إن رصاصه اخطأ الرجل الراكض في الحقل . إذن لقد سلم مجيد . وعادت اليها رباطة جأشها ، وقالت بصوت خلا من كل قلق وعياء : أرباب هذا المنزل هاجروا قبل الحرب الى اميركا . فلم يبق فيه أحد من الذكور . واذا شئتم ان تثقوا بصحة ما نبدي ، فما عليكم إلا ان تدخلوا المكان للتدقيق في الامر . أبواب الحجرات مفتوحة لكم على مصاريعها !

وكانت قد لمحت ، وراء مخاطبها ، أربعة جنود آخرين . وابى الجندي المتكلم ان يكذب عينيه . شاهد رجلاً يركض في الحقول فارّاً منه . إلا انه لم يكن على يقين أن الهارب وثب من المنزل . قال يلجّ في التوكيد : رأيته بهاتين العينين !

وأشار بالسبابة والوسطى الى عينيه الاثنتين . فقالت عفراء : ربما كان مختبئاً في الحقل ، فلما شعر بكم التمس النجاة مذعوراً !

فزعق الجندي بلهجة التهديد : سنرى !

ولبط برجله الارض وصاح برفاقه باللغة التركية : تعالوا !

ودخلوا المنزل بقوة ونفرة ، كأنهم يحتلون خندقاً من خنادق العدو . وجالوا في الحجرات . وتسلقوا العلية . فما اهتدوا الى ثوب للذكور . ولا دلّ المكان على أن ثمة من كان يختبىء فيه . فقال الجندي والخيبة تعضّ صدره : ولكني أبصرته . أبصرته بعينيّ ، وما خدعتاني !

وابتعد ورفاقه وهو يشتم الزحليين ، ويعيّرهم خيانتهم للدولة العثمانية .

قال : هؤلاء يؤذوننا اكثر مما يؤذينا جيش منظم من الفرنسيين والانكليز . فالانكليز والفرنسيون نقف منهم على مناكرة ، ليقيننا بأننا حيال اعداء . أما هؤلاء فلا ندري من هم ، ولا ثقة لنا بهم ، سواء أدرنا لهم ظهورنا ، او وقفنا منهم وجهاً لوجه . فان سلاحهم في مقاتلتنا الغدر والنفاق !

وسرّي عن عفراء وعن ربة المنزل وقد نأوا . والتفتت صاحبة الدار الى ابنة عم مجيد حريز قائلة لها : ماذا كان يصيبنا لو قبضوا عليه ؟

فقالت عفراء بمستطيل الطمأنينة ، كأن جراحها نعمت بالبرء : يأبى الله أن يفجعنا بابنائه النجباء ، يا صديقتي !

قالت ربة المنزل ، وما تفتأ تميد هولاً : لو قبضوا عليه عندي لاحرقوا منزلي وقتلوني !

فهتفت عفراء تردّ عنها الخشية : لا تخافي . كنت افديك بنفسي !

قالت وهي تتمثل جسامة النازلة وترتجف : بل كنا نذهب معاً ضحية مجيد !

فشكرت عفراء لله رفقه بها ، وقد أيقنت أن مجيداً سلم من الاذى . ولكن هل تتوافر له السلامة في الطريق حتى الهدف؟... ان الاخطار لتحيط به من كل ناحية . فضمت الفتاة يديها الى صدرها ، وسددت الى السماء نظرة ملأى بالضراعة ، وقالت مستعطفة ، مبتهلة : ربِّ ، يا من دفعته الى الوجود ، انقذه من اعدائه الاشرار ، الاشراس ، واكتب له التوفيق ، والعمر الطويل !

وخرجت عفواً من فمها كلمة « امين ! » ، تؤيد بها استرحامها ، وقد

تعوّدت أن تعلنها في ختام كل صلاة. ومشت الى مأواها شاكرة لصديقتها حميتها . وبلغته ومصباح الزيت لا يبرح يضيئه . فالعجائز لم ينصرفن، وقد أقمن في معظمهن مكتئبات، تغرق رؤوسهن بين أيديهن، ويتوجعن لمصاب عفراء بمجيد . وليس للاحزان عندهن ان تنتهي، وهي مواسم، بل سوانح. وما كانت لتفوتهن وقد اصبحن وقفاً على التأوه والاعوال

٤

نوري بك ثورة مشتعلة . فلا يهدأ ، ولا يصفو

وانتفخ منخراه مكتويين بزفراته . وضربت رجلاه الارض بنزق وحقد. ونقم حتى على نفسه . فكره كل طعام وشراب . ومـا كان ليقوى على تذليل اوتاره لبعض الحلم

وضاقت به الدنيا فودّ الانطلاق حتى من ثيابه. فكل ما حوله يضايقه ، حتى رنات جرس الهاتف ، وهي تعلنه أن قائده يميل الى مخاطبته

واضطغن على كل زحلي . وغاد ينادي عم مجيـد حريز ، وابن عمه ، ويشدد عليهما في اطلاعه على مخبإ مجيد . فاقسما له أنهما لا يعرفان من امر المحتجب عن الابصار ما يركن اليه . فلم يقتنع بمـا يلقيان في أذنه . ونبر بصخب : انتما تكذبان . إنكما لواقفان على الحقيقة ، بيد أنكما تتجاهلانها للخلاص من النقمة . ولكن هذه النقمة لن تسلمـا منها حتى تذيعا الحق ، او تهلكا !

وأمر بان يجلدا . وكانت قد تورّمت أرجلهمـا لفرط اللسع . وباتا لا يستطيعان الوقوف عليها بسوى جهد . إلا أن الضابط لم يكترث لحالتهما ، ومبتغاه قهرهما ليثأر من مجيد . وتساقط عليهما الضرب من أيدٍ لا ترحم ، وقد وقف ثلاثة من الجنود يشدون أرجلهما بالفلق ، ويمعنون في اللذع . وكلما تعب احدهم ناب عنـه الآخر ، إمعاناً في التشفي . وسال الدم من الارجل ، والسوط لا يقف عن النهش ، ومـا يشبع . وصرخ العم وابن اخيه يستغيثان ، ولا مغيث . فينظر اليهما نوري بك في عذابهما ، ويسمعهما

في أنينهما ، ولا يكتفي . وود لو اهتدى الى مجيد نفسه كي يذيقه الالم والضيم . فكم كان يطرب وهذه الامنية ملء يديه . فالنار المحرقة كانت تنصب على مجيد حريز فتلتهمه . ويتفنن في تدويخه نوري بك فيطعمه في كل يوم الموت مشبعاً ، ليعود في اليوم التالي فيذيقه الهول الحاطم . وهكذا دواليك . فتنهار عزيمة الفتى الهمام ، وتتداعى أنفته ، ويشفى الضابط الحقود من سخائمه الجشعات

وما انقطع الجنود الثلاثة عن الضرب الا وقد اغمي على العم وابن اخيه . فقال عند ذاك نوري بك ، وقد شعر ببعض الراحة : اعيدوهما الى السجن ، وسننظر غداً في ما نعالج به غلوّهما في الكتمان !

وبلغ عفراء ما اصاب عمها وأخاها ، فركضت الى ذوي الشأن في زحلة تستجير بهم من الشانىء الضاري : « رحماكم ، انه ليغمد في جوانحهما خنجره ! » . فقرعت باب القائم مقام . ولجأت الى الاساقفة . بيد أنها لقيت في جميع من لاذت بهم التردد والخوف . ماذا أبقى مجيد كي تجوز في عمه ، وابن عمه ، الشفاعة ؟ ... أهان ضابطاً ، من ضباط الدولة العثمانية ، في صدر بلدة حافلة بالناس ، فكيف يرضى ولاة الامر العثمانيون عن العم وابن العم ، وهما لديهم رهينة موثقة بانجاز مطلب ؟ ... قال القائم مقام : نحن نريد مجيداً ، يا عفراء . فاذا لم يتوافر لنا في هذا اليوم الاهتداء اليه ، لقيت زحلة من القائد العثماني الويلات !

قالت تعلن جهلها مثواه بنبرة يضيع فيها اليقين : ومن يدري أين هو ؟

فاذاع يوضح جسامة الخطب المتوعد : اذا لم ترشدينا اليه اضطرت زحلة الى احتمال التبعة . والله وحده يعلم اي نكبة تحلّ بها !

فمالت عما يخاطبها فيـــه ، وأبانت بغيتهـا ، قائلة : جئت استجير بسيدي لانقاذ عمي وأخي !

فما زال ينقر وتراً واحداً ، وقد أعلن : أنت تطلبين المحال . وربما حلت بكم مصيبة أعظم . إني لأدعوك الى شكران ربك إذا وقفت الكارثة عند هذا الحد !

ـ أأشكر ربي وقد انتثر الشمل شظايا ، ولم يبق منا من ينعم بطلاقة الروح ؟

فافضى بسخط رب المنصب الناقم ابداً : ابن عمك ضعضعنا . وسنمعن في البحث عنه حتى نجده . نحن أنفسنا سنطرحه بين أيدي الجنود العثمانيين !

فلفتته الى حقيقته ، هاتفة : ولكن سيدي من الزحليين !

فنشر عليها القولة القاطعة : سيدك يأبى ان يهدم بلداً بكامله لاجل فرد طائش !

فما وهن فيها الايمان بصواب فعلة مجيد ، ونبرت تناضل عنـه : هذا الفرد أُهين ، ولم يصبر على الاهانة ، فغسلها بقوة ساعده !

فزعق باحتدام ينكر به على ابن عمها سداد البادرة : إنها لحفـة تجرّ علينا المتالف . أنقاوم دولة ، ونحن صعاليك ؟

فما انفكت تدافع عن مجيد. قالت لا ترهب امتعاض القائم مقام، وهو في زحلة من كرام سادتها : هل لي ان اعلم ما يقدم عليـه سيدي لو اتفق له ما اتفق لابن عمي ؟

فصاح بمتأجج الغيظ : دعي عنك السؤال البليد . هذا كلامٌ لا اريـد سماعه . لا ، لا اريـد . إذهبي الى سواي واطلبي اليه ان يتدخل في أمر

اخيك وعمك. أما أنا ، فقد احتملت ما يكفي. فالقائد العثماني يطالبني بابن عمك ، والا فرض على زحلة غرامة فادحة ، واستولى على فئة من خيار القوم كرهائن لديه ريثما يظهر مجيد. أترضين عن زلزلة بلد لاجل دلال غبيّ ؟

ونفض منها يده ، فاضطرت الى الانصراف يدمي الخذلان قلبها . وما لقيت في القائم مقام كابدت مثله لدى الاسقف. وما كانت لتقع على نصير، والجميع في خشية من الارهاب الممتد الظل. فمن لا يطأطىء هامته، اكرهه السيف على الانحناء ، وإلا فني قهراً . ورأت ان تسير بنفسها الى الضابط نوري بك تستشفعه في أخيها وعمها. فليس ما يمنع ان يرقّ لها. ولكن... أتقدم على المغامرة الهاتكة ؟

ولمست الهول وهي تتحفز للمثول ازاء الضابط العثماني . فقد تروقه ويشتهيها ، فما يكون، وستعاند ؟ ... ألا تزيد في البلية ، بدل ان تخفف من حدتها ؟

وترددت في الشخوص الى نوري بك . وخلت الى نفسها والالم يحزّ في كبدها . أُصيبت باسرتها جمعاء ، وبقيت وحدها . وأوجعها ان تعتصم بسلامتها، فيما يعاني اهلها الحسرة والهوان، فاعتزمت ان تذل شموخها لانقاذ أخيها وعمها. واذا مال الضابط العثماني اليها صدّته عنها بالحسنى . فاذا أصرّ ، شكته الى قائده ، وهجرت زحلة تحمل على منكبيها اوصابها

وارتدت ثياباً لا هي بالفخمة ، ولا بالحقيرة . ومشت الى المعلقة ، المضطجعة على رمية حجر من زحلة ، وكأنها ظلها . وسألت عن مقر نوري بك ، طالبة الوقوف بين يديه . وأعلنت اسمها لدى مثولها تجاهه ، فارتعش جفوة . هي من آل حريز . من انسباء مجيد . وآل حريز كلهم

اعداؤه ، بعد إهانة مجيد له . وعبس . وكاد يطردها . أي جرأة ساقتها اليه؟...بيد ان مظهرها اللطيف شفع فيها ، واعانها على الوقوف في حضرة السيد الحردان . ومع رضاه عن طلعتها ، ما استطاع الا ان يجفو . فاستوضحها بنبرة قاتمة : ماذا تريدين ؟

فاجابت برصانة لا تخلو من العذوبة : اطال الله بقاء مولاي ، جئت اطلب الرفق بعمي واخي !

فزمجر وهو يصرف باسنانه : الرفق بمن؟...بعمك ، وباخيك؟...ألا من هما السيدان ؟

ورماها بنظرة قاطعة كالفأس الرهيفة . وسخر ، وشمت ، وقال بلؤم : هل لي ان أعرف هذين الكريمين ، وقد كلفت نفسك سؤالي فيهما ؟

فانتابتها الرهبة . أيجهلهما حقاً ، ام يتخابث امعاناً في التشفي ؟ ... قالت بلهجة تغصّ بالالفاظ : هما سليم ونجيب حريز . فما ذنبهما كي يؤخذا بجريرة ابن عمي مجيد ؟

فصرخ ، وقد تطاير من عينيه شرر الكره والموجدة : ذنبهما انهما مطلعان على مقره ، ولا يعلنان الحقيقة . وانت مطلعة على الحقيقة ، وتتفادين من الجهر بها . فاين ابن عمك مجيد ؟

وكاد يقبض عليها متلبسة بالجريمة . فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت : أيتهمني سيدي بكتمان الواقع ؟

فدمدم عليها : نعم ، نعم . انك لواقفة على السر . اين ذلك المجرم ابن عمك ؟

ونهض اليها بقسوته وحفيظته ، فما تراجعت . وصوّب اليها عينين

لاسعتين ، يحاول ان يؤثر بهما فيها ، ويستدرجها الى النطق . وامسك بيدها بعنف ، وهو يقول : تكلمي . اين مجيد ؟

وشدّ بها اليه ، فأوجعها ، فصاحت : لست ادري أين هو . فما جئت احدثك عنه ، وانا لا أعرف عنه شيئاً . بل جئت استعطفك على اخي وعمي !

– ومجيد ؟

– لست اعلم من امره الا انه توارى !

– توارى في اي جحر ؟ ... قولي !

وما انفك يحدجها بعينين من نار . وتبرم بجسارتها . فانها لتتكلم دون ان تتهيب الموقف والمقام . ولقد أجابته عن استيضاحه بقولة لا تبالي حرج الساعة : ذلك ما أنت أدرى به مني !

فصاح بها وهو يدفعها بغلاظـــة الى الحائط : اطلعيني على مقره ، وإلا حطمتك !

وضرب بها الجدار . فماج الحائط لعنف الصدمـة . وبدت عفراء كالمصلوبة . ولم يكن نوري بك قد فطن الى جلال محاسنها وهو يخاشنها . فانصرف الى إيلامها وحملها على الاقرار . أما وقد بدت له مبسوطـة على الجدار ، تتلظى فيها شعلة ملاحتها ، فوثب الى عينه جمالها الاسنى ، ووقف حيالها مشدوهاً . فماذا يرى ؟... إن الصباحة لتجري فيها على تيه وخصب . وسكنت فورته . وجمدت نظراته على الروعة المديدة الجناحين ، الساطعة كالضياء . وهذه النظرات المعجبة ، المسددة الى عفراء ، أوجعتها بما لم تبلغ منها مخاشنته إياها . فأدركت أنه أحس بوقع وسامتها ، وانها اذهلته ، مع كونها ارتدت من الثياب أزهدها لئلا يشعر بطابع الفتنة فيها . قال يستجلي ، وقد انكسرت

فيه من غلوائه نواتىء : أيكون مجيد ابن عمك لابيكِ ؟

فاجابت بفطرتها الصلبة : هو إبن عمي لحّاً !

فاستزادها تبياناً : وهل يؤوقك أن يسلم من الاذى ؟

فأدهشتها لهجته الصافية ، بعد ذلك الغيظ الصيّاح ، وقالت : ليس من يرضى لابن عمه بالشر !

فبلع ريقه ، وجاول ذهنه خاطر أزعجه ، فاستفهم : يلوح لي منك انك لست بعيدة عن هواه !

فاجابت لا تخفي عن الضابط العثماني منازعها : وهل في حبه عار ؟

وما ابتغت من الايضاح سوى ابعاد الضابط عنها ، إن يكن اشتهاها . ليعلم انها موقوفة على سواه . فاختلج نوري بك ، كأنها لسعت غيرته ، وكأنه احب عفراء وابى ان يجد فيها منافساً . قال يزري بشأن مجيد : ولكن مثله غير جدير بك . فأنت لمن هو اكرم وجهاً !

فآلمتها كلماته ، وقالت بنبرة يطل منها الحرد : لم أقف بين يدي سيدي لسوى استعطافه على أخي وعمي !

فاحتمل جفاف لهجتها ، وقد صبا اليها ، وقال ملاينـاً : سأنظر في امرهما لاجلك !

وابتسم . وابتسامتـه نضحت بالاغراء . فخافت عفراء ان تحدثه نفسه بالنيل منها ، فتولتها الرهبة . على انها استعانت بالحزم ، وحدثته في ما اندفعت تلتمس منـه . قالت : ما النفع من سجن أخي وعمي ولا صلة لهما بما اقترف مجيد ؟

فرمى الى الاستغلال ، بعد وعده بالنظر في الامر . عليه ان يشتري بسماحه

هذه العجراء ، وان يليّنها لشهوته . قال بلهجة فجّة يستعيد بها سطوته ، ويرضّ من زهو الفتاة : وانى نقع عليه ان لم تكن هناك رهينة؟...سيبقيان في السجن ريثما نهتدي الى ابن عمك !

– واذا لم تهتدوا اليه ؟

فاجاب بكيد الطامع في بدل الاخلاء : سيبقيان في السجن !

– حتى يشاء الله ؟

– ريثما نقبض على مجيد !

وطاب له ان يثير ألمها ليعالنها بان ما ترجو صعب المنال . قالت : ولكنهما بريئان !

– براءتهما لا تنفي معرفتهما مقر المجرم الفارّ !

– أقسم لك بالله ...

– لا تقسمي باحد . أنا موقن أنهما مطلعان على مقره . كل ما اصونهما عنه ، لاجلك ، عذاب الجلد ، ما داما على نهك قوى . فلا ادعو الى لسعهما بالسوط الا وقد نعما ببعض الراحة !

فصاحت مولولة : سيدي ، إشفق عليهما !

فشاقه أن تولول جازعة . واستوضح بسخر : ولماذا الشفقة ؟ ... وما يهيب بي اليها ؟ ... أنعفو ، ونحن في حرب ، عن اعدائنا ؟

وتجانف عن المعروف . فأعلنت عفراء بمستطيل الاسترحام : ولكنه الحدب على البريء !

وأرشدته الى المفروض على الرفيع الخلق . فقهقه ضاحكاً ، وقال يهزأ بالحلم : أنا أدرى منك بالابرياء . فدعي عنك ما لست احتاج فيه الى هدى.

على اني اذا اشفقتُ على عمك واخيك ، فماذا يسعك ان تؤدي من بدل هذه الشفقة ، وسأعدو بها حد منصبي ؟

فوضح لها مطلبه . إنه ليبتغيها . غير انها تجاهلت وقالت : أيريد سيدي مالاً ؟

فازرى بما يسمع منها ، وقال بابتسامة من اعتزاز : كنت أحسبك أدهى. أيخدع المال أمثالي ؟

فمضت في تجاهلها قائلة : لا أراني ادرك مقصد سيدي !

فضحك ضحكة تمور بالاستهواء ، وتزيل من جسامة العقبة ، وقال : ولكنه ليس لغزاً ، وفطرتك كانتْ تدلك عليه !

فامعنت في التظاهر ببلادة الحس ، وقالت : ربما كان مغلقاً عليّ !

فقال يلفتها الى الطلبة : أتنسين جمالك ؟

فراعتها القولة . الوحش يتحفز للافتراس . على انها اعتصمت ببعض ما لا تزال تملك من رباطة جأش ، وما انفكت تتظاهر بالغفلة ، مستوضحة : واي شأن ثمة لجمالي ؟ ... هل من سبيل الى التحدث عنه في معرض الرحمة ؟

وألقت سؤالها بمرارة تتصنع البراءة ، كأنها تميل الى إبلاغ نوري بك انه ينطح صخرة . فلم يشأ ان ينثني . وقال بتؤدة تبطن الاصرار على ادراك الارب : شأنه كونه ثمن ما اقبلت فيه !

فلم يبق من سبيل الى إبداء الصمم . قالت عفراء تدعو الضابط الطامع فيها الى الزهد في المطلب : ولكني ما جئت للمساومة ، يا سيدي . بل اقبلت في ابتغاء الرأفة . واني لموقنة انها بعض ما يتسع فيك من ندى !

فلم يهزه الكلام العريق في الكرم ، وقال : دعيني من السفاسف . طريقك الى بغيتك جودك بما ينتشر فيك من بهاء !

فعمدت الى الملاينة ترقب بها تحويله عن جموحه . قالت : هذا البهاء حبسته على من بات مرتهناً به . فلا مقام له في ما التمس . وليحسبه سيدي غير موفور . ولينظر إليّ كفتاة بشعة ، دميمة الطلعة والمهجة !

فأبان لا يتراجع : ولكنك حملته اليّ !

فقالت بغيظ : سيدي ، لندع جانباً جمالي . ربما كنت مخدوعاً به . انا في حضرتك لاطلب منك الرفق باخي وعمي !

فاجاب دون اكتراث لغيظها ، ولا شأن في الحرب لدى الجندي للمرأة وللروح : لن امنحهما هذا الرفق بلا مقابل . فاذا شئتِ أن اخلعه عليهما ، فهاتي ما يقنعني باني لست مغبوناً في الصفقة !

فتولاها احمرار الخجل . وتجلى لها أنها أفسدت ما اندفعت لاصلاحه ، وأن مجيئها الى الضابط العثماني زاد المشكلة تعقيداً . قالت : إني لاعهد في امرهما الى حمية سيدي . وما للسليم الضمير الا ان ينتصر للحق !

فتبرم باستمساكها بعفتها ، وبحديثها عن المعروف والنهي عن المنكر . وجنح الى الخلاص منها وقد جرحت زهوه بزوغانها عنه . فقال متأففاً : صدقتِ ، صدقتِ . إذهبي الآن . وسوف نرى !

وصرفها عنه ليذلها ، حتى إذا ما عادت اليه عرفت موقفها . فلا تظل مالكة تيهها . فعليها ، إذا شاءت الفوز بامنيتها ، أن تخفف من الالتفات الى الفضيلة . وراعها هذا الطرد الخشن ، فانفتلت غضبى ، واعتزمت ألا تعود . ووضح غضبها في مشيتها . ومال نوري بك على النافذة يتأمل منها المبرطمة

المخذولة ، وهو يبتسم ابتسامـة الختل والتشفي . طعنها في صميمها . وخطواتها دلته على ان الطعنة ماضية ، نجلاء . قال الثعلب الذئب في نفسه : لا ندحة عن رجعتها اليّ . ولكن برقة المعطاء . لن يفوتني الاستمتاع بها ، وهي ابنة عم مجيد . اذلني في انفتي ، وسأذله في حريمـه . وهل للوقح ان يقهرني ، وهو ، وقومه ، تحت رحمتي ؟

وصرف باسنانـه . واعتزم الانتقام الشافي . وزاده شوقاً الى عفراء كونها ابنة عم غريمه . لطمة بلطمة . على ان نوري بك سيتفوّق في لطمته ، وهي في صميم العرض والروح

٥

ترجل القائد العثماني عن جواده ، في حارة البيادر ، في زحلة ، وقد رسا فيها القائم مقام . وضرب بمهمازيه بلاط الاروقة ضربات جافية تشيع فيها النازلة . وانتشر في وجهه الامتعاض ، حتى بات كل من يراه في خشية على نفسه . فيحيد عن طريق صاحب السعادة ، او العطوفة ، لئلا تنزل به الغضبة المنذرة بالانفجار

ووقف في الرواق الاخير ، إزاء باب ازدحم بـــه خلق جمّ ، يدعو الحاجب الى ابلاغ القائم مقام بك أن صاحب السعادة القائد العثماني أقبل . ومعنى التبليغ : ماذا فعلت بمجيد حريز ؟

وشعر القائم مقام بحرج الموقف ، فاندفع الى الباب ينحني انحناءة المبغوت ، ويرحب بالقائد العثماني بابتسامة تشفّ عن مفرط المصانعة . ودعاه الى الدخول ، وما زال يلتوي في حضرته كالعبد . فولج القائد الديوان ويسراه الى مقبض سيفه . وبدا في بزة فخمة برّاقة ، كأنه مقبل في مهمة خطيرة . وجلس بجانب القائم مقام ، وقال بلهجة السيادة المتشامخة ، الموقنة كونها ربة الامر : هذا هو الموعد المضروب ليجيئني فيه سعادة القائم مقام بك بالمجرم مجيد حريز . فاين هو ؟

وبدا كالنسر المتحفز للوثوب على صغار الطير . وحار القائم مقام في الجواب ، وانتقع لونه . إلا انه لم يخرج عن ابتسامته الراتعة في حمى الخسف . فقال وهو لا يدري كيف يوفق للنجاة من الغاشية : ما نزال نجدّ في البحث عنه ، يا صاحب العطوفة !

فانتفض القائد ناقماً ، وجلجل : ألم تجدوه حتى الساعة ؟

فانبرى القائم مقام يدفع عن نفسه الدرك ، معلناً بصوت يتهالك على اظهار الولاء: لم نبقِ مكاناً إلا بحثنا فيه عنه. والاهتمام بالقبض عليه مبذول في المدينة جمعاء . فليس في زحلة من يرضى بأن يهان ضابط عثماني !

فما لوت المؤانسة من جماح القائد الغضبان . فزمجر وفي صوته سوط ، وفي عينيه حراب : هذا كلام لا اريد سماعه . ضربت لكم موعداً للقبض على المجرم ، ولم تقوموا بما عاهدتم عليه . والنكث بالعهد يحملني على اتهام زحلة باسرها بجريمة اهانة الضابط نوري بك . وأراني مضطراً الى معاقبتها . فافرض عليها غرامة الف دينار عثماني ذهباً . واقبض على خمسة من وجهاء القوم فيها لاحتفظ بهم كرهائن ريثما يؤدى المبّ المال . عفوي جرّكم الى العبث بي . انا الجاني على نفسي . بيد اني لا اجني على وطني . اني لأبطش بكل من يسوّل له اشره الغمز من شرف الجندي العثماني.. احقر حقير في الجيش بمقام ارفع جبين . فاتقوا الاستخفاف بانفسكم !

فصاح القائم مقام مرتاعاً : ولكن زحلة بكاملها لا تملك اليوم هذا المبلغ ، يا عطوفة القائد !

— ربما كانت لا تملكه . على أنها مرغمة على أدائه . والا فالرهائن تبقى لدينا ريثما تصل الينا الغرامة !

— ومن أي خزانة تأتي بها المدينة القاصرة اليد ؟

فاشتد بالقائد العثماني العبوس ؛ وضرب بيده المنضدة ضربة اهتز لها الايوان ، وصرخ بلا مبالاة : يوسعها ان تبيع اجمل دورها لوفاء ما عليها ! ونهض وهو يقول بنبرة باترة ،متوعدة : أمامكم ثلاثة ايام للاداء . وبعد

ساعة تصل اليكم اسماء الرهائن . فادفعوا اليّ اصحابها اذا شئتم ان تسلموا !

ورفع يده الى رأسه يعلن التحية العسكرية . وانصرف لا يلتفت الى ما حوله ، كالرصاصة المسددة الى هدف . فوهت عزيمة القائم مقام . أيقوى في أيام ثلاثة على جمع الغرامة ؟... وغلت زحلة غلياناً جيّاشاً والنبأ يتصل بها . وأسرع كبار القوم فيها الى القائم مقام يصارحونه بنضوب الصناديق . فليس في زحلة مئة دينار عثماني ذهباً . ولكن القائم مقام ، وهو يلمّ بجسامة الخطب ، وبحلكة المصير ، هتف ملتاعاً : علينا ان ندفع !

فتنبهت الخشونة الزحليـة في هؤلاء المتنكرين بجلد الحمل ، ريثما يأتيهم الفرج ، واعلنوا بامتعاض وحرقـة : بل نحن نشكو الامر الى جمال باشا القائد الاعلى . فلا نحسبه يرضى بهذا الظلم !

فكاد القائم مقام يقول : من هالك ، الى مالك ، الى قابض الارواح ! على أنه ادرك موقفه كصاحب منصب ، فتولاه الصمت . قال الاهالون : جمال باشا في صوفر . فما يمنع ان نمثل بين يديه فنطلعه على الاجحاف ؟

وركبوا القطار الى صوفر ، لا يحفلون بصيحات القائم مقام ، المشدد عليهم في الاداء بلا ابطاء ، والراغب ، في قرارة نفسه ، في مثولهم ازاء القائد العثماني الاعلى في سوريا ولبنـان لعرض ظلامتهم ، وهي فادحة ، لولا خوفه من غضبة قائد زحلة عليه ، ولم يتوفر على اطفاء النار

وجمال باشا يقيم في صوفر في قصر منيف ، ومنه يدير دفة السياسة والقتال في جنوبي السلطنة العثمانية . فقبض على زمام الجيش العثماني الرابع ، وانتهت اليه الامور من حلب حتى العريش وصنعاء . فالرأي ما يعلن ، وليس لرأس ان يبقى بين كتفيه اذا قضى عليه جمال باشا بالانتثار

ويكفي ان تتلفظ الشفاه باسمه كي تضطرب الخواطر ، وتمسك الافئدة عن الخفقان . فكأنه الموت الزؤام . ولقد خاف ان ينتقم منه العرب بعد افراطه في التنكيل بهم ، فاحاط نفسه بمنيع الحرس. وانتشرت في الطريق اليه الجنود العثمانية يدل مظهرها على البأس ، مع ان بطنها يشكو الجوع

ووقف الزحليون امام قصر القائد العثماني ، الغارق في الابهة والرهبة ، والسابح في دم ضحاياه كأنه يغوص في خمرة العرس ، تتولاهم الخشية ، وتقلق الرعدة مهجهم . انهم على وشك الوقوف في حضرة من يحمل بين شفتيه الموت والحياة . كلمة واحدة منه تحيي أمة ، وتحرق بلداً ، كأنه نيرون رومة ، او جنكيز خان

وتساءلوا عمن يدخل في الطليعة على الذئب الاحمر . وتاقت نفوسهم الى النكوص وقد أمسوا على مقربة من القائد الراعب ، البطاش . فآثروا اداء الف دينار عثماني على المثول في الوجار المتخم بجماجم الضحايا . الف دينار ولا رؤية الجلاد الدامي النصل . على ان الحاجب ، وهو من اصحاب الرتب السامية في الجيش ، كان قد ابصرهم ، فهرع اليهم يقول : ماذا تشتهون ؟

فاضطروا الى القول بمستفيض اللين ، حتى كادت الدماثة تمسي خنوعاً : نرغب في التشرف برؤية صاحب الدولة . فاننا لنحمل اليه استعطاف مدينة زحلة ، طالبين انصافاً !

وشاء حسن الطالع ان يكون جمال باشا في ذلك اليوم مبتهج النفس ، راضياً عن زمنه . فاجاز للزحليين المثول ازاءه. وما جهل ما يدفعهم اليه ، وقد حدثه قائد زحلة عما فرض على المدينة من غرامة

وحبوا اليه بجذر . وشاهدوا فيه جمالاً قاسياً . فهم حيال رجل ابيض

البشرة ، اشقر ، مستدير الوجه ، ممتلىء الخدين ، عريض الجبين . في عينيه فظاظة ، وفي شفتيه جزم. وما بهاء طلعته سوى بهاء النمر في جلده الارقط، المزخرف . اما رحابة صدره فرحابة العنكب للذبابة ، وما يميل الى سوى التهامها . واما ابتسامة شفتيه فابتسامة الافعى للعصفور . وما تبتغي سوى اجتذابه الى شدقيها لتذهب به. وجمال باشا ابتسم لهؤلاء الواقفين بين يديه على افتراز الخسوف والهلع . واضرمت ابتسامته في قلوبهم بعض الانتعاش ، وما رصدوا غير التنديد. على انهم ما زالوا يتمنون لو يتسع لهم الى الرجعة مخافة ألا يعودوا ، وقد وقعوا في الشبكة . واجال فيهم الطاغية عينيه النهمتين فيما يدخن لفافة من التبغ ، وقال: ماذا تشكو زحلة كي تهرعوا اليّ في انصافها؟

فاعلن كبيرهم ببعض لجلجة : اقبلنا نحتكم في ما يساورنا من بلاء الى مولاي صاحب الدولة . كل بلد لا يخلو من الاشرار . فاذا ما قام شرير يجدف على الله ، فما ذنب ابناء البلد أجمعين ؟

فابان القائد المخوف بصوت يترجح على جد ومزاح : ذنبهم ان هذا الشرير ينتمي اليهم !

— ولكننا ننكره . فهو ليس منا !

— والى من ينتسب وقد انكرتموه ؟

— الى نفسه ، يا صاحب الدولة !

فما شعروا بسوى الحدة تغلي في القائد الباسم. فالانقلاب دهمه كاندلاع الشرارة . لقد عوى الذئب في القائد الاحمر. واتسعت عيناه وأفاضتا ببريق النقمة . فتخاذلت الركاب . وهلعت القلوب . وانتصبت قامة جمال باشا على قصرها . وشعر كل من حوله بانهم حيال جبار ، لا ربعة في الرجال .

وتكلم بنبرته الوثابة ، وعبارته السريعة ، المقتضبة ، القاطرة سماً ، فقال : من يجرم ويفلت من يد العدل تقع تبعة جريمته على بلده . فاذا أجرم زحلي وفرّ ، أخذنا بجريرته زحلة باسرها !

ونظر اليهم نظرة الضاري الى الفريسة . فاذا الشحوب يكتسح في وجوههم مسكة الاشراق . فكأن جمالاً حمل مبضعاً واستنزف به دمهم . قال ، وقد أحس بعظمة سلطانه تطوي فيهم حتى نبضة القلب : ما خفي عليّ ما بدر من مجنونكم . وما دمتم عاجزين عن تأديبه فعلينا تأديبه . تجاسر النذل ولطم ضابطاً عثمانياً . فكان عليكم أن تمسكوه وتحملوه الينا لينال جزاء عملته . أما وقد عبثتم بالمقدور ، فاحتملوا ما يفرض عليكم غادر العبث !

قال كبيرهم ، وما خلا من بعض الاقدام يسعفه في الابانة : نحن أبرياء من التبعة ، يا صاحب الدولة . أما وقد شئتم ان نرزح بأعبائها فليس لنا ان نجادل في ما ترتأون . الا ان مبلغ الف دينار في هذه الايام الضيقة جسيم ، فادح ، لسنا نقوى على احتمال أثقاله !

فدمدم عليه : يدهشني قولكم انكم لا تملكون المبلغ ، مع أني اعلم حق العلم ان زحلة غنية . أتخاتلون حتى في الغرامة ؟

فزفر الوجيه الزحلي : كانت غنية ، يا صاحب الدولة !

فزجر القائد الاكول : ومتى كان هذا الغنى ؟... أيام نعمتم باموال فرنسا ؟

وغمز عليهم وعيّرهم الخيانة . فانكروا . وهم صادقون في الانكار . اي مال ورد عليهم من الفرنسيين ؟ ... قالوا : فرنسا جاءتنا بالعلم ، لا بالمال ، يا مولانا الباشا . فالمال أحرزناه بجدنا . فان ابناءنا ليشقون في المهجر ليربحوا الدينار . ولو كنا على اتصال بهم لبنينا جسور الذهب . أما ولا

سبيل لنا اليهم ، فاننا نعالن صاحب الدولة بان الغرامة المفروضة علينا باهظة ، فنلتمس اعفاءنا منها !

— وضارب الضابط ؟

— سنبحث عنه . عدا ان جدران السجن تضم عمه ، وابن عمه !

— والاهانة النازلة بالجيش ، كيف نغسلها ؟

فتلعثموا . كيف ينجون من الورطة ؟ ... وشعر جمال بان عليه ان يبدي علالة من رفق ، بعد ذلك التبكيت اللاسع جباه القوم ، وما ابقى منهم على زهو ورجاء ، فانطووا له على حقد . فقال بصوت ما يبرح خشناً ، الا انه رشح بفضلة من حلم : هذه الغرامة أعفيكم منها . على ان تعتذروا للضابط عما ناله من سفيهكم . واذا لم تفعلوا فرضتها مضاعفة . وعمدت الى التنكيل . فالجندي العثماني ظل الله على الارض !

فانحنوا حتى كادت جباههم تلطم الحضيض ، وما صدقوا كونهم نعموا بالسلامة . وتمتمت شفاههم بفرحة يمازجها الهول : الف شكر لصاحب الدولة مولانا !

وهتفوا لجلالة السلطان ، وللدولة العلية العثمانية . وهو ما لا بد منه لاستكمال ضروب المصانعة . وعادوا الى زحلة يذيعون الاماديح . اعفاهم جمال باشا من الغرامة . وفيما يعودون مبتهجين ، مرددين : « الله ينصر السلطان ! » ، كان نوري بك يأمر بجلد نجيب حريز وعمه ، لا انتقاماً من مجيد في هذه المرة ، بل من ابنة عمه عفراء ، وهي الممانعة في إباحة محاسنها لمن شاقه ان يمثل حيالها دور العاشق الولهان

٦

علا في سجن المعلقة أنين نجيب حريز وعمه ، مع كل جهدهما في حبسه وإخفائه . فالجند مضى في جلدهما بحنق وبرغبة في التشفي ، فغلبهما على أمرهما ، وحملهما على بثّ شكواهما مكرهين

وأشفق عليهما الناس في نكبتهما القاصمة ، وليس من جريمة يؤخذان بها . على أن الشفقة لم تكن يومذاك ذات جنى . فالعقم ممسك بها وما تشفي من علة ، ولا تنقذ من جوع . فالجيش العثماني يزدريها . والاهل في شغل بانفسهم عن الانتصار لها . والرهبة لجمت الافواه ، وشلّت الاوصال ، وفي كل فم شكيمة ، وفي كل رجل قيد . والفائز من نجا بنفسه ، فكيف يلتفت الى من حوله ، والآباء ، حتى الآباء ، جهلوا فلذات الاكباد ؟

وسمعت زحلة الانين المتصاعد من بين جوانح السجينين ، فأحرقها ما يسقط اليها من صراخ الضيم . بيد أنها شعرت بعجزها ، فاكتوت بلوعتها ، وهانت في الجهر بألمها . بل هي عضت شفتها لئلا تعلو صيحتها . وأدمت هذه الشفة ولم ترتفع لها نأمة . وجعٌ على وجع ، كالملح على الجرح ، بل على الجراح . فما ثمة بلية نجيب حريز وعمه وحسب ، والبلايا تراكمت ، كما يتراكم ، في الدار المهجورة ، الغبار على الغبار . فالعثمانيون لا يؤمنون بزحلة ، وهم يتهمونها بحب فرنسا . فمنعوا عنها الزاد ، واضطهدوها . واستفحل فيها الغلاء . وجفّت موارد الرزق ، فامتدت اصابع الجوع الباردة ، القاسية ، الى الاعناق تطويها

وراع القوم أن يستأسد القحط بجانب الظلم ، والوباء ، والخوف .

وحاروا في اتقاء الدواهي المجتمعة ، كأن يضيمها ان تقبل فرادى . فالبردوني نفسه أظلم وجهه ، وهو النهر الفياض بالخير ، الضاحك ابداً ، حتى في جنون الزمجرة . فلم يكن يجرف في مسيله غير الجثث والعظام . هياكل بشرية ، تلو هياكل ، تندفع في مياهه ، لكأن النبع انبجس في مقبرة . هنا جمجمة ، وهناك ذراع ، وهنالك ساق . كأن الارماس فتحت ابوابها وصاحت بالموتى : « ألا اخرجوا ! » . فطغت عظامهم على الارض يتقاذفها جارف التيار

هي ضحايا الجوع . والجوع والحرب صنوان . جائح وجائحة . وزحلة عرفت الجوع كسائر انحاء لبنان . فاذا ما انتحب نجيب حريز وعمه ، في سجنهما ، فلن تفكر فيهما المدينة العطوف على بنيها ، كما تفكر في دفع المهلكات عنها

ولكن عفراء تكلمت . وتكلمت بشدة وإلحاح . فلم تهدأ . ولم تنم . وعادت الى القائم مقام تطلعه على المصيبة . فلم يتبدل موقفه منها ، وما خرج عن اللازمة ، قائلاً : اين مجيد ؟

قالت تبعد به عن التكرار المملّ ، الناخع : ومن يعلم اين هو غير الله ؟

قال بجفاء : ما دام امره مجهولاً ، فلا سبيل الى عمك وأخيك !

وصاحت فيه الحدة ، ونطق الجزم . غير ان الفتاة لم تجزع . فاستوضحت ، وخفة ظلها ، وملاحتها ، تفتحان لها المسامع والالباب : أيلقيان هذا العذاب وليس من جرم ارتكبا ؟

فهزّ كتفيه ، كأن الامر لا يعنيه . فمن حق القوي ، في عرفه ، ان يفتئت بالضعيف . ويئست عفراء من القائم مقام ، فاسرعت الى اقطاب المدينة

تستعديهم مرة اخرى على بليتها، فهتفوا بها ساخطين : هاتي مجيداً وخذي عمك واخاك. كاد نزق ابن عمك يجرّنا ، لولا لطف القدر، الى الاعواد والمنافي ، ويثقل عواتق البلدة بما لا قبل لها به . الا ان قبساً من رحمة انار ضمير المتنكر لكل رحمة ، فردّ عنا ضربة الفأس . وهفونا الى ضابط المعلقة نعتذر له عن رعونة مجيد . ونطلب اليه اطلاق سليم ونجيب من اصفادهما . فقبل العذر ، واشاح عن الطلب ، معلناً بصلف وقسوة : « لن يخلى سبيل هذين الا وقد سدّ ذاك مسدّهما . فلا تتعبوا في نيل ملتمس ابتر ! » . وتصامّ عن كل شفاعة . وابى علينا التبسط في الترجي . فخضد هممنا . وكمّ افواهنا . واني لمن خابت سؤلته ان يعرّض نفسه للمهانة ؟

فصاحت بنبرة مقهورة : من لي اذاً ؟ ... من لي ؟

ليس لها سوى عفافها تضحي به ، او يد الله . والحرب في اكتساحها الارواح تكتسح الحرمات . وكم من فتيات انتهبت المعمعة طهارتهن . وعفراء تعرفهن ، وتعلم أنهن ينتمين الى خير فئة . وبوسعها ان تعدهنّ واحدة واحدة . ومن هؤلاء ثلة بذلت نفسها لاجل اللقمة . دهمها الجوع ، فاقامت من عفافها درعاً تتقي به الهلكة . غير ان عفراء حريز لن تقدم على هذه التضحية لانقاذ عمها واخيها ، ولها من عزمها ما يدرأ عنهما المحنة . واذا ما سقط في يدها ، وتلاشيا ، لحقت بهما بعد ما تذيع الفضيحة ، وإن تكن بين عمي صمّ بكم ، لا تأخذهم في النصرة مبرة

هي لمجيد وحده . لمجيد ، أو للتراب . وبحثت عمن ينجدها وقد تناءى عنها الاقطاب . ففكرت في رجال الدين . لا عليها ان تعود اليهم لائذة بمعونتهم؟... ألا يتكلمون؟... وما الفائدة منهم اذا خرسوا؟... وما يحملهم

على الادعاء أنهم الرعاة، وليس فيهم من يرفع عقيرته ، والذئب يواثب القطيع ؟

وتذكرت الآية : « الويل للحارس الذي لا يسهر ! » . وانتضتها سيفاً قاطعاً . وانطلقت الى دار الاسقف تصيح : أنموت في السجن وانتم تنعمون بالامن والطمأنينة ؟ ... أنتعذب وأنتم فرحون ؟ ... ليس لهذه المهمة انتدبكم ابن الله !

وهزّتهم صيحتها . وهالهم التنديد ، وهم يخشونه . فاسرعوا اليها بثيابهم السود ، مذعورين ، يسألونها عما بها . واختلج ذعرهم في عيونهم الناتئة ، المسنونة . قالت ببعيد التململ : ألا تدرون ما بي ؟ ... اخي نجيب وعمي في السجن تلسعهما السياط . فاذا لم ألجأ اليكم لتسعفوني ، فالى من اتجه في دفع الضيق ؟

فالتفت كل منهم الى الآخر يرقب منه ان يجيب . وسمع الاسقف الضجة ، فاطل من نافذة ايوانه ، يقول ببطء يتصنع به العظمة : ما بك ، ايتها الابنة المائلة الارض صياحاً ؟

ولم ينقم عليها . وما نقم احد منهم عليها وفي جمالها سلطان ، وفي منطقها قوة وعذوبة . قالت : سيدي الكريم، استنجدت بك ، فما أنجدتني . واني لأرجع اليك في التماس المظاهرة ، ولن انصرف عنك الا وقد حققتَ بغيتي !

فادركت الحيرة الاسقف . ليس يبخل على عفراء بالعون . بيد انه يخشى الخيبة . فالزمن ليس زمنه ، والدولة غير دولته . قال وهو لا يدري ما يقول : أنقوى على إنصافك ولا نفعل ، يا عفراء ؟ ... ألا ما يمسك بنا عن الغوث وعليه وقفنا أنفسنا ؟ ... ولكنها الايام الملتوية ، وليست تجري

طوع يميننا !

والاسقف وثاب القامة ، مع كونه في الستين ، عريض الالواح ، اسمر . في لحيته المنتشرة على صدره ، كالمروحة ، رشاش من خيوط بيض ، كنثير الرماد . وامتلأت عيناه عزماً . إلا أنه حسير ، والجو ملبد بالغيوم الكوالح . قالت عفراء تشدد في بلوغ الرجاوة : أريد أن تسعفني . فالى من أشكو أمري اذا لم اتظلم اليك ؟ ... أيشوقك ان نلقى الهوان ، ولا يرتفع لك صوت بالدفاع عنا ؟

فزفر عالياً ، وقال بانكسار : ولكن الولاة لا يصغون الينا ، يا ابنتي . هذا عهد ليس لنا فيه راية مرفوعة . اعداؤنا سيطروا فيه ، واضحوا سادتنا . وليس فيهم من يقيم لنا وزناً . واذا ما تكلمنا كنا اشبه بمن يفيض باللغو . وانا أكرم نفسي ، فلا تجرّيني الى موقف ألقى فيه المذلة !

فصاحت لا تنثني عن طلبتها : بل اريد من صاحب السيادة ان يتكلم . فليس من الحكمة ان يموت بنوك على مرأى منك ولا تحرّك شفتيك . انت رأسنا . فكيف ترضى بان نتعذب تجاه عينيك ولا تكلف نفسك الذود عنا ؟

فهتف وقد احرجته : ومن أخاطب في الامر ، يا عفراء ؟

فاعلنت لا تحفل بما يلمّ به من تأفف : عليك بالقائد العثماني المستقر بتلّ شيحا !

فان هي لم ترفع الصوت وتظهر الشدة ، فلن تبصر احداً في مساندتها . غير أن الأسقف لم يكن على صلات طيبة بالقائد العثماني ، مع مستفيض سعيه لخطب وده . فالقائد يكره في طبعه رجال الدين من أي طائفة كانوا . وازداد نقمة على رجال الدين في زحلة لكونه يعرفهم يميلون الى الفرنسيين .

وهو ما ادركه الأسقف ، ولم يكن غبياً . أما والفتاة تلحّ عليه في مخاطبة آمر الجيش ، فأحس بكونه مكرهاً على اجابتها الى الطلبة . غير أنه لم يندفع بنفسه الى ذلك الثاوي بتل شيحا ، وكأنه في بلاطه ، يشرف منه على زحلة بكاملها كأنها في متناول يده . بل دعا اليه الاخ حنانيا ، احد كهنته ، يقول له بصوت هادىء ، الا انه نافذ الأثر : ايها الاخ حنانيا ، عرفتك ذا دهاء . ورأيتك تفهم لغة هؤلاء العثمانيين ، كما يفهمون لغتك . فهل لك ان تقضي لهذه الفتاة حاجتها ؟

والاخ حنانيا طويل ، أشقر ، باسم الوجه ، أحمر الخدين ، تجول في عينيه نظرات الثعالب . فليس من يدري ما يريد ، وهو يضحك للجميع . ويتسامح أحياناً في شؤون الدين اذا ما اضطره الموقف الى التسامح . فيساير كلاً على هواه . يعرف هذا تقياً ، فيحدثه عن التقى . ويبدو له ذاك كافراً ، زنديقاً ، فيجاريه في كفره وزندقته . وتخاطبه النساء فيثير ضحكهن بخفة روحه . ولا يلذعه الخوف من الخطيئة اذا ما تعمق في محادثتهن . فكأنه من رجال الدين ، وليس منهم . والأسقف خبره وتعامى عن غرائبه ، ليقينه أنه بحاجة اليه . فليس من مهمة دقيقة الا وينتدبه لها . وليس من مشكلة الا والاخ حنانيا سيد في حلّها . فكأنه ، وقد عرف الحياة أضحوكة من الاضاحيك ، دانت له أسرارها . فلا يقف كليلاً حيال لغز من ألغازها

والاخ حنانيا لا يجهل عفراء . وطالما جالسها وبادلها الملاطفة . على أنه أدرك من أي معدن هي ، فما جاوز في أحاديثه الحد ، وقد اجلّ الفتاة ، وأقرّ بفضيلتها . ولما طلب اليه الأسقف ان يتدخل في أمرها ، قال : لا أرى ما يحول دون أهتمامي بشأنها ، يا صاحب السيادة . ولكن الموقف حرج .

ومجيد ، ابن عمها ، ما ابقى من الضابط نوري بك على فضلة من كرامة !

فقال الأسقف لا يرتضي القهقرى : علينا أن ننجدها . فاستعن بدهائك وانصرها لدى القائد العثماني !

– واذا رفض ؟

– تكون قد قمت بما عليك !

فود الاخ حنانيا ، على سعة حيلته ، لو يعفى من المهمة . فكأنه موقن انه لن ينجح فيها . أما والاسقف يريد منه بذل الجهد ، فسيسعى . ونظرت اليه عفراء نظرة الاستعطاف ، فصعب عليه أن لا يعينها . قال : أنا شاخص إلى تل شيحا !

قالت بغمرة من الرضى : وأنا هنا بانتظارك . فاسرع ، وعُدْ اليّ بالمرتجى !

وما خافت من الكاهن اذا سارت برفقته ، وهي على اطمئنان من هذه الناحية ، بل خافت من القائد العثماني . فقد يشتهيها كما اشتهاها الضابط نوري بك ، ولا بد أن تروقه نضارتها . وأي سبيل عندذاك للخلاص ؟ ... فمن الهين النجاة من براثن نوري ، وهو ضابط يرتقي درجات السلم الأول ، أما القائد علي رأفت بك ، فأي قوة جبارة تستطيع انتشالها من مخالبه ، اذا تحفزت فيه الصبوة ؟

وأعلن الكاهن مازحاً : ولكنك تخففين عني مشقات الطريق ، وانت تسيرين برفقتي !

فاجابت بلهجة المزاح نفسها : لن تتعب قدماك . فما برحت منذ خلقك الله تمشي !

فقال متنهداً ، وابتسامة الثعلب في شفتيه وعينيه : وحتى الآن لم أصل !

فقهقه الجميع ضاحكين . وتل شيحا من قمم زحلة العاليـة . يطل على البلدة كالحصن المنيع ، ولكن بوقاحة . فيضيّق عليها أنفاسها بدل أن يفسح لها الى بسط أجنحتها . وتحاول أن تستقر عليه ، ولكن بقلق . فهي تؤثر الوادي اللين الجانب ، الاخضر العود . وما رفعت على تلك القمة الجرداء غير مستشفى لبنيها الاعلاء . وتحت المستشفى قامت مدافنها . بيـــد ان المستشفى اضحى في حرب ١٩١٤ ثكنـة من ثكنات الجيش العثماني . وفي هذه الثكنة رسا القائد علي رأفت بك

ووقف الاخ حنانيا بباب الثكنة يسأل الخفير : أيكون سعادة القائد في ديوانه ؟

فألقى الخفير على الكاهن نظرة حاقـدة . وودّ ان لا يجيب . ما شأن هذه الجبة السوداء ، العابثة بامانتها للدولة العثمانية ، في ثكنة للجنود ؟ ... وتجلت للاخ حنانيا نقمة الجندي . وعلم أن ثوبه الأسود اشبه برقعـة النعي في تلك الأيام الكافرة . بيد أنه تجلد ، وابتسم للخفير . وعرض عليه لفافة تبغ ، وقال بوجهه الضحوك : ألا تعتقد أنه هنا ؟

وابتسامته ، وسخاؤه بلفافة التبغ ، حلاّ لسان الجندي ، فاجاب : هو هنا . عجّل قبل انصرافه !

فدخل الاخ حنانيا قائلًا في نفسه : وقانا الله شر المصادمة !

وكان قد لقي القائد في دار احد كرام الزحليين . فحادثه ، ومازحه ، وسُرّ كلّ بصاحبه . ولكن ألا يزال القائد يذكره ؟ ... أما نسيـه وهو يرى في كل يوم المئات من الناس ؟... وإن يكن يذكره أيحسن الترحيب به ، بعد نقمته على الزحليين في استطالة مجيد حريز على نوري بك ؟

ومما راع الاخ حنانيا أنه اقبل يخاطب القائد في امر مجيد نفسه . واستأذن على هذا القائد ومثل فوراً بين يديه . فرفع اليه علي رأفت عينين عابستين ، يسأله بهما عما يريد إزعاجه به . وظهر منه أنه يجهله . فقال الاخ حنانيا مبتسماً : ربما كان مولاي القائد يعرفني ، وقد جمعتنا معاً إحدى الدور النبيلة في هذه المدينة !

فلم يشأ القائد ان يكلف نفسه عصر ذاكرته ليفطن الى معرفة أحد الكهنة ، وهو المتململ من رجال الدين . غير أن ابتسامة الاخ حنانيا ، ووجهه الطروب ، أهابا به الى الخروج عن عبوسه ، فقال : أين ؟

وكأنه تذكر ، فأعلن : أتكون خنا ... خنانا ؟

— الاخ حنانيا ، خادم مولاي !

فضحك القائد ضحكة سرّي بها عنه . ونهض شبه نهضة زحزح بها نفسه عن مقعده . وقال وهو يمدّ يده لمصافحة هذا الكاهن الحاضر النكتة ، البشوش : عرفتك . إجلس !

ودعاه إلى الجلوس بقربه ، وقد راقه من هذا الاسود الجلباب ان يكون مشرق الوجه ، وابتسامته لا تغيب عن اساريره . وجاد عليه بلفافة من التبغ . وتكرم فسأله عن عافيته . فقال الاخ حنانيا : بخير ، يا مولاي ، ما دام عطفكم يشملنا !

قال القائد : وهل من حاجة ؟

ولا غنية عن حاجة ساقته الى آمر الجيش ، والا فما حمله اليه ؟ ... فاجاب الكاهن بابتسامة الاستهواء المطبوعة فيه : الحاجات لا تعدّ ، يا مولاي . على أني جئت اليك في أيسرها !

– وما هي ؟

– في السجن مظلومان يئنان . وليس سيدي القائـــد بمن يرضى عن اضطهاد مظلوم !

وهذا الكلام عن المظلومين سمعه مراراً القائد العثماني ، وخصوصـاً في لبنان . فكل من تقبض عليه يد العدل مظلوم ، حتى مع كونه خائناً ، كأن الجميع أبرياء ، وليس فيهم من يجترح الاثم . واستوضح بلهجـة غير المؤمن : ومن يكونان ؟

فابدى الاخ حنانيا بابتسامته المنشورة ابداً في ملامحه ، كأنها طابعه : هما في سجن معلقة زحلة ، من آل حريز !

فوقعت كلمة « حريز » وقعاً شائكاً في اذن القائد العثماني ، ودّ رجل الدين لو استطاع ان يجلوه بكشطة من يمينه . قال القائد : أتريد المقبوض عليهما كرهينة ريثما نمسك بجيد حريز ؟

– إياهما اعني ، يا مولاي !

فقطب القائد ، وابدى بجفاف : كنت أؤثر ان تجيئني في حاجة اقرب الى الانالة . وما كنت استطيب ان أخيّبك في أول مشتهى تأتي فيه اليّ !

فتجرأ الكاهن على القول : ولكن الصالح لا يذهب بجريرة الطالح ، يا صاحب السعادة !

فأفاض القائد بلهجة تجمع بين الهزل والجد : أريـد أن تعلم أن رجال الصلاح بينكم نفر دون القليل . فلا تحدثني عما يكاد يكون عندكم مفقوداً !

فما هانت في الكاهن جرأته ، وقال يتشفع في المنكودين : السجينان بريئان ، يا سيدي !

فاحتمل القائد التمادي في الكاهن الخفيف الظل ، واوضح : براءتهما لا تنفي كون نسيبهما شريراً !

فاضطر الاخ حنانيا الى التأييد ، مغلوباً على امره ، قائلاً : لا خلاف في كونه ذلك الشرير ، يا مولاي . بيد ان الرهينتين ارفع من ان تشاطراه سفاله . والعفو من شيمـــة الكريم . فهل لسعادة مولاي ان يتلطف بالافراج عنهما ؟

فما تغير اللحن . قال علي رأفت بك لا يتأثر بشفاعـة : هاتوا مجيداً وخذوهما !

والاخ حنانيا ، وقد بدأ ، مضى يضرب على وتيرة واحدة . فاستفهم بلجاجة : أيخيل الى صاحب السعادة اننا نبيع اثنين بواحد ؟ ... لو كنا ندري اين يستقر مجيد لبذلناه فوراً للعقاب . ومن خير البلدة تأديب الجناة !

وجمح الكاهن في بيانه . وشعر بجماحه . على ان القائد اصغى اليـه معجباً برقة ظله ، وبعذوبة لهجته . ورأى أن لا يصرفه خائباً ، فقال : من حقي إخلاء سبيل السجينين ، يا « خنانا افندي » . فليس من يعارضني في البغية ، وانا هنا صاحب الامر . غير أن ثمة من يهمه مصيرهما اكثر مما يهمنا معاً . وهو الضابط نوري بك . أهانه مجيد حريز إهانة لا تغسل بسوى الدم . فما علينا اذا وقفنا على رأيه في اطلاق الرهينتين ، لئلا نجرح شرفه العسكري !

فلمس الكاهن في القائد جانب اللين ، وقال : نحن نرى حسنـاً كل ما يراه حسناً مولاي !

فمـال علي رأفت بك على الهاتف يخاطب الضابط نوري ، قائد موقع المعلقة ، معلناً : نوري بك ، جئت اخاطبك في أمر السجينين الزحليين من

آل حريز . ألا يبدو لك ان موعد الافراج عنهما حان ؟

فانتفضت السماعة بيد نوري بك وهو يسمع من قائده هذا المقال الكريه. أيتطاول عليه ، وهو الضابط في الجيش العثماني ، من يمسّ فيه مناعة سيد الجيش ، الثاوي بعرش استانبول ، ويخاطبه قائده بضرورة الصفح ، فلا ينتقم له ممن اهانه ؟... وهاج غيظه . بيد انه لم يكن يقوى على اظهار امتعاضه وقائده يسوق اليه المقال . فاوضح مجتهداً في التماسك ، ونفسه في غليان : الامر امر سيدي . فليس لي ان اعانده في مشيئته . ولكن أيجوز الافراج عنهما قبل الوقوع على المجرم ؟

فاحس القائد ان نوري بك يمانع في التلبية ، وما ينفك الجرح يكويه. ورغب في قضاء حاجة « خنانا افندي » ، فقال يميل بالضابط الى السماح : واذا لم نمسكه ، يا نوري بك ؟

فابان الضابط بشدة، كأنه حريص على السجينين : لا مذهب عن القبض عليه لنخلي سبيلهما ، يا مولاي !

فما انفك القائد يلاينه ، ويداوره ، خدمة « للمحترم افندي » . فقال : اسمع ، يا نوري بك ، هما بريئان . ولا بأس ، ان تحاول فيهما محاولة اخرى . ولكن اذا اخفقت فليس من حقك أن تبقيهما زمناً اطول . فكر ملياً في الامر ، وحدثني بما ترى !

— وشرفي ، يا سيدي ؟

ولقي ما يعترض به على اطلاقهما حرّين يسعيان . ولاح للقائد علي رأفت بك مبلغ الاضطغان الكامن في الملازم نوري ، فقال متظاهراً باكرام « المحترم » : شرفك كجندي في طليعة ما نذود عنه . ولكن ما ذنب

هذين ، ولا يد لهما في المنكر ؟ ... أعيد القول ان من حقك ان تفكر . على أن لا يطول المدى . الى اللقاء ، يا نوري بك !

وحال دون الاخذ والرد . والتفت الى الكاهن يقول له بابتسامة لا تبرأ من الخبث : حدثني مرة أخرى في أمرهما . ما يزال نوري بك غاضباً !

وسرّه ان تقوم العراقيل في طريق الافراج . فقال الاخ حنانيا : ومتى أحدث في ذلك مولاي ؟

ـ بعد اسبوع ، او اسبوعين !

ـ ويفرج عنهما ؟

ـ سنرى ، سنرى . في الأمر شرف ضابط أهين ، يا « خنانا » افندي !

ونهض علي رأفت بك يريد القول إن الحديث انتهى . وتهادت كلماته على استرخاء كأنها تبدي صعوبة الركون اليها . غير ان الاخ حنانيا نال وعداً ، وسيمشي في اثر هذا الوعد حتى النهاية . وأبدى الشكر وهو يقول : نحن نأبى ان يذيع في الناس أن عهد علي رأفت بك فينا ينبو عن الحلم . واسترحامي إياه في أمر السجينين مصدره اليقين بنزاهته وعدله !

فألقى القائد يده الى كتف الكاهن وهو يقول : علي رأفت بك لا يخدعه التدليس ، يا « محترم » افندي . كان عليكم ألا تضربوا الضابط وانتم بغنى عن المجيء اليّ لتتشفعوا في الاثيم . من حق نوري بك ان يحرص على كرامته . وإني لاؤيده في موقفه . وإذا شئتم أن يخلى سبيل السجينين فما عليكم إلا ان تسترضوا نوري بك . فإن يرضَ ، افرجت غداً عن الرهينتين . وداعاً ، « خنانا » افندي !

وصافح الكاهن بخبث فادح . وقاده الى الباب يعطيه فيضاً من مجاملة .

وشعر الاخ حنانيا بأنه تكلم طويلاً ، فهمّ بالانصراف والالفاظ تسرع الى شفتيه ، فيردها الى صدره ، مخافة احراج القائد العثماني المجهول اللون ، بل الواضح اللون ، وهو العثماني القحّ ، الناقم على لبنان في ارضه وسمائه . وانحنى الكاهن شاكراً وتمتم : عاش مولانا السلطان !

على أنها تمتمة اضحكت علي رأفت بك ، وهو يعلم ان قائلها لا يؤمن منها بحرف . فهو هتاف يجود به على وفر من مراوغة . كمن يسبح باسم الله ، وما يعشق غير الاثم والكفران

٧

ـ عليكِ بارضاء نوري بك !

هذا ما جاهر به الاخ حنانيا عفراء حريز ، وما زالت في دار الاسقف ، ترقب عودة رسول صاحب السيادة الى القائد العثماني . وارتعدت وقد اوضح لها المنهاج . عليها ارضاء نوري بك . فهل يدري الاخ حنانيا ما يقول ؟... وعلا الشحوب والكمد محياها . فاعاد الكاهن قوله ، وقد خيل اليه أنها لم تسمع : عليكِ بارضاء نوري بك . هكـــذا قال القائد العثماني النازل تل شيحا !

فقالت جازعة : ولكن نوري بك خصم لنا ، فكيف يلين ، ومجيد نال منه ؟ ... أأطلب الماء من النار ؟

وكادت تبكي . إلا أن همتها الصلبة امسكت بها عن ذرف الدمع . فمضت تذيع : ليس في جهنم أبرار !

فقال الاخ حنانيا يطلعها على ما بذل من سعي ، وما لقي من رحابة : رأيت من القائد العثماني كل ملاينة . فما حسبت أنه سيلقاني بذلك الوجه الراضي . وتجرأت عليه في الحديث ، فابدى رحابة الصدر . وكاد يجيبني الى ملتمسي . بيد أنه شاء الوقوف على رأي الضابط المفجوع بكرامته . فاصر الضابط على ضرورة إبقاء الرهينتين في السجن ، ريثما يقبض على مجيد . فاضطر قائده الى مسايرته ، وفي الامر شرف عسكري منكوب !

فتصاعدت من صدرها زفرة كاوية . وقالت متلهفة : إذا فوض الامر الى ضابط المعلقة بقي عمي وأخي مدى العمر في السجن !

وأرهف الاسقف والكهنة آذانهم يسمعون . فقال الاخ حنانيا : لا ، لن يبقيا حتى هذا الامد . فالقائد دعاني الى مخاطبته في القضية بعد اسبوع أو أسبوعين !

وطاب للاسقف الكلام ، فقال يخفف لذع الخيبة : لنصبر اسبوعاً ، واسبوعين ، وثلاثة اسابيع ، يا ابنتي . على ان نحوز مبتغانا !

فما استطاعت بعد هذا الجهد الملتوي ان تملك دمعها . فاغرورقت عيناها، وقالت بمندلع اليأس ، كأنها لا ترتجي فرجاً : أأراهما بعد اسبوع ، واسبوعين ، وثلاثة ؟

فاستوضح الاسقف برفق ، وما يني يسعى لدفع الشدة : وماذا يصيبهما ؟

فاعلنت بمرارة وخشية : في كل يوم يجلدهما نوري بك . وأخاف ان لا يحتملا ما يقاسيان من الاهانة والجلد !

فقال الاخ حنانيا يجاهد في تبديد الكربة : هاتي الساعة مجيداً وخذيهما فوراً !

ومجيد هو المقصود . ولكن اين هو ؟ ... قالت وقنوطها يشتد فيها : أأدري أين مجيد ؟

وتمثلت مطلب نوري بك منها ، فقالت تتضرع الى الحبر ان يلتفت الى بلائها برغبة صادقة في الابراء : سيدي الاسقف ، الويل للضعيف . جئت اطلب منكم المعونة ، فما اتفق لكم ان تهبوها لي . اني لسيئة الطالع . ماذا يسعكم في من تخلى عنها الله ؟

وودت لو تملك قوة شماء تساعدها على انقاذ عمها وأخيها من سجنهما . وتراءى لها ان جلّ ما تحرز من سيطرة لا يرجح عفافها . أتستعين به على

تبديد الرزيئة ، ولا كان جلال الطهارة ؟ ... إذا وهبت نفسها لنوري بك تجاهل ما كان فيه من ابن عمها ، وأفرج عن الرهينتين . بل سيبيح لمجيد ان يعود كأن لا صدام ، ولا خصام . واندفعت على كره منها تنظر في أمر هذا العفاف ، وفي ما يدعوها الى التمسك به . إنه لكنز ثمين ، كما انه هباءة . فتعلو به السمعة ، ولكنه لا ينقذ من المحنة . وحفل خيالها بالذكريات . ثمة عدد وافر من اترابها نهد الى الابتذال ، وما ضاق به ان يعيش محفوفاً بالرغد والاكرام ، كأن الناس مفطورون على المغفرة والنسيان . وهناك من حفظن انفسهن ، ولذن بالفضيلة ، فما لقين من يكترث لهن . فهل تكون الفضيلة حائلاً دون السعادة ؟ ... ولاح لها ان عفافها لا يساوي حياة عمها واخيها ، وطمأنينة مجيد . وما دامت تضحي لاجلهم بايامها ، فلماذا لا تجود بطهرها ، وتدفع الهوان ؟

بيد انها ثارت على نفسها ، وهذا الخاطر يفاجئها ، ناقمة على التسامح البادي منها . أتكون على هذا المقدار الزريّ من نقاوة الجبين ؟... واذا رضيت باباحة عفافها لنوري بك ، فهل يرضى أخوها وعمها ؟... وماذا يكون من مجيد ؟... إنه ليقتلها . مجيد لا يعرف الهوادة في الذود عن الشرف . وهي نفسها إلى مَ تنتهي ؟ ... أما تصير الى الذل والشين ، فتبيت منبوذة ، محتقرة ، تخشى وقع العيون ، وتجد الموت أطيب من الحياة ؟

ومحت الخاطر الساحق من ذهنها . وآثرت ان تعيش شريفة ، مكلومة اللب ، مغمورة بالحداد والبؤس ، على ان تحيا ذليلة ، ترفل بالخزي والنكر . ولامت مجيداً . ولم يسعها الامتناع من ابداء اللوم . فالحرص على الكرامة شتت أسرة بكاملها

وبرحت دار الأسقف راغبة في الانزواء في دارها . فتسدّ أذنيها عن كل ما يقع . وترقب ان ينعى اليها اخوها وعمها . ربما وجدت عندذاك من يتأثر لموتهما تحت جلد السياط ، ويمشي في جنازتهما ، ويتلطف بايداعهما الضريح

وتهادت الى منزلها لا تكاد تتبين طريقها . ووهت ركبتاها . فلم تكن تؤمن بأنها تدوس برجليها الارض . ويخيل اليها ، لدى كل خطوة ، أن أمامها مهواة توشك أن تبتلعها . واضطرت الى الاستراحة ، وهي ترجو ألا تقف في الطريق ، لئلا تحوم عليها العيون ، وتتبادر الى الاذهان الشكوك الأليمة . فيقال عنها إن الجوع دهمها ، فامست لا تقوى على المسير . بيد أنها اخطأت في النفاذ الى حقيقة الناس في ذلك العهد ، وما يبالون بسوى أنفسهم . فمرّوا بها لا يلتفتون اليها ، وقد انصرفوا الى ملء بطونهم ، والنجاة من الموت . ومن عرفها ادار وجهه عنها لئلا تطلب منه رفداً ، او نصرة ، او يتهم بصداقة ابن عمها مجيد حريز المغضوب عليه . بلى ، شاق فتنة يتعتعها الجمال أن تغلّفها بابصارها ، وتخشع امام باهر الحسن فيها ، على أن منظر عفراء لم يكن يبعث على الجرأة ، فتفرق عنها ذوو الصبابة وعيونهم فيها ، وفي المطاوي حسرات

وبلغت المنزل مضعضعة . ودخلت حجرتها وارتمت في سريرها . وبدا لها الكون على فراغ ، وليس يدرج فيه ذو مروءة . وتجلت لها نقمة الله على البشر ، وما جاد عليهم بالكمال . فهم ذئاب بعضهم حيال بعض ، ونعاج إزاء القوي . فما يهتم الواحد منهم بسوى ضمان امره . وقد يضحي باحب الناس إليه لينعم وحده بالبقاء . وان يكن ثمة ذو رفق ، يتهالك على

الفداء ، سخر به الجميع ، وقالوا إنه مصاب بالجنون . وعزّ عليها ان يتنكر لها بنو قومها ، كأنهم لا يعرفونها . أليست ابنة زحلة ، ومن كرام الاسر فيها ؟

وغرق رأسها في وسادتها . وفاض دمعها . فكانت تطلقه وهي في التياع بليغ . فما اعتقدت أنها ستقف في احد الايام هذا الموقف الخانق ، القاصم . ونادت عفواً ابن عمها مجيداً كي يسرع الى إغاثتها . ولكن أين مجيد ؟

وعلت دقات بالباب . من يزعجها في هذه الساعة الفاضحة ؟... ونهضت تمسح دمعها وتمشي الى العتبة لتفتح . وراعها من أبصرت . نوري بك بنفسه جاء اليها . وحاولت أن تصده عن الدخول ، وأن تقفل بوجهه الباب . على أنه دخل . ولم يكن ذلك النمر الضاري ، وهو يمثل بين يديها ، بل ابتسم لها بعذوبة يجلّلها الخجل . فليس فيه ما يدل على قسوة الطبع . وارتجفت وهي تراه . وودت النطق فلم تقو عليه . وخاطبها نوري بك باللغة الفرنسية ، ولم يكن يجهلها ، إلا أنه لا يجيدها . وعفراء تعرف الفرنسية معرفة دقيقة ، وقد تعلمتها في زحلة ، في معهد الراهبات . قال : قد أكون بعثت في نفسك الخوف في مجيئي اليك . الا اني ادعوك الى الاطمئنان . فما أنا بمن يثير في نفسك الرهبة !

فظلت بجانب الباب ، كأنها تريد الهرب . وخفق قلبها شديداً . وجحظت عيناها رعباً . ما حمل الذئب على مفاجأتها في كناسها ؟ ... أليس له ان يكرم ألمها فيبتعد عنها ، ومرآه يزيد في ترحتها ؟ ... وشاءت ان تطرده ، ان تصيح مستنجدة بجيرانها لاقصاء الشرير عنها . ولكن من لها يسمعها ؟... وان يكن هناك من يلقي أذنه الى صراخها فمن يهرع اليها ، والكابوس

العثماني اشبه بظل الموت ، يرهق النفوس ويتوعدها بالاختطاف ؟ ... قال نوري بك : ليس لك أن تجزعي . جئت أخاطبك في امر ذي بال ، أرجو ان تجيبيني عنه بصراحة !

فوضح لها ما أقبل يباحثها فيه . ورغبتها في الانتقام منه برذله أنعشتها ، وأحيت في صدرها العزيمة . قالت وهي تتمالك: ماذا يريد سيدي الضابط مني؟

وتكلمت بصوت أجشّ . قال نوري بك يلتمس الدخول صوناً لمقامه ، وسعياً للاحتجاب عن الانظار : هل من سبيل الى الجلوس ؟

فقادته الى صدر الدار ، واقامت بينها وبينه مسافة بعيدة ، وقالت : أهلاً وسهلاً . ولكن هل لسيدي ان يوضح الدافع الى مجيئه اليّ ؟

ولجّت في المعرفة . فابتسم وقال : من يسمعك يظن انك لا ترغبين في رؤيتي ، ولا في محادثتي !

فاعلنت بلهجة قاطعة توافقه بها على ما أبدى : اما وقد جئت ، فلا بأس في الاصغاء اليك !

فارتجف تحت وقع الوخزة . وقال يوضح ما حفزه الى مباغتة الفتاة في مبيتها : بدوت أسألك هل ترومين انقاذ عمك وأخيك من السجن ؟

فابتسمت متهكمة وقالت : أيحتاج الامر الى سؤال ، ايها السيد ؟

فابان بدلال يعرض به مدى سلطانه : بوسعي الافراج عنهما !

فسرّها مقاله . ولكن لم يغب عنها ما يلتمس في مقابل هذه المنة . وما اقبل لسوى بلوغ الارب . ولقد سمعته عفراء في مـا يتشهى . انه ليرمي الى الاستمتاع بها . وجالت عيناها في جميع انحاء المنزل كي ترى . هل من عصا ، او آلة من حديد ، تقوى بهما على صدّ هذا المقحام عنها ، اذا ما خطر

له ان يعتدي عليها . واستوضحته بنبرة ساخرة تتصنع الجرأة ، مع ان الخوف يهز الفتاة في سويدائها : ولماذا لا تفرج عنهما ما دام الامر بوسعك ؟

فاجاب بصوت يتلاشى ألماً : لكونك لا تفرجين عني !

فنظرت إليه تستقصي. فقال بلهجة الاستعطاف: ألا تعلمين أني اسيرك؟

فلم يكن منها إلا أن نهضت غاضبة ، كأنها مشدودة برفّاس ، وصاحت : نوري بك ، ان تكن حبوت اليّ لاستدراجي الى المعصية ، فاعلم انك وقعت على صخرة . مطلبك عسير . فاذهب . ادعوك الى الانصراف . ما تعوّدت الجلوس الى من يملك هذه الجرأة في مخاطبتي !

واتخذت من زعقتها قوة على المغالبة تبدد بها عنها الخوف. فبلع الضابط ريقه ، وتجهم ، وقال وهو يغوص في خجله : ما بدوت عندك لاستدرجك الى المعصية ، بل لاعالنك كوني على شغف بك !

فهتفت باستخفاف : شكراً ، شكراً . سمعت كل ما طاب لك أن تجاهرني به . وبوسعك ، وقد أديت رسالتك ، ان تنصرف بامان . فلست على أهبة للاصغاء الى المزيد !

فخلخلت الصدمة روعه . وشعر بانه حقير قزم . وتلعثم وشدد من همته لئلا يظهر فيه العياء فينهار . وفزع الى الغضب يقصي به عنه مضض الاخفاق ، مدمدماً عليها ، وقد هاله الرفض والطرد : ولكني أرغب في استجلاء رأيك القاطع . فما هو موقفك مني ؟

فاجابت بجدة لا تبالي بها ما سوف يصيبها من اذاه : جلّ ما يشوقني ان أعالنك به من رأي لا يرجح دعوتك الى الابتعاد عني . هذا هو موقفي

الاوحد منك ، وأرجو ان تمتثل بلا ابطاء !

فعاد يبلع ريقه . وقال بين ناقم ومستعطف : لا تخاطبيني بالكلام القاسي . ما اقبلت اليك كي اسمع هذا الجفاء الاليم . انا لو اردت امتلاكك بالقوة لانقضضت عليك في ثكنات المعلقة ولافترستك عنوة . ولك ان تولولي ما شئت ، ولن تقعي على من ينجدك . ولو راقني ان استميلك اليّ بالحيلة ، لاوفدت اليك من يحدثك عني حديثاً يستهويك . إلا أني رأيتك ملكة من ملكات الحسن ، ومن ذوات الخلق النبيل ، فابى عليّ اكباري لك أن أدنس سموك بالاغراء الدنيء . وهفوت اليك بنفسي ، وأنا موقن باني سأسمع منك ما لا يرضيني . غير ان الشوق ساقني . فبدوت في مأواك كي اجلو لك شغفي بك . وارجو ألا تخيبيني !

وتجلت فيه اللوعة المسترحمة . فهو يسأل في نفسه . فهتفت والانفة تجليبها بكساء باهر سنيّ : سيدي الضابط ، خير ما تفعل ان تنصرف بسلام !

فاوجعت صميمه . هي تمعن في طرده . غير انه لم يمتثل . وخجل منها ومن قلبه ، ولم يقوَ على نصرة حنينه . وعاد الى استعطافه يقول : لا تكوني خشنة . اخاطبك باللين ، فخاطبيني بمثله . انا احببتك . وهذا الحب يعذبني . ولصدودك اليد الطولى في التعذيب . على اني احبك مهما بدر منك . وليس حبي لساعة ، ولا لاسبوع ، بل هو للعمر بطوله . وإذا هالك أن أكون على غير دينك ، فاني لأدرج في خطوك إن تؤيديني في صبابتي !

فراعها أن يكون صادقاً . فالصدق بادٍ في مظهره وبيانه . وودت ان يكذب كي يهون عليها صرفه عنها . الا ان من الصعب ان يتحوّل عن هذا الحب

وهو المؤمن به . أما تراه يلتمسه بقوة، ويضحي في سبيله حتى بالكرامة؟... انه ليسمع أهانتها له ويغضي عنها . ورضي بان ينكر لاجلها دينه . قالت وما تنفك تسعى لابعاده : نوري بك، ما يحملك على هذا المنطق المتلف؟... هلا رحمت إباءك ؟

فاجاب بلهفة المتيّم : يحملني عليه هواك !

– ولكن قلبي ليس لي !

فاضطرب واستقصى : ولمن هو ؟ ... من استأثر بخلجة هذا العنيد ؟

– هل غاب عنك أني لابن عمي ؟

فقلقلته . واحس بمهجته تتصدع . وتولاه الاكفهرار فقال بلهجة تزخر بالانين : أأنت لمجيد ؟

فابانت كأنها تنطق بالتنزيل : له وحده . بيني وبينه عهدٌ غليظ !

فأحس بان الارض تدور به ، وبان الايضاح نخعه . قال وقد تعاظم أنينه : ألا تساوينني بابن عمك ، فاعفو عنه ؟

ودرى بان المطلب وعر . ولكنه افضى بالرغبة مجروراً بدافعين قويين، بسلطانه وبأمله . فاجابت بابتسامة ابيّة ، يجري فيها التباهي والاستخفاف : أترضى بان اخون العهود ؟

فتمتمت شفتاه الملتهبتان شوقاً ، والمائعتان اخفاقاً : هل لك أن تعلمي اني ذليل في هواك ؟

فمالت الى الرفع من همته معلنة : ولكن مثلك يجد ألف عفراء !

فتنهد وقال متبرماً بسوء طالعه : من نكد الدنيا ان لا اجد غير واحدة . وهي أنت . فلا تمعني في إيلام من يرصد شفاءه بطيب بلسمك .

كلمة منك تنعش العليل الكئيب !

وانتظر ان تسمعه ما يزيل من حدة اللوعة ، فلم تنطق بالمأمول . وهو نفسه لم يتكلم . فنهض ومشى الى الباب على لهب من نقمة وحقد . واعتراه الحنق على نفسه المفلولة الانفة . إنه لمنبوذ . فليس له ان يفاخر بكونه ذا أثر في النساء . مع ان ظنه مال به الى اليقين بسيطرته عليهن . وقد تراءى له ان نظرة منه ترمي بين يديه اجمل امرأة . وماذا يحتاج اليه لاقتناصهن وهو يملك الشباب والبهاء والمقام ؟ ... أفليس من ضباط الجيش العثماني ، ومن أوسعهم علماً ، وانضرهم مستقبلاً ؟ ... وانسلّ من الباب دون ان يلتفت الى عفراء حريز ، ودون ان تتمتم شفتاه كلمة الوداع . فما جمجم ، وهو في العتبة ، سوى مقال التهديد : سنرى اذاً ، سنرى ، ايتها المطاولة الافلاك تيهاً ، وبوسعي ان اطفئك بنفثة !

وبدا فيه الارتجاف . ووقفت عفراء تنظر اليه يتوارى عنها والالم والخوف يهزانها . فتسائل نفسها عما اقترفت . اي ويل سيجتاحها ؟... ولم تكن راضية عن ايذاء مهجته ، وما يخفى عليها ما وراء ازعاجه . وشاطرته حرقته ، والخيبة ممضة . على انها لم تجد نهجاً آخر تندفع فيه . دينها من ناحية ، وحبها لمجيد من ناحية أخرى ، فضلاً عن عفافها ، وما تريده في سوى حرز مصون

ورقبت انتقام نوري بك ، ولن يسكت عما لقي . جاء اليها بنفسه ، فما أسمعته ما يطمئن اليه . قالت بوهلة : أراني اتدحرج من حفرة الى حفرة . ولست ادري باي سلسلة من النكبات يطوّقني القدر !

وجلست وانتابها بحران جهلت به امرها . فالمستقبل لا يبشر بالصفاء .

ثم اين مجيد ؟ ... هل سلم من الجند العثماني وتبطن الصحراء ؟ ... ليس لها أن تدري

وتقلبت على هموم جسام . وشعرت بانها رزحت بالعبء ، ولن تستطيع نهوضاً . وبكت بكل جارحة فيها . وسألت عن ربها تستلهمه التدبير ، وتستعديه على الانقاذ . فاين تجد الله ؟

٨

أشفق نوري بك ، مع غلاظة كبده ، ووفور نقمته ، على نجيب حريز وعمه بعد كل ذلك الجلد الناهك، وقد أمسيا لا يطيقان به حراكاً . فانتفخت أرجلهما ، وملأتها القروح . وتبدل لونها، فاضحت تميل الى السواد . وغلب على الرجلين الهزال ، وتولاهما اصفرار الموت . ولم يكن الموت بعيداً عنهما ، وبينهما وبينه بضع خطوات

وبات كل سعي للوصول فيهما الى جدوى ضائع الرجاء . فلو كانا يعلمان شيئاً عن مجيد لاوضحاه . وان هما عرفا مقره ، واعتصما بهذا الكتمان الصفيق ، فمن المحال ان يبوحا بالسر مع اشرافهما على المنية . فالسكوت اذاً عنهما اولى

على ان نوري بك لم يكن مطمئناً الى هذا السكوت ، وهو يريد مجيداً . وان لم يهتدِ الى غريمه فعليه ان ينتقم منه بأقرب المقربين اليه . بل ان نوري بك نسي ، او كاد ينسى ، ما كان فيه من مجيد . فما يلتفت الآن الى سوى عفراء . ولاجلها اشفق على عمها واخيها ، وان تكن جبهته بالصدود . أفما يحلو في سبيلها ، مع جفوتها ، بذل بعض السماح ؟ ... ان الحب ، حتى في بؤسه ، يستطيب الاريحية . ونوري بك ما كان من سوى المحبين . فاذا سخا ببعض الرحمة ، لاكرام خفقة الهوى في حبة قلبه ، فما زاد على ما يدفع اليه الجوى ارباب الشوق من كرم ورفق. ورام سلخ منازعه من نفسه معتزماً السلوان . بيد انه لم يوفق لنفضها منه ، كأنه موثق بها بمحكم العرى . فلا جنوح ، ولا فكاك

ولم يبرح طول ذلك النهار حجرتـه . ولم يملك الجلد على القيام بمهام منصبه . فهو مقعد كسيح . تعرض عليـه أوامر قادته فيقرأها ولا يكاد يفهمها . وتصل اليه رقاع كتّابه لتوقيعها ، فيمضيها وهو لا يدري مـا أمضى . ولو دعي الى اثبات خاتمه في رقعـة تقضي بموته لفعل ، ونفسه لا تعينه على قراءة حكم الموت

وفكر في اعادة الكرة. فاذا مانعت عفراء في البدء فقد تلين. وادرك ما في التكرار من مذلة. ولكن قلبه قائده. وقلبه عبد حنينه . فلا يطيق الاحتجاب عمن تجرّه اليها صاغراً ، وما في يدها رسن . سيرجع الى الفتاة ويسألها تكراراً في نفسه ، ولا بد أن يفوز بطائل . فربما عانـدت عن استحياء ، فاذا ما قفل اليها فقد تصفو . وإلا فلن يغفر لها استهانتها به

غير أنه شاء أن يتحامى الحيبة . فمن الغضاضة عليه ، وهو من الضباط المكرّمين في الجيش ، ان يعرض أبداً نفسه للزراية . ولكن حبه تمرد على الحذر . فدفعه بشدة الى عفراء. قال : سابدو حيالها . فاذا توالى الاخفاق ، كان بيننا حساب لن تخرج منه الجافية الا حطاماً !

ولم ينم الليل ، وقد تراءى له ان الساعات من رصاص . وفيما يتقلب في سريره ، تارة الى اليمين ، وتارة الى اليسار ، كأنه في رقدته على أشواك ، سمع بالباب دقاً . هذا حاجبه يستأذن عليه . وكان قـد منع الحاجب من إيقاظه إن يكن الأمر غير خطير . فقال في نفسه متبرماً بسلخه من خواطره : ماذا يجري ؟

وتأفف . فهو يريد الاستسلام الى تفكيره ، وليس يطيق أن يأتيه من يزعجه فيما يرسم خطة عودته الى من يشتهيهـا ضميره . وامعن الحاجب في

الدق . فقال نوري بك بصوت حانق : ما بك ؟

فاستوضح الحاجب بشدة لم يألفها، كأن الامر جلل : هل لمولاي ان ينهض ؟

فأيقن نوري بك أن الحاجة اليه ماسـة . واستفهم : وما يدعو الى النهوض ؟ ... قبحك الله !

فاعلن الحاجب متحمساً : قبضنا على قافلة من المكارين الزحليين عائدة من حوران . واهتدينا في احد اكياس القمح الى ثلاث بندقيات !

فشعر نوري بك، وهو يسمع بيان حاجبه، بان عليه ان يتحرك. ووثب من سريره واستنبأ بغضب : واين القافلة ؟

– هنا ... في المخفر !

فألقى الضابط اليه معطفه العسكري واندفع الى المخفر ، وقد اشتد به الاضطغان على زحلة وبنيها . واستجلى بنفرة وهو يقف ازاء رجال القافلة المكدودين ، الوجلين : في كيس من وقعتم على الاسلحة ؟

واهتزت نبرته لفرط الموجدة . فأشار الحاجب الى المتهم المطوّق بأربعة من الجنود يسددون اليه النظر الشزر . وما بدا نوري بك حتى جمـدوا كجذوع الاشجار يؤدون التحية العسكرية . فهدر الضابط وهو ينظر الى المكاري الزحلي ، المنتصب القامة كالعمود ، الوسيع الصدر كالجبار : أأنت مرتكب الجريمة الشنعاء ؟

وقذفه بكلماته بجفاء ومقت . إلا انه ما استطاع اخفاء اعجابه بهـذا المارد المطلّ عليه من عل كأنه النسر . وراقته منه لبّادته السمراء. وتأمل لونه الاغبر ، وعينيه الزرقاوين ، وخديه النابضين بالعافية المفترّة عن بعض الاحمرار ، وشاربيه الاشقرين الطويلين ، وصلابتـه ، وجرأته ، فرام ان

يلسعه بسوطه، فجمدت يده. فالمكاري الزحلي لم يكن يبالي، وهو بين الجنود الاربعة، وفي حضرة ضابط اشتهر بقسوته، ما يتوعده من شر، وان يكن من يلتفّ عليه من جند ينفثون الموت. قال باطمئنان الواثق برحابة ذراعه: ليس في الامر جريمة، يا مولاي. نحن قومٌ لا نتاجر بالسلاح، بل ننقله، كي ندافع به عن انفسنا فيما نجتاز البراري والقفار!

فصاح الضابط صيحة حادة كأنها اطلاقة البارود، وقد وقف من الجبار الزحليّ وجهاً لوجه يزمجر: أتتقلدونه لتدافعوا به عن أنفسكم، أم تشترونه لتحاربونا به؟... ما أنتم إلا خونة. تريدون لنا الهزيمة ولا تتورعون من مساعدة اعدائنا علينا. والله، لننزلن بكم الموت. ما تجيء بهذه البندقيات لسوى مقاتلتنا بها!

فاجاب المكاري بهدوء لا خنوع فيه: معاذ الله ان نشهر على الدولة العثمانية سلاحاً، وهي أمنا. وهل لنا ان نقع على دولة ترفق بنا مثلها؟... ادامها الله، ونصر مولانا السلطان!

فلمس نوري بك الهزء في مقال الزحليّ العُتُلّ، الشامخ الهامة، وزعق: انتم تجار كلام، وارباب نفاق. كبيركم وصغيركم يجيدان زخرفة المقال الغرّار، فيتوهم من يسمعكم انكم صادقون، مع انكم سادة من كذب. جرّدوه مما معه من مال وسلاح!

فامتدت أيدي جنديين الى المكاري تبحث في جيوبه. فاهتدت الى خنجر، والى ثلاث رسائل، والى كيس نقود معقود على ريالين مجيديين، وثلاثة بشالك، وخمسة متاليك. فعرضها الجنديان على نوري بك فرحين، وقد سقطا على ما يهيب بقائدهما الى نفحهما برضاه. فانعم الضابط النظر في

الخنجر الماضي النصلة ، وقال بغيظ : انه لسلاح المجرمين . وما يحمله غير اللصوص !

وجالت عيناه في عناوين الرسائل ، واذا به يقرأ اسم عفراء حريز . فصاح منتفضاً ، كأنه اهتدى الى سر رهيب : ممن الرسالة ؟

فاجاب المكاري الزحلي ، وما فتىء الاطمئنان يسوده : من رجل لقيته بين حوران ودمشق ، يا مولاي . نقدني عنها بشلكاً واوصاني بان اسلمها الى صاحبة العنوان يداً بيد !

– ومن الرجل ؟

– لم يعلن اسمه !

– أيعهد اليك في رسالة تحملها الى عفراء حريز ولا تعرفه ؟

– أصارح سيدي بأني أجهله ، ولم يسبق لي أن رأيته !

وظلت الطمأنينة مبسوطة الظل، كأن المكاري الزحلي لا ينطق بما يعدو الحق . فهز نوري بك برأسه وصاح مهدداً : ما أعرف فيكم غير الماكرين ، كأنكم اعداء الشرف والصدق !

وفضّ الرسالة والشوق يحثه على مطالعتها . وانقضت عيناه على التوقيع فقرأ : « مجيد حريز » . وارتجف وقد لاح له الاسم . والتهم السطور والغيرة تنشب في قلبه مخلبها الفتّاك . قالت الرسالة :

« حبيبتي عفراء ! – أشعر ببعدي عنك ، مع انك بين جوانحي . وانى يخلو منك ، حتى لمنيهة من الزمن ، قلبي وخاطري ؟ ... فهذه الشواسع ، على فسيح امدها ، لا تقصيني عنك ، وما يفتأ خيالك يسود ذهني ، كأني لا ارى سواك . ويتواثب اسمك الى بالي ، ويردده مقولي ، كأنك بجانبي

اناديك . الا أني أحس بكوني على شطط ، فاتعجب من نفسي ، المخضبة بهواك ، كيف رضيت بالنأي عنك ، وما اود منها الا الاستقرار بلصقك ، كي اراك ، واستمتع بفتنتك ، وينبعث في روحي دفئك . غير ان كرامتي عزت عليها الاستكانة ، يا عفراء ، فثارت ، وكان من امري ما تعرفين . لعن الله الساعة السوداء ، يا ابنة عمي . ولولا ذلك الضابط نوري — وهو في خلقه نوريّ — لكنتُ الآن بغنى عن هذا الشرود

« وعزائي اني سائر الى بني قومي العرب أقاتل في صفوفهم . والعرب قومي ، يا عفراء . وإذا خدمني حظي ، وبلغت مضاربهم ، فسوف ترين مني ما يزيدك بي إعجاباً . ساقاتل تحت اللواء العربي ، كما أُقاتل في سبيل زحلة ، بلدتي الميمونة . وانت تدركين حبي لعروس البقاع . فهي أُمي . تغذيت بهواها وانا طفل رضيع . واخذ ولعي بها ينمو كلما شببت عن طوقي . ولم اعرف مأوى اطمئن فيه ، وتبتهج تحت سمائه نفسي ، كموئلنا زحلة المباركة ، صدقيني . ففي زحلة الروعة ، والكرم ، والحمية . وكل هبة ريح في واديها تزجي الينا الانس والرحمة . وكم تنتعش روحي برؤية مسيل البردوني الدائم النشيد في هديره وخريره . وكم اذكر بشغف زقزقة العصافير في كروم الرابية ، وامتصاص كأس العرق في وادي العرائش ، ومدّات اغنية « ابو الذلف » ، وترنيمة جرن « الكبّة » ، ورنين جلاجل البغال فيما تسلك القوافل طريقها الى السهل ، ودمشق ، وحوران

« كل ما في زحلة لذيذ ، يا عفراء ، حتى عربدة السكارى بعد نصف الليل . ومن لا يسكر في زحلة يجهل الدنيا ، ويتنكر للحس . فكل نفس شاعرة تبيت في ذلك الفردوس نشوى . ويؤسفني ان ابتعد عن بلدي وانا

اهيم به ، وقلبي فيه ، وهو مفزعي . غير اني ساعود اليه ، اذا مـــدّ الله عمري . ساعود لاضمك الى صدري . واطرح بين يديك اكاليل المجـد المطوّقة هامتي. واسكر بك وبخمرة الوادي الظليل. واصيح في بني قومي: الى نجدة العرب ، ايها العرب !

« ما نسيت غيرتك عليّ في تمهيد سبيلي الى الهرب. إن هي إلا دليل من الف على حبك لي واخلاصك . أنا الآن في طريقي الى حوران. واملي بان ابلغها آمناً . ومنها اشخص الى الصحراء . فالعثمانيون استعبـدونا طويلاً . فاذا لم نزحزح نيرهم عنا كنا اذلاء . فالنور الهادي يشرق علينا من جوف الصحراء ، يا ابنة عمي !

« قبلات كاشعة الشمس ، لا يخبو لها ضرم ولا اشراق ! »

وحمل توقيعه الكتاب . فغص نوري بك عشرين غصـة وهو يطالع سطور الهوى الشادي . انى له ان يسيطر على عفراء وهي الموثقة بهذا الحنين الصيّاح ؟ ... غير انه لم يلبث ان ابدى الارتياح . فالكتاب خير وسيلة لامتلاك الفتاة المعاندة . سيهددها به نوري بك ، فاما ان تلين ، واما ان يطرحها في اشداق الدواهي. وكاد يشكر المكاري الزحلي، وقد نفحه بالسلاح القاطع. بيد انه ابدى الحدة، ودمدم على هذا المرتقب مصيره: ان لم تطلعني على مقر من ألقى بين يديك هـذه الرسالة ، قذفت بك الى السجن . اين الرجل؟... انت تعرف معتصمه، وهو زحلي مثلك. وهل لك ان تجهل مجيد حريز؟

فابدى المكاري بصوت لا يرتعش ، كأنه ادمن المواقف الحرجـة : اوضحت لسيـدي اني تسلمت الكتاب بين دمشق وحوران . وليس من تسلمته منه مجيداً . مجيد اعرفه ، وهو من اخواننـا . على ان من نفحني

بالكتاب ليس من بني قومي !

فزعق الضابط وقد تعاظم فيه الحنق : اذن اين مجيد ؟

ـ لست ارجم بالغيب كي ادري اين هو !

فضرب نوري بك المنضدة بقبضة يده وصرخ مزبداً : ولكن اذكر ان السجن يرقبك ان تكن كاذباً . فاحرص على نفسك !

فلم تتبدل لهجة الزحلي وقد اعلن بهدوء : لست باضطرار الى الكذب ، يا سيدي !

فهدر نوري بك: كيف تكون صادقاً وانت تقول انك مقبل من حوران ، ومجيد يكتب الى ابنة عمه ليعالنها انه سائر الى هناك؟... فهل يجمعكما صعيد واحد ، ولا يبصر بعضكما بعضاً ؟... تماديتم في النفاق . اذا ارشدتنا الى مجيد حريز اخلينا سبيلك . ولن يجاوز عقابك حرمانك البندقيات الثلاث !

فظل يتجاهل امر مجيد حريز . قال : ولكن كيف تنزع مني هـــذه البندقيات، وليس لنا ان ندافع عن انفسنا، في طريقنا الى الديار الموحشة ، بلا سلاح ، ونحن قوم نكري الدواب ونكتريها لشاسع الرحلات ؟

فاذاع نوري بك باعتزاز المتشامخ، كأنه رب العرش نفسه : الدولة العثمانية تقوى على صون حياتك. فلا تكلف نفسك ما نتولى عنك. اخبرني اين مجيد !

فما انفك يبدي الجهل. فعاد نوري بك يشهر عليه السوط ، الا ان يده جمدت كالمرة الاولى، فلم يلسعه به مخافة ان يقع فيه على مجيد آخر، فتستعاد فصول النائبة. واكتفى بان يدمدم عليه والسوط على اهبة للسع: ابتعد عني. انقذ نفسك من نقمتي. اني لاقضي عليك اذا بقيت واقفاً ازائي. فاجر، خسيس!

وصاح برجاله : اقبضوا عليه . اسجنوه . هذا خائن ، جاسوس !

وله ان يحبسه زمناً طويلاً وقد اهتدى الى البندقيات الثلاث في الاخياش . ودفعه الى السجن بسخط حاطم ، لا تشفع فيه رسالة مجيد الى عفراء ، وقد ألقى بها بين يدي نوري بك قذيفة جائحة . وصرخ به الضابط الطروب، الغضوب، وهو يدخل محبسه: لك ان ترقب في هذا الدهليز حينك. أتبيع بني قومك السلاح كي يثوروا به علينا ؟... ما عرفت في الغدر من يضاهيكم . ثعالب ، بل ثعابين !

وتوارى المكاري الزحلي وراء قضبان الحديد يتلهف على حظه. فالى اي لجة ستهوي به النكبة ؟... ما كان يعتقد ان العثمانيين يملكون هذه اليقظة ، وليس في صفوفهم نظام، ولا لمعظم قادتهم ذمام. فهل استفاقوا من غفلتهم وقد ثووا بلبنان ؟

وودّ لو عمد الى الرشوة. فيؤدي الى نوري بك بضع رقاع من النقد، فيشيح عنه ويخلي سبيله . ونادى السجّان بلهجته الزحلية العجراء ، العالية : يا افندي ، يا افندي ، اين الضابط ؟ ... أليس بوسعي ان اخاطبه ؟ ... في نيتي ان اطلعه على ما كتمت عنه ، فيتضح له امري !

غير ان السجّان تصامّ عنه . ليقرّ في سجنه ، وليس لمن يتاجر بالاسلحة ان يدرج في النور . وانى يلتفت اليه نوري بك وهو يعيد تلاوة الرسالة ، وعلى شفتيه تنبسط ابتسامة المتألم الراضي. اوجعه الحب المعقود بين القلبين ، وارتاح الى الرسالة الكاشفة سر فرار مجيد. فان لعفراء في هذا الفرار ضلعاً. فالتبعة تطاولها. وبالاستناد الى هذه التبعة سيبلغ نوري بك من الفتاة شهوته فيها . وعاد الى سريره يضطجع فيه وخاطره يموج في جو محموم . ما ان يرى المنى ملء يده ، حتى يغص بما يتراءى له حاجزاً دون الرغبات

وقرّ رأيه على الشخوص في غد الى زحلة ، وارتياد ضفاف البردوني . فيتغدى في ظلال الشجر الرؤوم، ثم يعرّج على عفراء. وفي الصباح الباكر امتطى جواده يحثه الى زحلة ،مندفعاً الى نهرها الدائم التغريد. والبردوني صفا في ذلك اليوم اديمه . فجرت مياهه متباطئة ، متلوّية ، كالذوائب المضفورة ، تهمس أسرارها في آذان الحور والصفصاف ، المنحنيين أبد الدهر عليها ، وهي المؤمنة بأنها أودعت ما في قلبها سميعين أبكمين ، لن يذيعا خفاياها في مذرور الريح

وتنشق نوري بك ملياً الهواء النقي وهو على متن فرسه . وأشعل لفافة من التبغ ، أخذ يدخنها وعيناه تجولان في من حوله من الناس المنطلقين الى مكاسبهم ، وهم في خشية من عدوين فتّاكين ، من عسف الحاكم ، ومن صولة الجوع . وازعج الضابط الولهان ان يمدّ يده للتحية كلما مرّ به جندي أعلى منه رتبة، أو ادنى. فيتظاهر بانه اعمى. وراعه من الاهلين أن يتحاموه ، كأنهم يخشونه ، أو يؤلمهم ان يبصروه . فقال بامتعاض ومرارة : هذا هو الدليل على نفورهم منا . فلم تحسن الدولة العثمانية اليهم ، وقد عمدت مراراً الى تقتيلهم دون ان تهوي بفأسها على الجذوع . ولو انصفت ، لافنتهم على بكرة أبيهم . فلا تبقي منهم مخلوقاً ينشأ وكرهها في قلبه . أو لعاملتهم بالحسنى ، وخطبت ودهم ، فكانوا لها من جنودها الامناء . فلست اراهم يثقون بنا ، ولا نحن نثق بهم . عدونا في دارنا . هذا منتهى البلاء !

ومشى في اثره الاولاد الصغار ، لدى بلوغه زحلة ، معجبين بشكله ولباسه . ففي شاربيه العسليّين ، المعقوفين ، جنوحٌ الى الاستكبار . وفي عينيه الزرقاوين ، العابسين ، قسوة وجفوة ، كأن هؤلاء الدارجين في

الارض اصنام للتحطيم . ولمعت شاراته العسكرية نجوما على كتفيه ، وتوهجت أزراره الصفر ، فبات وجهاً يغري بالنظر اليه ، كأنه ممثل بارع على ملعب . واشار اليه نفر من الشبان قائلين : هذا من ضربه مجيد حريز !

وتكاثرت اليه اللفتات لما قيل إن مجيد حريز ضربه . فشاق الزحليين مرأى ضحية مجيد، فتى البلدة الأغرّ،وقدوة الاشاوس الميامين.وسار نوري بك الى البردوني. وروحه وفكره يبعدان به عما يمضغ من طعام . وحبا عجلان الى دار عفراء . وقرع الباب بخيلاء ، لا بارتباك كالمرة الاولى . واقبلت الفتاة بنفسها تفتح . وما ابصرته حتى صاح فيها الارتياع . فاحس نوري بخشيتها وابتسم.ولم تكن ابتسامته تنطوي على لين وحياء ، بل على شموخ وقحة . وانحنى يقول بالفرنسية : صباح الخير !

فوقفت عفراء بالباب لا تدعوه الى الدخول ، إلا أنها ردت له تحيته قائلة : صباح الخير ، يا نوري بك !

وخرجت كلماتها رخوة ، باردة ، خالية من دفء الترحيب . فقال الضابط ، وقد ولج الباب بقوه السيد: اراك لا تشتاقين مثول نوري بك بين يديك ، ايتها الآنسة عفراء !

فاعلنت مكرهة : مرحباً بمولاي !

قال يتهكم : ما لنا وللترحيب الزائف . أنا أعلم أنك لا ترتاحين الى رؤيتي عندك . الا انني أُقبل اليك كضابط من ضباط جلالة مولانا السلطان، لا بصفة كوني نوري بك !

ووقف منها على قطوب فروّعها . اي فاجعة سيدمغها بها ؟ ... هل قبض على مجيد ؟ ... وخاطبها بلهجة الامر قائلاً بخشونة : إعلمي أن المهمة

دقيقة ، وأن عليك ان تجيبي بكل وضوح . واذا لم تفعلي فتحت بيديك باب سجنك . فاحذري الجائحة !

وجلس بعظمة . ودعاها الى الجلوس بسلطة قاهرة . وابتدرها بقولة جافية ، يرين عليها الوعيد : أنا أعرف أين أمسى إبن عمك نجيد حريز !

فخفق قلبها حتى كاد يتشظّى . أيكون اهتدى الى مقر نجيد ؟... قال بشدة يبتغي بها التهويل : وأعرف من ساعده على الهرب . وأنت تعرفين من هو !

فاتسعت عيناها رعباً . قال طامعاً في قهرها وتبديد همتها : نجيد عمل عملته وجاء إليك ، وأنت مهدت له الى الفرار . أتنكرين ؟

فاضطربت . على انها جمدت كالتمثال ، كأنها المصعوقة . فهتف بها نوري بك بامتهان نهد به الى التدويخ : ما بك لا تجيبين ؟... انت دفعت نجيداً الى الفرار . وزيّنت له القتال في الحجاز ، في جيش الشريف حسين ابن علي ، الثائر على الدولة العثمانية ، وقد خان ميثاقها . غير ان نجيداً لم يصل الى الحجاز . فما يزال في حوران . وسنقبض عليه . كما أقبض عليك بتهمة التواطؤ واياه على العبث بالامانة للدولة العليّة . فاستعدي للمسير الى السجن !

فصاحت ، وقد صال فيها الذعر : سيدي ، سيدي ، ماذا تقول ؟

فاكتفى بان يجيب بنبرة حاسمة ، لاسعة : اقول إنك مجرمة ، خائنة !

فمادت تحت وقع التهمة . وأبانت تتنصل باسترحام : وهل ارتكبت جرماً يدفعني الى السجن ؟ ... رحماك !

– أما ساعدت ابن عمك على الهرب ؟

– ابن عمي لا يحتاج الى مساعدة ، يا نوري بك !

– ولكنه يعترف بانك سهّلت له الى النجاة منا !

فاستوضحت ، وقد استدارت عيناها لفرط الرعب المنتشر فيها : هو ؟

– هو بعينه . لا ريب انك تجيدين القراءة . واني لاعرض عليك هذه الرسالة . خط من هذا ؟ ... قولي !

وعرض عليها رسالة مجيد ابن عمها اليها . غير انه لم يلقِ الكتاب بين يديها ، بل ظل ممسكاً به ، مستفهماً بسخرية قاصمة : ألا تعرفين هذا الخط ؟ ... أنا لا اجهل اللغة العربية وإن كنت لا أتكلمها . إقرإي على مهل . إني أحمل اليك كتاب غرام مذيب !

واطلق ضحكة الهزء الحاقد ، الناقم . فماجت عينا عفراء على السطور برهبة . هي تعرف هذا الخط . فهو خط مجيد ، ولا مكابرة . وقرأت بلا ارتباك ، وقد نزعت الى معرفة ما يحدثها به ابن عمها . واطربتها الرسالة فهاجت فيها البكاء . فتململ نوري بك وكاد يطحن اسنانه قهراً حين ابصر الفتاة تبكي . وقال في نفسه بألم صاهر : اللعينة تحبه حباً لا يرتضي النبوة . سأشقى في اجتذابها اليّ !

وبلغت من الرسالة الى حيث يشكر لها مجيد مساعدتها اياه على الخلاص من القبضة العثمانية الطاحنة . فامتدت يدا عفراء الى الكتاب بشوق المستنيم الى لذة عارضة . وخاطبت الضابط باستعطاف اللائذ بالاريحية المثلى ، تقول له : دعني أشم رائحة هذه الرقعة الحافلة بسطور الولاء ، يا سيدي . فقد استنشق بها رائحته . دعني اقبل توقيعه ، وانامله خطت امضاءه الجميل !

فكأنها لذعت قلبه بالنار . فانتفض ، وطوى الرسالة بغيظ ، واعلن

بصوت يتهدج: ما لك وللحمق . ليس المجال بمتسع له . انت متهمة بكونك انقذت ابن عمك من يد العدل !

فصاحت برباطة جأش، وقد امست لا تحفل بما سوف يدهمها بعد قراءتها كتاب مجيد اليها : بل انقذته من يد الظلم !

فامسك نوري بك بذراعها يضغطها ويؤلمها . ودمدم على عفراء والخيبة تخلع نياطه ، والحمى تشويه . فقال بعبوس الغيور المحتدم : دعي عنك الحيلاء . باستطاعتي ان احطمك كما احطم ابريق الزجاج الجاثم في هذه الزاوية . أيلوح لعينيكِ ؟ ... خاطبيني بالكلام الخالي من الزهو واللؤم . انت ساعدت مجيداً على الهرب ، أليس كذلك ؟

فاعتزمت ابداء الجرأة . فلينتقم بها من مجيد وليسلم ابن عمها . ولا عليها وقد ماتت فداه . وأجابت لا تبالي : هو ما اعلنت ، ايها السيد !

قال يهشم الكلام بتمتمة حافلة برشاش الغيظ : وابن عمك يلعنني ، ويلعن كل عثماني ، وينتصر لقومه العرب ؟

فاوضحت وقد نفت عنها كل رهبة : هذا ما جاء في رسالته اليّ !

فبلع ريقه حنقاً واذاع بلهجة لهبى تبيّت الشر : حسن . في الامر خيانة مزدوجة عقابها السجن . أتلحقين بي اليه ؟

فما خشيت السجن ، وقد ملكت الشجاعة . وقالت بلا اكتراث : ليس ما يمنع ان اقيم في السجن ، ايها السيد ، ان اكن اجترحت الشر !

فشحب لونه، الا انه تماسك وقال بصوت هادىء اللهجة ، لئيم المكسر: اذن قومي بنا اليه !

فما ترددت في الاجابة، قائلة بمضاء، كأن الامر لا يعنيها : حباً وكرامة !

فنزع الى ايلامها بمختلف ضروب التجريح ، وقد ساءه رضاها عن الشدة والبلاء في سبيل ابن عمها . قال : على اني ادعوك ، وانت في الطريق ، الى الامتناع من البكاء والصياح !

فردت له وخزته ، متشامخة عليه بقولها الزاخر بالازدراء : اعتقد اني لست في سن الاطفال كي اسمع هذه الوصية !

فاشتدت به النقمة عليها ، وجلجل بفظاظة : إخرسي . أشبعتني سماجة وهراء . سيري امامي !

– ألا تصبر ريثما اجمع ثيابي ؟

– إمشي كما انت !

وجرّها بمعصمها لا يجيز لها حتى قفل الباب على امها المقعدة ، الغائبة عن نفسها، كأنها ليست في الاحياء. فاعترضت بقولها: أيبقى المنزل مفتوحاً ؟... أي شريعة تقضي بهذا الاكراه؟...ومن لامي المفلوجة يتوفر على خدمتها؟... أما من رفق بالعجزة ذوي الاسقام ؟

فاجاز لها اغلاق الباب ، ودعوة جارتها الى الاعتناء بامها النخرة . ورقب ان يلمس فيها بعض اللين ، فيعرض عليها حبه لانقاذها . إلا انها اعتصمت بالشدة . وسارت بجانبه وما انفك ينتظر منها ان تستعطفه في الرفق بها . فلم تفعل . قال يثير مخاوفها كي تلوذ به في درء الهول عنها : أتدرين ما يرقبك في السجن ؟ ... الجوع ، والمهانة ، والعذاب ، وربما الموت !

فنبرت بصلابة المستشهدين : لن اموت مرتين !

– وسيطاولك فيه العار !

فمادت بها الارض وهي تسمعه يهددها بالعار . ولم تكن تجهل مرماه .

قال وقد تبين فيها طاغي الارتياع : اجل، سيرقبك العار . فالجنود سيفترسونك شئت او ابيت. وهناك ليس من يرحم . فالعناد مصيره الى الذل والقهر !

فدهمتها الغصص الخانقة . وغمغمت من كبد مرتعدة : لا ابقاكم الله !

ونفثت حمم اليأس المستميت ، لا تعبأ بما سوف يصيبها بعدما بلغت الفاجعة منتهاها . فان يكن موت ، فمرحباً به ، على ان تسلم عفتها . ولا بأس ان تموت شهيدة الكرامة. غير ان نوري بك ما زال يرجو اقتناصها ، وان يكن اخفق في الوعيد . قال : انت الجانية على روحك ، يا عفراء ، ولا عتب عليّ فيك . أبذل لك الود ، فألقى منك الصدود . مع انك ساعدت مجرماً على الهرب . وهذا المجرم يقرّ لك في رسالته اليك بهذه اليد عليه . ولا يتورع من نعتي بالنوري . وفي الكلمة إهانة لا يطيقها إبائي . الا اني ذو سماح ، فاريد أن اعفو . ولكن هذا العفو لا اعلنه وانت تمضين في جفائك . فما يقعد بك عن مسايرتي في عاطفتي ؟ ... أما اكون جديراً بمودتك ؟ ... ارفقي بصبّ يسيل حنيناً اليك !

فظلت على قطوب . قال وما انفك يسترحم : ألا يشفع سماحي في قلبي ، فاجدك بقربي ؟

فزعقت بشراسة ، بامعان في النحر : العار كله ولا هذا الهوان !

فخضخضته اللطمة ، وما نزلت به الا بعدما سبقتها اليه العشرات من نظائرها . على انه أبى ان يقطع الامل . وليس للحب ان ييأس حتى في ذبول الرجاء. فعاد نوري بك يسأل في نفسه المكدودة: أما تجيبين ملتمسي ؟

فتوالت فيها زعقتها الصاخبة ، واعلنت برغبة في الايلام والتشفي : لا ازال مالكة صوابي !

– أأكون حقيراً لديك بهذا المقدار ؟

وذلّ في استيضاحه . فدمدمت عليه لا تكترث لسوء العقبى : اعمالك هي الحقيرة !

فكادت لكمته تهوي على فمها فتحطم فكّيها . على انه تذرع بالصبر وقال يرد لها الطعنة : واعمالك ، أتكون شريفة ؟

فاجابت بزهو لا يلتوي له شموخ : وهل لي الا ان افاخر بثباتي في العفة والحفاظ ؟

فاضطرب، واحس بانه حيالها هباء . فانها لتنقضّ عليه بالمثالب دراكاً، فتزعزع بها كبده . وما انفك يتشفع لديها في نفسه ، وقد جهل مكانته ، وما ابقى فيه حبه الفائر على ادراك يلتفت به الى مقامه. قال بالتياع : أيجوز في شرعك ان تقتلي من يهيم بك ؟ ... أترين في سفك الدم مهزة نبيلة ؟

فرشقته بسهمه صارخة به ، وقد ايقنت بتفوّقها عليه : وهل يجوز في شرعك ان تفصل حبيباً عن حبيب ، وان تقتل قلبين لاحياء قلبك ؟

فافحمته . غير انه ما ضاع عن عذره ، فهمهم : ولكني احبك !

فجلت له موقفها بعزّتها المتعالية ، الراسخة في المنعة ، لا تبالي المصاولة على عنفها وخطرها : اما انا فاني احب سواك . واني لأسألك عن رأيك في فتاة تحاول ان تفرض عليك حبها فرضاً . فماذا تقول فيها ؟

فتلجلج في البيان ، وما كان يدري ما يذيع ، فغمغم بلعثمة هانت في الافصاح : اقول ... اقول ...

– ماذا ؟

واطلقت كلمتها ببعيد الهزء . فما خرج عن لعثمته الحائرة ، العاجزة :

اقول ...

فتولت عنه الايضاح بحزم الموقن بصدق رأيه ، وقد أبانت : تقول انها سمجة ، لا تطاق. وتتبرم بها وتعرض عنها ، ولو كانت هابطة من السماء !

وقطعت عليه كل مجال الى ملتمسه . وما فتىء يرى نفسه هباءة ، بل دون الهباءة ، تجاه هذه القابضة على السمو والانفة باناملها العشر . وانكفأ الى التهديد ، وكان قد بلغ واياها المعلقة . قال : ألا سبيل الى الكف عن هذا العناد الغاشم ، وفيه أذاك ؟ ... انك لتجنين به عليّ وعليك . فرفقاً بروحي وروحك !

ولم يزل يرجو . وما زالت تسدد اليه الضربة الدامغة، وما تريد الا ان توفق لضربة الاجهاز ، فنبرت : اعلنت موقفي ولن ارجع عنه. وان يكن صوتي ونقاوتي يجرّانني الى حتفي ، فاصبحت لا اطمع في ما يعدو المنية . ولكن لماذا لا ترفق انت بارواح الابرار ؟

فدحرجته من ارتباك الى ارتباك. وخشي الغلاظة ولن يسلم من التبعة. وحاول معالجة الداء المستعصي للمرة الاخيرة، فقال: اصبحنا بباب السجن . فليس لي الا ان ارفع الصوت كي تضمك الجدران السود. فاشفقي على فتوّتك وعلى جمالك ، وامنعي عنك هول العذاب في هـذا الكهف الاسحم . اني لاخلع عليك حبي، وثروتي ، وجاهي، فما بك لا تعلنين موافقتك على حنيني ؟

فظلت الصخرة صخرة. وهتفت عفراء: ليس لي ان اخرج عما صارحتك بـه . وان يكن لي ان اشقى ، فلست اكرم ممن انتهت بهم صلابتهم في الحق الى الموت !

فجلجل : وستموتين ، ايتها المتغطرسة الرعناء !

ونادى باعلى صوته : أم صبحي !

فاقبلت امرأة طويلة ، سمراء ، رثّة الثياب ، وسخة المظهر ، يتهدل سروالها الاحمر بزماماته الى قدميها ، وتدور في وجهها عينان سوداوان ، صغيرتان ، كأنهما ثُقبتا بالمخرز ، وهما ناتئتان كالمخرز . وابتسمت للضابط ، وقد لاح لها ، ابتسامة الخنوع ، وقالت برغبة في التلبيـة العجلى : ليأمر سيدي !

فنظر نوري بك الى عفراء حريز بحقـد ، ويميل الى الانتقام الصاعق ، وهتف بصوت عريض ، حاسم : ادخلي بهذه الفتاة الى السجن !

فما تجرأت أم صبحي على الدنو من عفراء ، وقـد بدت لها في جمالها الرائع ، ونبلها المطبوع . هي للقصور ، لا للسجون . عـدا انها تعرفها . وهل تخفى نجمة الصبح ؟ ... وهتف بها نوري بك وقد تبين اثر عفراء في نفس السجّانة : ألم تسمعي ؟

فاضطربت ، وقالت : ولكن ، يا سيدي ...

فوثب عليها يحاول ضربها ، ورفسها ، وهو يصيح : متى كنت تتمردين على اوامري ؟ ... ادخلي بهذه الفتاة اعماق السجن . فهي ابنـة عم مجيد حريز ، الخائنة الممهدة له الى الفرار !

فملكت أم صبحي الجرأة على الاقتراب من عفراء ، وهي تسمع الضابط يلفظ اسم مجيد حريز المغضوب عليه . وأمسكت بذراعها لا تخشى أن تلطخ بيديها القذرتين ثياب الفتاة . وجرّتها الى المغارة النتنة ، المظلمة ، المتنكرة للهواء وللضياء ، كأنها ليست من ملاجىء هذا العالم ، وهي تعالنها بصوت يترجح بين الشدة والرهبة : هنا يأمر بان تقيمي مولاي !

٩

سجن النساء في معلقـــة زحلة كالقنّ . سقفٌ يكاد ينحني حتى يلامس الارض . ونوافذ ضيقة يوشك الهواء ان يختنق فيها . وارض عارية من كل بساط وحصير . وفي الزوايا اقذار تعلو منها روائح كريهة تفرض على من يستنشقها الاغماء

والاخشاب اعشاش للبق . اما البراغيث فقد لقيت هناك مرتعها . وفي صدر المكان فراشان، فراش لام صبحي، وفراش لاحدى السجينات يسرح فيهما القمل

واطبق السجن العجيب بابه الحـديدي على ثلاث سجينات . وجاءت عفراء فكانت الرابعة . بيد ان عفراء ما كادت تدخل السجن حتى احست ضيقاً في صدرها كاد يعروها به الغشيان . فاستندت الى الجدار لئلا تقع . وجاءت أم صبحي بوسادة تناثرت حشوتها ، وهي من القش، قائلة لضيفتها : اجلسي ، يا حشاشة قلبي !

واشفقت عليها ، وقالت متوددة : لتقبرني عينا مجيد . زوجي عامل في بساتينه . الا انه كان بغنى عن الاساءة الى نوري بك . هؤلاء اقوى منا ، يا ابنتي . والقوي لا بد لنا ازاءه من طأطأة الرأس !

وحدثتها عن ضرورة المصانعة في الحيـاة ، وعن المطالبة بالحق ببعض التراخي . فالتشديد ، والعهد عهد ارهاب وطغيان، مجلبة للاذى. واندفعت في نصائحها تبسط لعفراء كل ما خبرت من تجارب الايام . قالت : معاندة ذي السلطان حمق وجهل . آباؤنا درجوا على المماقة والزلفى ، وعلينا ان

ننهج نهج الآباء . ولسنا ادرى منهم بامور معايشنا كي نتجانف عن طريق عبّدوه لنا بحكمة ودهاء !

وأم صبحي من بقايا الجيل الصائر الى الانقراض . عاشت تحت النير ، وباتت لا تعرف الحيـــاة الا والنير مضروب على الرقاب . وما للنفوس المغموسة في الذل ان تستطيب العيش اذا نجت من بؤرة تغيب في قعرها . واصغت اليها عفراء ، وما اصغت اليها . فكانت تسمعها دون ان تفكر في ما تذيع السجّانة ، وعليها ان تستجلي خاطرها في مصيرها الرهيب . وعزاؤها في بليتها انهـا تعاني الويل في سبيل مجيد

وشعرت ، لفرط الجزع والنتن ، بالدوار المتوعد . فانساها ما هي فيه من غمرة الرزيئـة . وألقت رأسها بين يديها وغابت عما يتولاها من جور وضيم . فتحس بالحياة ولا تدري انها فيها ، وقد باتت لا تستطيع حتى رفع رأسها . وجاءتها السجّانة بالماء ترشّها به . فطلبت منها عفراء ان تشرب . فحملت اليها ابريقاً يعلوه الوسخ من كل جانب ، وقد ضاع فيه لون الخزف ، وانبسطت عليه الكمدة . عدا انه مثلوم الفكّ ، محطم الاذن ، تنتشر منه رائحة العفن ، كأنه يغور في بطن مستنقع . فدفعته عفراء عنها باشمئزاز . فقالت لها أم صبحي : أأجيئك بالقدح ؟

وملأت لها كأساً واسرعت بها اليها . فاذا الرائحة الفاسدة تعلو من حفاف الكأس ، كأن الخنازير ولغت فيها . فلم تطق عفراء ان تشرب ، وآثرت العطش . فهتفت السجّانة عاتبة على نفسها ، وما استطاعت ارضاء ضيفتهـا الاثيرة : عدمت أم صبحي حياتها اذا حرمتك الماء !

وخرجت الى السوق تأتيها بابريق جديد ، اتفق به لعفراء ارواء ظمأها .

وما كان الطعام دون الشراب فساداً . فالحشرات تحوم عليه . وانسكب في اوعية تلحسها الهرر والجرذان . وان هو الا ماء ساخن، وبصل وجزر مسلوقان يسيل عليهما الشحم الزنخ . وعفراء لم تكن تحمل مالاً ، وقد باغتها نوري بك في جرّها الى السجن دون ان تكون له على أهبة . فودت ان تطوي ليلتها على جوع . ولكن أم صبحي اشترت لها من مالها — كرمى عين مجيد ! — الخبز واللبن ، وحملتهما اليها ، فأكلت ونامت وكل ما فيها يشكو التعب والانحطاط

انها لضحية اخلاصها . وما عليها ، والاخلاص رائدها ، ان تكابد مغبة الوفاء . فما للمستقيم في خلقه ان ينعم بالراحة . وهل كانت الدنيا لسوى من جنح عن قويم القصد ؟

وفي الصباح كان نوري بك يدعو السجانة اليه ويستوضحها بوجوم : كيف قضت ليلتها ؟

فاجابت : في ضنك وعياء ، يا مولاي !

— وهل احتملت جو السجن الموبوء ؟

— دهمتها البراغيث والبق والقمل، فنهضت وكأنها مصابة بداء الحكاك. فالنهش يرعى في جسدها !

فراقه ما يسمع وقال : ألا تشكو ؟ ... أما ترجو الخلاص ؟

— ما تعرف غير الانين والزفير ، يا مولاي !

فاعلن بانشراح : هذا جزاء عنادها . دعوتها الى العمل برغبتي فنطحت برأسها السحاب. لن تبرح كهف العذاب الا وقد ذلت واستغاثت برحمتنا !

فابدت السجانة تمالئه: ليس لها ان تحتمل طويلًا ما يساورها من عذاب.

فما تكابد من شدة لم تتعود وطأته. ولا بد ان تذل في التماس النجاة، حتى وان تكن ذات مشيئة كالصوّان!

قال: ادفعيها اليّ. اريد ان اراها!

فالشوق اليها ما زال يتقد فيه، مع علمه انها تعانده حتى وهي تحت رحمته. بل مع يقينه ان دعوتها اليه قبل ان تتحطم مناعتها يزيد في صلابتها. فعليه ان يدعها تختمر في هوانها ليحين قطافها، والا فتبقى ابداً عجراء

وهرولت اليها أم صبحي تقول بابتسامة الرضى: هو يدعوك اليه، يا روحي. اراه رفيقاً بك. وانه ليرقبك في منزلي القريب من السجن. فلننهض اليه، وما هناك سواه. ارى من الفائدة ان يجمع بينكما التصافي!

وغمزت بعينها. فقالت عفراء غاضبة: ابلغيه اني في غنى عن رؤيته. انا في السجن فلينزل بي ما عليّ ان ألقى من عقاب!

فتعجبت أم صبحي من هذه الجرأة في الخطاب، وقالت: أأجيبه بهذه اللهجة؟... أما اوضحت لك ان العهد عهد مصانعة ورثاء؟

ورقبت منها ان تلتوي عن المشاكسة، وما يعينها الموقف على مصادمة التيار. أما تبصر اي قوة غاشمة يبذل العثمانيون في التضييق على لبنان؟... لتكن قصبة، لا سنديانة. فالميل مع الريح اسلم من الصراع. بيد ان من ذادت عن انفتها، امسكت على النفاح عن نقاوتها وحبها. فأعلنت بغيظ نبيل: ما اعرف المصانعة، يا أم صبحي. فلن اقول له إني اطيقه ولست اطيقه. إني لاكرهه. ولو احسن إليّ والى نفسه لاودى بي!

فأطلقت أم صبحي ضحكة طنّانة، وقالت تستعظم الاقدام على الفتك بعفراء، ذات النضارة والرواء: أيقتلك، وهو قتيل هواك؟... ألا

كيف يستوي النقيضان ؟... بدا لي من حديثه عنك أنه على مفرط الكلف بك . تعالي . أما يبدو لك أنيق الطلعة ؟ ... لا عليك اذا ابديت في محادثته الرقة والحلم !

فمضت في لهجتها العنيفة هاتفة بجفاء : دعيني ، لا أريد أن أراه !

ـ ولكنه السيد هنا . أتجهلين مبلغ سلطانه ؟ ... اذا رام ان يجرّك اليه فعل دون ان يلقى معارضة . فليس من يد تعلوه . صدقيني ان أجمل فتاة تشتهيه !

فصعقت عفراء ، بنظراتها الشزر، الدوامغ، أم صبحي السجّانة ، ناشرة حديث الاغراء . وصاحت بها بنبرة فاصلة ، حاتمة : اذا اشتهته الفتيات فانا انفر منه . أتخفى عليك عفراء حريز ، يا أم صبحي ؟ ... إبلغيه ألا يتعب في المحال !

فزادت في دهشها . فهي تعلم ان الفضيلة تهون في الحروب ، وتستفحل المعصية . فتسترخي المحصّنات . وما للفوضى المنشورة ، والذعر الطيّاح ، الا ان يوهنا من مناعـــة الخلق ، فيكبو الحفاظ ، ويفسح الى العبث ، فتنتهك الحرمات

ولبنان وسوريا عانيا أزمة الطهارة في حرب ١٩١٤ ، وقـد استشرى الهول فيهما ، وفتك الجوع بالارواح . فتداعت الرزانة . وطغت الخلاعة . وبيعت المهج كالسلع . برقعة من بخس النقد ، برغيف ، باجاصة ، بتفاحة ، بعنقود . وبات الهمّ الاوحد الحرص على البقاء، والخلاص من الويل القانص ببقوى من الرمق . وانى يستمسك الهاوي في قعر الوهدة بنقاوة الضمير ، وهي قاتلته ، على حين تنقذه الاباحة من الهلاك ؟

وابصرت العيون ما روّعها . فالموت استنسر في بطشه ، حتى سدّت ضحايا الجوع السبل . كلهم يتورّم، ويتقرّح، ويتلاشى ، ولا يجد من يودعه الضريح ، وقد فني الناس ، واضمحلت الرأفة ، فيبلى في الطريق ، ويفسد بنتنه صفاء الجو

والسجّانة ، أم صبحي، شاهدت واعتبرت. فلا شأن للارواح ، والحياة اضحت ذرارة . ومالت بعفراء الى التأني، وليس لها ان تكابر في الامتثال للقوة المتجبرة ، العارمة ، المختطفة الهامات بلا رادع ، ولا دافع الى البتّ والافناء . فالأمر مردود الى شهوة الظالمين ، وما ترجح الروح لديهم لسعة سوط، او طعنة خنجر، او رصاصة. قالت السجّانة تخلع على عفراء حريز ما ألهمتها إياه الحكمة: لا يغلب عليك النزق، يا ابنتي. سيري اليه ولا تخافي . على ان تبدي حياله اللطف. فالعناد لا يفيد . أما الملاينة فقد تنقذك. اذكري اننا في عهد عسف وطغيان !

فابانت عفراء بمستطير الحرد ، لا تبالي القوة المتوعدة: لن اذهب اليه . أنا في مكاني ولن اتحرك !

وتعاظمت جفوتها . فرفعت أم صبحي يديها الى السماء مستنجدة . وأهوت بهما على شعرها تحلجه وتصيح : الله من صلابتك . اني لاخشى عليك منها . نوري بك ليس غولاً . تعالي. سأكون رفيقتك اليه، وسأردّ عنك خطره . فما يشوقنا الا ان نلمّ بما يحتاج اليك فيه . ربما رغب في العفو عنك !

وامسكت بيدها تجرّها الى الضابط العثماني . ورهبت عفراء المقاومة وتاقت اليها. غير انها رأت ان تقف منها بين بين. وألقت أمرها الى القدر.

فلتذهب الى نوري بك ، وليس غولاً، كما قالت فيه أم صبحي . ربما اشفق عليها وقنع منها بما تبدي له من حجة . وقادتها السجّانة الى الضابط وهي بين ممانعة ومؤيدة . وتظاهر نوري بك بانه في شغل عنها وقد بدت له . وشاقه أن يميل بها الى الظن بكونه لا يرقب مجيئها . فظل مكبّاً على رقاع بين يديه يطالعها دون أن تحين منه نظرة الى السجانة والفتاة. وطال انصبابه على القراءة . ورأت أم صبحي إبلاغه أنها أقبلت ، فقالت بصوت ساكن ، خاشع ، كأنه يتحامى الجلاء : مولاي ، نحن بين يديك !

وابتسمت ابتسامة الرقّ . فاستطال فمها ، وجال الخنوع في عينيها . وظهر من نوري بك انه انقطع عن عمله دون ان يدري من يخاطبه. ونظر الى السجانة يقول بدهش : أنت ؟

فاجابت وقد تشجعت على النطق : لست وحدي . فان الآنسة عفراء بصحبتي !

فانتفض وهي تحدثه عن عفراء . وارتفع رأسه بخيلاء، وألقى على الفتاة نظرة الغضب . على انه ما لبث ان ابدى الايناس قائلاً : مرحباً بها !

وأومأ يدعو أم صبحي الى الانصراف . ووقف بنفسه يقفل وراءها الباب . وارتدّ الى عفراء يقول بلهجة تشفّ عن لؤم أصيل : أرجو ان تكوني قضيت ليلتك بهناء !

فرمته بنظرة علاها الاحتقار ولم تجب . قال يمعن في تنكيد عيشها : اذا كنت راضية عما أنت فيه ، فقد وقعت على ما تشتهي نفسك . واذا ساءك ما لقيت فلا تغضبي . ستتعوّدين !

فاستمرت في سكوتها تنازله به في معركة الايلام . قال بنبسة الموتور :

اعتزمت أن اوفـدك الى الديوان العسكري كي ينظر في امرك . هناك لا سبيل الى الغنج والدلال . والكلمة المعلنة مبرمة . فاذا اوجعك العمل بها لقيت من يكرهك عليها . فاستعدي !

وأطال اليها النظر بعينين تملكان سر الترويع ، ليتبين اثر مقاله فيها . فلم ترتعد كأن ليس ثمة وعيد يودي بها . قال نوري بك وقد اوجعه ثباتها في المقاومة : أأنت على استعداد ؟... لن يحكم عليك القضاة بما دون السنة . سنة بكاملها ستقضين في السجن . في زريبة يبدو حيالها قنّ أم صبحي نعيماً . كان بوسعي انقـاذك من الضيم ، الا انك في صلف غليظ ، كأن الغطرسة سليقة فيك !

فلم يهزّ مناعتها بتهويله . قالت تزري بالتثبيط وتتمرد على الاستهواء : ادفعني الى الموت وقد اضحى خير ما اشتهي !

فقهقه قهقهة مغتصبة حجب بها غضبـه المهدد بالانفجار . وقال يثخن في الاقلاق بغية الاستدراج : أتعتقدين أنك تلقين هنـاك من الاكرام ما لا تجدين هنا ؟ ... ولكن جمالك يأسر الجميع . ومن حسن حظك ان من شغف بك في معلقة زحلة يأبى الاساءة اليك . فاذا احبك فلن يفترسك — وله ان يفعل اذا شاء — بل يدعوك الى الرضى بـه كزوج . حتى انه لا يمانع في أن يدين بدينك . اما هناك ، فاذا عاندت ، فالسوط يحملك على الاذعان ، فتذهب عفتك بلا ثمن . وما دمت في السجن فانت مطيـة كل هائم بك . فاختاري !

فهالها ما يقع في اذنيها . وقالت وهي تجتهد في حبس دمعهـا : أليس من سبيل للرحمة الى قلوبكم ؟

فتوهجت فيه الغبطة . هان العسير . فالفراشة طوت جناحيها مستسلمة الى حلاوة الزهرة . ووشيكاً وتنطبق الاكمام فتمتصها وتسلبها ما طمعت فيه منها . قال يذلل الكؤود: نحن لا نريد الجناية عليك، كمن تولت عنهم الشفقة . بل راقنا فيك الحسن فالتمسناه حلالاً ، بلا حرج !

فجمجمت تتشفع في نفسها الحجر الصلود، الاصمّ : ولكني عذراء، رفقاً بالعذارى ، يرفق بكم الله !

وافاضت بقولتها بنحيب ، بنفس تموت . فقال الضابط العثماني يجاهد في تليين الصلب : انا اريدك للزواج ، لا للتلهي بك ثم نبذك . فان اكباري عفتك ليمنعني من التسفل الى اغتصابك والتخلي عنك . فاذكري لي هذه اليد البيضاء !

– وتسحق قلبي؟... اي هناءة تجد بقرب من لا تكنّ لك المودة؟... أتعشق صخرة باردة ؟

فهتف، وفي كل كلمة من كلماتها طعنة تبدد حشاشته الذابلة : بل انت تسحقين قلبي باشاحتك عني، وقد سطوت مني على مكامن الاحساس . وماذا ابقيت من هذا القلب غير فلذة تفنى؟... اعلمي انك تذيقيني طعم الموت ، واني سئمت لاجلك حياتي . فان يكن الحب ما لقيت ، فقد اصبحت اكره البقاء !

وكاد يهجم عليها ويعانقها، ويندفع في تقبيلها بجنون لفرط شوقة اليها . غير انه تماسك. فما برح يملك اعصابه على فورانها . بل خشي اللطمة فتتفاقم الاهانة . قالت عفراء، وما انفكت تتذلل في الاسترحام: ألا اخت لك؟... أترضى بان يصيب اختك ما يصيبني منك؟... ألا منفذ للرأفة الى مهجتك؟...

أتكون خالياً من شعور الرفق بالانقياء ، الموثقين بمودتهم ؟

فحاربها بسلاحها قائلًا : وانت ، أليس من شقيق لك ؟ ... أترضين بأن يصيبه ما يصيبني منك ، فيشقى في حب ذات صدود ؟

فتأوهت واعلنت بضراعة : ارحم قلوب المحبين . ليس لي في الجواب الا ان اردد ما سبق لي بيانه من عذر. وانه لعذر وجيه يحملك على نسياني والافراج عني !

فهز برأسه واعلن بحدة : ولماذا لا تكونين الراحمة ، لماذا ؟... كيف تطلبين مني ما لا تطلبين من نفسك ؟ ... أتكون التضحية مفروضة عليّ وحدي ؟

– انا مسكينة ، لا قوة لي على الانسلاخ من ميولي . أيخفى عليك ضعف النساء؟...اما انت فرجل . والرجل ارحم ، وانبل ، وهو الاقوى !

فصاح، وقد ضاق صدره بما تلقي اليه من كلام خانق : بل انا المسكين، ولا قوة لي على منع قلبي من حبك . لقد اوثقتني وشددتني اليك بما اصبحت به عبدك !

ووثب عليها يطوّقها بذراعيه. فدفعته عنها بقسوة، بقدرة على النضال. فجمع كل ما يتقد فيه من عزم وأعاد الكرة ، يريد تقبيل هذه المثخنة في الاعراض. فما استطاع، وقد أقامت ذراعيها بينها وبينه. فصاح بها بمستطيل الغيظ : ولكني اؤذيك وأنت تمضين في عنادك القبيح . فاحذري سوء المنقلب !

فصرخت باباء، بعزم صدوق: لن تنال مني شهوتك الا وأنا جثة هامدة!

فزعق بفحيح : وستكونين جثة هامدة . لن اتردد في القضاء عليك

وانت تعتصمين بجرانك . لست موضع استهانتك بلبي !

وضرب بها الحائط . ولكمها في رأسها ، وفي صدرها . غير انها لم تبرح تطوّق وجهها بذراعيها لئلا يقبلها . وتململ ازاء ثباتها في الدفاع عن نفسها ، فامسك بشعرها ، ورفع رأسها وهمّ بتقبيلها ، فلم يفلح . فاعماه الغضب واستنجد بسوطه وأخذ في جلدها . فصاحت صيحات الالم المولول . بيد انها لم تهن في الكفاح . فرمى بها في الارض وحاول امتلاكها عنوة . فرفسته وأبعدته عنها واهياً كليلاً . فخطر له ان يشد وثاقها وان يفترسها انتقاماً منها . ولكنه ما تجرأ على دعوة جندي من جنوده كي يستعديه عليها ، لئلا يشهد بما تبصر عيناه من نكر . ويئس حيال الصلابة الكامنة فيها ، فداسها برجله والعرق يتصبب من جبينه ، ومن فوْديه ، وشفتيه ، وعنقه . ودمدم عليها : اذهبي الى الشيطان !

وأدماها ومزق ثيابها . على انها ما برحت مالكة صوابها وبعض عزيمتها . فأبت ان تتضعضع في الموقف الرهيب . ويئس منها . وخاف ان يحمله غيظه المستشري فيه على الفتك بها ، فيقترف جناية ليس باضطرار اليها . فنادى حاجبه يقول له بصوت هائج ، خادش : جئني بام صبحي !

فأسرعت اليه السجّانة متهالكة على احراز الرضى ، واشارة منه تقضي بعزلها ، حتى وبموتها . قال وهو يستشيط حنقاً ، ويجتهد في اصلاح هندامه ، وقد عبث الصراع بشعره ، وبسترته ، واضرم وجهه ، واحرق عينيه : خذيها . لا كانت وهذه طباعها . اطرحيها في أحقر بؤرة . غداً سترى ما يحلّ بها !

فنظرت اليها أم صبحي وأوجعها أن تراها مهشمة ، ممزقة الثياب ، منبوشة الشعر . بيد ان الموقف مال بها عن إبداء الحسرة ، وجنح بها الى

العتب ستراً لامرها . فقالت تلوم عفراء حريز ، بل تؤنبها : ألا تخرجين عن مكابرتك ، أيتها الآنسة عفراء ؟

فزمجر نوري بك وهو يرتجف لفدح الخيبة : خذيها . أصبحت بغنى عنها وهي الخنفساء البطرة . لست أريد ذبابة عضوضاً . أمرها بات بين ايدي القضاة العسكريين . وستلقى مغبة خيانتها !

وما برح يصلح معطفه ، وقد تفتقت ازراره في النضال . وبدا للسجّانة مقطباً ، شاحط الغضب ، متوتر الأعصاب ، فأدركت ما وقع من عنيف النزال . وآلم الضابط ان يعجز عن فتاة ، فاضطرت أم صبحي ، لاتقاء جموح نقمته ، ان تخرج فوراً بعفراء ، وهي تقول لها بنبرة التنديد الخشنة : أيجوز إحراجه بمثل هذه الشدة ؟ ... أيجوز ، يا ابنتي ؟

بيد ان عفراء كانت تتوجع ، وقد فار من جراحها الدم ، فلم تحفل بما تردد في مسمعها السجّانة . وما استطاعت إلا أن تنتحب . غير انها كانت تهدد في انتحابها بقولها : سيرى ما يلقى جزاء عملته . لن أسكت عن فحته في الاستطالة عليّ . سأشكوه الى قائده . ليس من حقه أن يحاول النيل من عفافي اذا اوقعتني الاقدار الظالمة بين يديه !

فشاطرتها أم صبحي دمعها ، وقد كرهت مثلها هذا الظلم . ولكن على مَ تقوى أم صبحي ، وهي المكرهة على الامتثال والانحناء ؟... فدفعتها الى السجن واغلقت بابه ، ونوري بك ينأى حثيثاً عن منزلها ، مختنقاً باخفاقه الطامس . فهوت عفراء في الزاوية ، وأخفت وجهها بيديها مسترسلة الى النواح . فليست تقع حولها على من ينجدها . وخشيت ان تتفاقم في غد المصيبة ، فتهوي في أحبولة تنتهي بها الى الحزي الماحي . عمها واخوها يقاسيان

من الاضطهاد ما تعاني . وابن عمها مجيد في الفيافي يكابد القهر والتشريد . كأن المنايا اقسمت على اطاحتهم جميعاً . وطاب لها الانتحار . فالموت اطيب مذاقاً من هذه الحياة الذميمة ، الاثيمة

ستنتحر وهي مالكة شرفها ، لئلا ترزأ ، في الغد ، بهذا الشرف الاثير لديها . فلن يسكت عنها نوري بك بعد كل ما لقي من صدوفها عن هواه . بل سيعيد الاغارة بما هو اقسى وأغلظ . فيدرك بغيته منها ، ثم ينبذ ضحيته التعسة كالقميص الممزق ، غير حافل بها . قالت وهي تصرف باسنانها هولاً : الموت افضل . فما يقعد بي عن الاستراحة في مطاوي الفناء ؟

ولم تكن تطيق أن تحيا مشوّهة العفاف ، وهي الممسكة على طهارتها ، كما يمسك المتعبد على تقواه . فثارت نوازيها ، تدهم روحها ازمة من كره وقنوط . ان الغرور في العدم لاشهى من عيش محفوف بالنكر والسفال

الجزء الثاني

بين علمين

١

الليل على وشك الانتصاف . ولم تكن سماؤه نيّرة . فهي قطعة من نسيج أغبر ، وقد توارت نجومها، وثقل هواؤها كالداء. وشُلّت كل حركة. فكأن الموت غزا الحي والجماد

وعفراء نفسها انقطعت في سجنها عن البكاء . فرفعت رأسها ، ونظرت إلى ما حولها ، فاذا كل ما يكتنفها سكون ، وظلام . بلى ، كان يعلو شخير أم صبحي ، ثم ينقطع ، كهدير الموج ، مترجحاً بين المد والجزر . وحاولت عفراء ان تخرق بعينيها الحلكة . وزحفت على مهل ، تبحث عن حبل أبصرته ، في النور ، بجانبها . غير أنها ما اهتدت اليه . فاجتهدت في البحث عنه ، بلا جدوى . قالت : ربما اخفته أم صبحي . ولكن أين ؟

ولم يكن الناس في حرب ١٩١٤ يعرفون في الليل النور . فيبيت معظمهم في العتمة . فالنفط لا أثر له . والزيت باهظ الثمن . واضطر حتى ذوو اليسر الى السُرج يستضيئون بها ، كأن الناس تقهقروا الف سنة عن

ركب الحضارة الحثيث الانطلاق

والكبريت توارى . فلجأ القوم الى قدح الزناد . وأم صبحي ، مع اضطرارها الى إثارة السجن ، لم تكن ذات سخاء . وطال بحث عفراء عن الحبل . فهي تروم شنق نفسها قبل أن يبلغ نوري بك تهديده منها . فيطرحها في المجلس العسكري تلقى فيه الهوان . وشمّرت في البحث . واذا بها تسمع صوتاً يناديها بهمس خفي. فارتعشت . من المنادي في بحبوحة الليل؟ وتراءى لها أنها تعرف الصوت. وجمدت مكانها تفتح أذنيها بحيرة وقلق. وودت اعلان اسم المنادي، فما تجرأت . أتصدقها أذناها النأمة ؟ ... محال. محال . ولكن بلى . هذا صوته . فغمغمت على كره منها : مجيد ؟

ودنت من كوة السجن تقول بهمس خشيان : من ؟ ... أنا عفراء !

ولاح المنادي لعينيها . فاذا هو نفسه . مجيد . ابن عمها . أما اخطأت باصرتاها ، وضلّت أذناها ، وما الصوت والطيف غير وهم عارض تساورها بدافع من ثورة هواجسها ؟

واقترب الشبح من الكوة . فلم يبق لدى عفراء ريب بانها إزاء مجيد حريز. قال الشبح : أنا ابن عمك. لا تضطربي. جئت لانقاذك ، وقد سقط اليّ ما انتابك . فما هي الحيلة في الخلاص ؟

فتنفست مغتبطة ، بل رقصت مرحاً . هذا مجيد بعينه . دنت ساعة النجاة . قالت وهي تغوص في فرحتها : تعال ، اقترب من الباب !

ومشت الى الباب على رؤوس أصابع رجليها . وخلعت عنها خاطر الانتحار . أتنتحر ومجيد على خطوة منها ؟ ... وامسك الباب من الداخل قفل متين ، حدثت عنه عفراء ابن عمها . فقبض مجيد على كلاّبة يحملها كي

يستعين بها على الأرب ، ودفعها الى عفراء من ثقب صغير في الباب قائلاً لها : اكسري القفل !

فخفق قلبها خفقاناً متعالي النبضات. وحاولت تحطيم القفل ، فلم تسعفها يمينها. واستفاقت أم صبحي ، وقد سمعت الحركة ، وهي نائمة يقظى. وسألت بوهلة : من ؟

فهدأ الحس ولم تسمع جواباً . فقلقت ونهضت تبحث عن السجينات . فما اهتدت في الزاوية الى عفراء . فنادتها باسمها : أيتها الآنسة عفراء ، أين انت ؟

وعادت تناديها باعلى صوتها . وهالها ان لا يقع في أذنها نأمة ، فكادت تتداعى . واتجهت عفواً الى الباب وهي تجسّ الجدران . واقتربت من عفراء المرتاعة ، الحابسة انفاسها لئلا تفضحها . وامسكتها وهي تصرخ بذعر : ماذا تفعلين هنا ، ماذا ؟ ... أراك تميلين الى خراب بيتي . لا ، لا ، يا ابنتي . كل شيء ولا هذه النية الفاسدة . اذا اشفقت عليك فلا تعمدي الى القضاء عليّ !

وقبضت عليها بجميع قواها . وجرّتها بعنف الى صدر المكان وهي تبربر وتلهث . فشعرت بان الموت يطويها ، وقد تراءى لها ان الفتاة سكنت الى الهرب . واجتهدت عفراء في اخفاء الكلابة لئلا تفطن لها السجانة . على ان مجيداً درى بما يتوعد ابنة عمه من خطر ، فلم يصبر طويلاً على المحنة ، بل رمى الى خلع الباب . والباب غير متين . فما ان دفعه بكتفه حتى هزّ مصراعيه . فصاحت السجّانة بصوت يموج فيه الهلع : إليّ ، إليّ !

فخشي مجيد على نفسه وعلى عفراء معاً . ودفع الباب بقوة أمضى ،

فحطم منه المصراعين . ودخل كالقوة الجائحة يستجلي بصوت صاهل : عفراء ، أين عفراء ؟

فهتفت ، بفرحة ، بحماسة ، بميل صيّاح الى النجاة : إزاءك ، إزاءك !

وبدا لها خياله ، فوثبت اليه ترتمي بين ذراعيه . فرفعها يروم الانطلاق بها . نسرٌ أغار على طريدة . إلا ان أُم صبحي، السجّانة ، ما برحت قابضة على عفراء ، صارخة : إليّ ، أيها الجند ، إليّ . يا لخراب بيتي . جاء من يقتحم السجن ويختطف عفراء !

وعلت زعقاتها راعدة، صخّابة . واقلقت سكينة الليل بالولولة المستغيثة . وأبت إفلات عفراء حريز ، وحياتها ، ومعاشها ، موقوفان على حراسة الموكولات الى يقظتها . وأحسّ مجيد بحرج الموقف . فإن لم يكن حازماً ضاعت عفراء . وربما ضاع هو نفسه . وجمع قواه وضرب السجانة على أُم رأسها . فسقطت الى الارض لا حراك بها ، كأن المنية اغتالتها . بيد أنها ظلت ممسكة بعفراء . فضغط مجيد معصميها حتى لانت الاصابع ، وانقذ ابنة عمه من القبضة المتكلبة . وألقى الفتاة الى ظهره وانسلّ من الباب يغيب في حالك الظلام . واستيقظت السجينات ، فخيل اليهن ان ملمّة نزلت بهن ، واخذن في الاعوال متفجعات . واسرع الجنود ببندقياتهم وحرابهم يستوضحون ما وقع . ولم يكن لمعقل النساء حارس خاص ، ولا خوف من هرب احداهن ، ولا من يغير عليهن بغية الاساءة اليهن ، او انقاذهن . وقصفت اصواتهن حافلة بالرعب : ماتت أُم صبحي . هجم عليها من سلبها حياتها !

فارتبك الجنود حيال ما يسمعون . ودخلوا السجن وليس فيهم من يحمل مصباحاً ، ولا عود ثقاب . وتاهوا في الدجنة . وما أضاءوا الا بعد لأي

سراجاً. وفزعوا الى الابريق يرشّون وجه أُم صبحي بالماء كي تستعيد صوابها، ان تكن مغمى عليها . واخذوا ينادونها ويقرصون رجليها وذراعيها . وضحكوا جميعاً وهم يبصرونها تفتح عينيها . وعلت صيحاتهم فرحين : الحمد لله ، عادت اليها الروح !

أما السجّانة المكدودة فتذكرت ما ألمّ بها واستفهمت بارتياع : اين عفراء ؟

وتلفتت العيون الى كل فرد من الافراد ، والى كل حجرة ، وزاوية ، فما سقطت على عفراء حريز . فهتفت أُم صبحي وهي ترتجف : هل فرّت ؟

فتمتم الجميع بقلق : من الراهن انها ركنت الى الفرار !

فلطمت أُم صبحي خديها ، واعولت واخذت تندب نفسها : يا خرابك، يا بيتي . اي حساب عسير سألقى ؟ ... نوري بك لن يغفر لي هذه الزلة !

وحلجت شعرها واندفعت الى الباب تلحق الهاربة . ولكن اين تلقاها في الحلكة المكتنزة ؟... ورقصت ساقاها لفرط قهرها . ووقف كل من حولها واجماً . بل تبعها الجنود يستقصون، فعادوا على فراغ يد . ليس في المسارب وعشة خيال ، ولا في الاصداء وقع قدم . ومال الجميع على الباب ينظرون في حالته ، فايقنوا أن يداً قوية حطمت مصراعيه ، واستباحت حرمة المعقل . أما القفل فما يزال سليماً . وجاولت العيون العيون ، على ضوء السراج الضئيل ، مستفهمة بدهش وغيظ : من الفاعل ؟ ... من المتجرىء ؟

وجهلوا المقدام . وأسرعوا فابلغوا نوري بك النبأ الهائل . وكان الضابط قد سمع الضجة ، فاستيقظ من غفوته . وما وضح له الامر حتى فار فائره، وساورته الحرقة. طعنته عفراء في كبده طعنة جائحة . لكأنها خلعت نياطه . وقبضت يمينه على سوطه وانطلق الى السجن وهو يشتم ويلعن،

وينهد الى تهشيم أول من يلقى في طريقه . قذيفة مدفع ثائرة عمياء. وبدت له أُم صبحي ، فما اشفق عليها مع كل ما يعروها من جزع واضطراب ، بل شهر سوطه الحانق ولسعها به لسعة أطارت الدم من جبهتها . فزعقت وهي تكاد تنقصف ألماً ورعباً : رحماك ، ما ذنبي ؟

فجلجل كالمجنون : ما ذنبكِ ، ايتها الخائنة ؟ ... أتستطلعينني ما اجترحت من إثم ؟ ... أتطير منك السجينة كالشرارة وانت راقدة كالصخرة ؟ ... يا عجوز الشؤم ، طاب قتلك !

وما انفك يجلدها بحنق ، بقهر ، برغبة في التشفي . فتساقطت عليها ضربات سوطه لاهبة ، ماحقة . وهدّ الضرب حيلها فباتت كتلة هامدة ، كالمخطوفة الانفاس . تقع عليها الضربة فلا تحس. واذا أحست جادت بأنّة متظلمة ، كأنها على حشرجة . فالغشيان عاودها . وابصرها نوري بك في نكبتها وما هدأ غليانه. فهو ثائر منتقم يريد سفك الدم. أتفرّ منه عفراء؟... إذن لقد نأت عنه الدنيا . وما انفك يدمدم على أُم صبحي ويرميها بفاحش القول. وما سكن. فالشتائم التركية عرفت في تلك الليلة مستواها الارفع. وانصرف كالنمر الجريح ، يودّ ان يهدم السماء على الارض ، ان يعضّ ، أن يذبح . وصاح بجنوده : أتفرّ وانتم هنا ؟ ... لا تعودوا إليّ الا وقد جئتموني بها حية أو ميتة !

وأمرهم بان ينقبوا عنها قلب الليل . فليس لهم ان يقفوا بين يديه اذا لم يسعفهم الحظ فيها . واقام في حجرته ينتظر وهو يغلي ويرتجف . ولكنه لم يقوَ على البقاء بين جدران اربعة ، وقد ضاقت به البسيطة باسرها . وخرج الى الفضاء الفسيح يتنشق الهواء ، وكل ما فيه على التهاب واضطراب .

وضرب الارض برجله وهدد. ورقب عودة جنوده يحملون اليه عفراء، عفراء امنية مهجته . أتفلت منه بعدما قبضت عليها يداه وكاد يمتصّها ؟

وكلما سمع وقع اقدام هتف : جاؤوا !

بيد انه لا يبصرهم فيزداد نقمة . وساءل نفسه ملياً : من أقبل يخطف عفراء ؟ ... أمجيد ، إبن عمها ؟ ... ولكنه في حوران . هل عاد ؟ ... أأحد أنسبائها ؟ ... من هو ؟

وأقسم على الافناء. جميع من يتصلون بعفراء بصلة المودة والقربى عليهم ان يبيدوا. من كبيرهم حتى صغيرهم. وزفر زفرة ودّ النوتيّ لو يؤتى مثلها، عند ما يبسط الشراع ، ولا تسعفه نسمة ريح

ومجيد حريز لم يرجع من حوران لانقاذ عفراء ، وهو يجهل كونها في السجن . بل رجع لانقاذ عمه ، وابن عمه ، وقد وصل اليه أنهما يعانيان في سبيله هول الاعتقال

والمكارون الزحليون في ارتيادهم حوران ابلغوه النبأ . وما كانت حوران في حرب ١٩١٤ سوى اهراء لبنان. فتتقاطر اليها القوافل في شراء القمح ، وتجود في احرازه بالاصفر الرنّان. نفد البُرّ في سهل البقاع فبحث عنه اللبنانيون في مهبع آخر، ليردوا به عنهم فتكات المجاعة العابثة بالارواح

ومجيد كان يلقاهم ، ويسألهم عن زحلة واهلها ، وعن اقربائه واخوانه . فعالنوه ، في ما ازجوا اليه من انباء ، ان الجنود العثمانيين امسكوا عمه ، وإبن عمه ، كرهينتين ، ريثما يقبضون عليه ، وأنهم ينزلون بهما من ضروب الجلد ، والتعذيب ، ما لا يطيقه حتى العجماوات . فآلمته الرواية ، ولوت فيه طلاقة المهزة ، فاستقصى : ومتى قبضوا عليهما ؟

فأبان المكارون : يوم انتقمت من الضابط العثماني وتواريت !

فتمتم بارتباك ولهفة : ولكن عفراء لم تحدثني عن هذا الاعتقال !

قالوا ، وقد غاظهم ان يكووا مهجته بما ندّ عنه : شاءت ان تكتم عنك النبأ لئلا تؤلم مهجتك . فهل تجهل حنان عفراء ؟

فاقلقوه . واستوضح بمضض : أيشدد نوري بك في تعذيبهما ؟ ... أما يشوقه سوى دنيء الانتقام ؟

فاجابوا باكتئاب : باتا لا يطيقان الوقوف . والتمست عفراء من كبار القوم في زحلة أن ينقذوهما من السجن ، وهما البريئان ، فما أجدى الالتماس ، مع حثيث الجهد في احقاقه . سيطرة العثمانيين تزري بكل انصاف !

فهاله الجور . وأكبر إخلاص عفراء في السكوت عن التبليغ الناخع . فلم تشأ إزعاجه به لئلا يستهين بابتغاء النجاة . وتولاه بحران اذهله عن نفسه . فأبى أن يتابع طريقه الى البادية ، وعمه ، وابن عمه ، يتعذبان ، لاجله ، في السجن .

انه لعلى أهبة لولوج الصحراء . ولم يكن وحيداً في الرحلة . فتعرّف الى جماعة من الدروز تروم شق الرمال الى موقد ثورة العرب ، ابي علي الهاشمي ، سيد الحجاز الهمام . ولكن ما سقط اليه عن عمه ، وابن عمه ، أهاب به الى العودة . سيرجع الى زحلة لانقاذ السجينين ، المعتقلين قسراً ، وما تلطخا بأثم . فاذا ادرك التوفيق انطلق بهما الى صفوف العرب ، وإلا استسلم الى العثمانيين ليعاقبوه عما يرونه فيه مجرماً ، ويفلتوا الرهينتين .

ولم يطلع المكارين على شهوته . سيرجع متخفياً الى بلدته ، فلا تقع اخباره في مسمع . ولن يدري به غير عفراء . واخذ يتبطن الليل ،

ويتوارى في النهار . وبعد مشقة كابسة ، أضنته في جسده ، وفي كبده ، بلغ زحلة ، البلدة الحبيبة الى نفسه . وانتعش وهو يصغي الى خرير البردوني ، ويشمّ رائحة الدلب والصفصاف والسنديان . وابتسم ابتهاجاً بمشاهدة وطنه . هنا يطيب له أن يقضي أيامه ، ويذيب انفاسه

وتلفت الى ما حوله لئلا ترصده عين واشية . ومشى على مهل يحاذر أن يخفق في مغامرته . ولكن أيرتاد زحلة ولا يبصر أمه المريضة ، المضطرمة شوقاً الى رؤيته ، فتضمه الى صدرها ، وتسمع صوته ، وتغمس أنفها في عنقه ؟

واعتزم أن يعرّج عليها . ومن العقوق أن يتجاهلها . ودلف اليها في الليل ، وليس من نجمة تنير طريقه ، والسبل تقفر من كل بصيص . وطرق الباب يتغلّف الظلام . فارتعدت الام الصائرة الى اللجّة ، واستوضحت بخشية : من ؟

وزعزعت صوتها المخاوف . فهو مثلها في وهن . فأجاب مجيد بنأمة خافتة : انا ، ابنك ، فلا تقلقي !

فصاحت بنبرة يعتلج فيها الذعر والبشر : مجيد ؟

وكاد يغمى عليها . واكرهت نفسها على الزحف الى الباب . وفتحت صدرها للابن الحبيب . فهوى مجيد بين ذراعيها ، واندفعت في تقبيله وهي مطروحة في الارض ، وقد ودت لو تنهض فتستمتع باوفى نصيب من العناق . وكانت تتمتم بين القبلة والقبلة : انت ؟ ... انت ؟ ... ولكن خيل اليّ اني لن اراك . تراءى لي اني سأموت قبل أن أضمك الى صدري ، وأشمّك ، وأسمعك . ما أعذبها من ساعة . مجيد ، كادت امك تموت وقد هجرتها .

كيف حالك، يا ابني، يا روحي ؟... أتكون بخير ؟... اين تثوي ؟ ... أيطاردك اللئام ، ابناء اللئام ؟ ... عشت وماتوا جميعاً ، يا حبيبي !

وتناهت في قبلاتها السخان . وسال قلبها في اسئلتها المتزاحمة ، وفي دعواتها السماح . فمالت الى الالمام بكل ما اتفق لابنها، لوحيدها. فليفض في الابانة ، وليقص عليها كل ما عرض له في اثناء غيابه عنها . قالت : وما عاد بك الينا ؟ ... هل عفوا عنك ؟

فما رغب في البيان . ما عاد كي يسرد اخباره ، بل كي ينقذ من يساورهما لاجله الظلم . الا انها امه . قال : جئت لدفع المكروه عن عمي وابن عمي . فليس لهما ان يتعذبا في سبيلي . أما يزالان في السجن ؟

قالت بجزع يخالطه اكبار الحمية : وقاك الله ، يا ولدي . أما تدري ما تكلفك العودة ، وما يقدر عليك الجهد ؟ ... ان القلوب لتنطوي على كرهك ، والصدور تضمر لك الشر . فما قادك الى النار ترتمي في جحيمها ؟

فأعلن بانفة : وما ذنب الابرياء كي يؤخذوا بجريرتي ؟

ورقب منها ان تحدثه عن عفراء ، فلم تفعل . وشاء أن يلقي عليها السؤال ، فتهيّب ، مخافة أن يؤلم أنانيتها . فيخيل اليها أنه يحفل بابنة عمه اكثر منه بامه . ولكن السؤال أحرقه . هو يريد ان يلقيه . قال وقد ازجاه بحيلة بارعة : ومن يأتي اليك ؟ ... ألا تعودك عفراء ؟

فأطلقت ضحكة مرّة وقالت : عفراء ؟ ... لا كانوا ، ساقوها امس الى السجن !

فصاح وقد رضّ قلبه النبأ الكافر : ساقوها الى السجن ؟

— نعم ، نعم ، يا سندي ، كما ساقوا عمك وابن عمك . وما قبضوا

عليها الا انتقاماً منك !

فاشتعل وهتف : يا للاوغاد ، أتكون عفراء في السجن ؟ ... وفي أي سجن ؟ ... أليس لك ان تدري ؟

وانتابه الضيم . ولم يجهل مصدر النائبة . ان يد نوري بك لتبدو بجلاء. فالسعي لاذلاله اهاب بالضابط العثماني الى التجرؤ على الحرمات. واحس مجيد بلهبة السوط تعود فتكويه ، وتدميه ، بل احس بنصلة تنغمس في صدره وتحزّ اضالعه . أيظل الضابط الغاشم بالمرصاد ؟

قالت الام الفرحى الحزينـة ، بصوت مهدود يغصّ بالالفاظ : هي في سجن المعلقة ، يا روح أمك . أقبل الضابط النوري بنفسه يقودها اليه !

وشخص لها ان نوري بك ضابط من فئة النوَر. فصاح مجيد وفي عروقه تحتدم ثورة : وهل قادها بنفسه الى الحبس ؟

فأعلنت وهي تتأوه، وقد عزّ عليها الكذب: هو من قادها ، يا ولدي !

فارتجف ، وهدر بألم صاعق : وما هي جريمتهـا ؟ ... أيستحل النذل هذه الموبقة؟...وماذا كان من امها ؟... ألا يكفي ان اخاها يعاني، ظلماً، اهوال الاعتقال ؟

وامها دون امه في فتور همتها . فلا تجلس ولا تنهض ، وقد باتت ، على رغمها ، ضجيعة الفراش . فتولت عنها ابنتهـا امر المنزل . على الابن نجيب الكسب، وعلى اخته عفراء تدبير شؤون البيت . ولكن الاثنين اصبحا رهن المعقل ، فمن للام البائسة ، المقعدة ؟ ... أف لهؤلاء العجائز كم تغير عليهن الشدائد وقد هان فيهن العزم !

وخاف مجيد على ابنة عمه من الضابط العثماني . فما ساقها نوري بك الى

السجن لسوى نية وبيئة. وما تشفّ عنه هذه النية، من كاسح الويل، سلخ من مجيد كل حذر. فصدف عن امه، الطامعة في ان تستبقيه بين ذراعيها، وتراجع الى الباب يود لو أُوتي القدرة على بلوغ المعلقة في رفّة جناح. واستنبأت امه بجزع: الى اين؟

فاجاب بصوت ناقم، ناتىء: سأعود!

وخرج دون ان يسمع نداءها المتفاقم يهيب به الى العودة. وخشيت أن يقع بين أيدي الجند، فاستعاذت بالله. ولقد هفا مجيد الى جارة عفراء، لا الى امها الضائعة عما حولها، يستوضحها الخبر اليقين. ربما جهلت أُمه ما اذاعت في اذنيه. ودهشت الجارة وهي تراه، والليل قد جنّ. وخطر لها انها واهمة. ففركت عينيها لا تجرؤ على لفظ الاسم. ولاحظ عليها ارتباكها فقال ينفيه عنها: لا تقلقي. انا هو بعينه. مجيد، ابن عم عفراء. جئت اسأل عنها. فأين تكون؟

فاطمأنت وقد ايقنت بكون عينيها لم تخدعاها. على أنها ودت ان تعلم كيف عاد من البوادي. واستبطأ بيانها، فاستفهم بالحاح: لم تطلعيني على مقر عفزاء!

فبدت فيها اللوعة وقالت: سار بها اول من امس الضابط نوري بك الى معلقة زحلة!

وظهر فيها انكسار البال. فصرف مجيد باسنانه وعاد يستجلي: هل جاء اليها النِكس في منزلها؟

— جاء اليها وخاطبها بما لست أدري ما هو. وما لبث أن دفعها أمامه غاضباً، لا يكاد يجيز لها ان تقفل على امها الباب!

– ألم تعلمي ما حادثها فيه ؟

– ارتاد منزلها مرتين. ووضح لي منه، على أثر الخلوة الاولى ، انه رام امراً فخيّبته فيه !

فسطعت الحقيقة لعيني مجيد ، وتمتم باستشاطة صاخبة ، تستطير حقداً وألماً: يا للص . واين هي الآن ؟

– في المعلقة . وقيل لي إنها في محبس النساء !

فاكتفى لا يبتغي زيادة ايضاح. نوري بك اشتهى عفراء ، فاقصته عنها . فعاد اليها يطمع عنوة في الاستئثار بها ، فصدّته بإباء ، فجرّها الى السجن . وارتعد مجيد وقد ألهب ذهنه الخاطر القاصم. وخشي بلوغ المعلقة بعد فوات الاوان . فطار اليها شرارة لهوماً تصبو الى ذريع الانتقام. اذا خانته عفراء قتلها . واذا غدر بها نوري بك اودى به . على ان عفراء لن تخون . انه ليعرف مبلغ إخلاصها . وأبى الارتياب بها وهي مثال الطهر النصيع . ولم يكن يجهل محبس النساء في المعلقة . وما السجانة ، أم صبحي، سوى زوجة احد المشتغلين في بساتينه . فلن تقف عقبة دون خلاص عفراء

وطاف حول المحبس ليتبين حالة المكان . وسرّه ان لا يقوم الحراس على ذلك الكوخ الغائر في الصلصال . ونادى بهمس خفيّ : عفراء !

وسقط نداؤه في مسمعها . واسرعت في الجواب . فايقن أنه اقبل في الموعد . فما تأخر ولا ضلّ . واطمأن وقد انقشعت عنه شكوكه . فلو جنحت عنه عفراء لكان مثواها الجنة ، لا السجن . وانقض على المحبس وانقذها بقوة ساعده . ولم يحملها الى منزلها وهو ينجو بها ، ولا الى منزله ، بل تسلق واياها الكروم . هما فيها بأمان . وجلس بقربها ينعمان بمتعة

السلامة . وخاطبها باشجى بيان . فاصغت فيه الى غزل الهائم المشتاق . وحدّثها عما لقي في البعد عنها من قلق واسى ، وعما أصابه في شروده من تبريح . وأصاخ الى زفراتها وحسراتها . وكاد يضيع صوابه لما ألقت رأسها الى كتفه ، واطلقت أنّة طويلة كالمتعب المرزوء ، وغمغمت بنواح : لكمني . ولسعني بالسوط . ومزق ثوبي . وطرحني في الارض !

فكأن اللسعة نزلت به . وهدر وكله أوتار تثور : هل تجرأ اللئيم ؟... ما عرفته غير وغد !

فمضت في شكواها تقول بصوتها الباكي : جلدني وأدماني. ففي وجهي خدوش ، وفي رأسي كلوم . وما أبقى في وسعي على همة وقد بات جسمي ملعباً للرضوض !

فتراكمت نوازيه حتى بات منها في غليان الجحيم . واستفهم بصوت يموج لظى : وما رام المجرم بتهشيمك ، ماذا ؟ ... هل ...

وهاله الافصاح . الا ان عينيه اذاعتا سؤاله . فأجابت عفراء بألم المجهود: شاء أن يفصلني عنك !

— وهل ملك النذل القحة ، فتجاسر على ابداء الرغبة الكفور ؟

— ووعدني بالزواج ، وبالتنصر ، اذا رضيت به !

فودّ لو يرجع الى المعلقة . فيقف من نوري بك وقفة الديان . ويختلس ايامه . وما صانه من ذلة ، كأنه لا يستطيب فيه غير المحو القشوش ، وقد ضاق به ان يستبقي منه ذرة من هناءة وكرامة. ولكنه رهب سوء المغبة. ربما لن يسلم ، ولن تسلم عفراء. واستوضحها وهو على صبوة الى خالع الانتقام : وماذا كان جوابك له ؟

فابانت وما زالت تئنّ : جراحي تنبئك بالخبر اليقين !

فضمها الى صدره إكباراً واجلالا . انها للاخلاص المحض . وقال يمعن في الاستجلاء : وما هي حجّته على المسير بك الى السجن ؟

فاوضحت ، وما تسعى لملامة : وقع بين يديه كتابك اليّ !

– كتابي اليك ؟

– لست ادري كيف اهتدى الى تلك الرسالة ، وقد ازجيتها اليّ من حوران . فوافاني متوعداً . ودعاني الى قراءتها ويمينه تقبض عليها ، وفيها ما فيها من صريح الاقرار !

فقال بلهفة ، وكأنه يسائل نفسه : هل باعني المكاري الزحلي ؟

ولعن كل خسيس. أفليس في البشر من يملك انتفاضة من مروءة ، نضاضة من معروف ؟ ... قالت عفراء : قد يكون اتفق للمكاري ما اكرهه على القاء الرسالة بين يدي نوري بك . وهل تجهل ان الحراسة قائمة ، وان الشبهة تتناولنا جميعاً ، وكلنا في عرف القوم اعداء السلطان ؟

فقال وما برح شعلة تتقد موجدة : ربما . ربما ، يا عفراء. على أن الناس في معظمهم حيتان لا ذمام لهم . أما وقـــد كتبت لك النجاة ، على رغم الافاعي المتطايرة الفحيح ، فلننظر في امر عمي وأخيك نجيب !

قالت تستفهم : وماذا تنوي فيهما ؟

فهتف بحماسته الفيّاحة : هل من مطلب غير الانقاذ ؟

فارتابت بقدرته على تحقيق المعجزة الخارقة ، وسألت برهبة : أتستطيع ؟ ولم تؤمن بسهولة البغيـــة الحافلة بجسيم العقبات . هل تكون جميع الابواب هينة عليه ، فلا يهي دون حائل مهما تعاظم ؟ ... قال لا يعتـدّ

بنفسه : سأحاول . وعلى العناية الراحمة الاتكال !

فخافت عليه من مصادمة النوائب بلا ونية . وقالت تثنيه عن المجازفة : ولكن الجند يطاردك في كل ناحية !

فاعلن بمضاء ، وقد سخر بالشدائد الواقفة بالمرصاد : لن أبرح زحلة وعمي ، وابن عمي ، يشقيان لاجلي !

فارتاعت . أينهد الى تدويخ المستحيل ؟ ... وهتفت والالم والهلع يطغيان على مهجتها : صن نفسك من الغوائل . فلسنا باضطرار الى السقوط في الحفرة بعد الخلاص منها . لا خوف على عمك وابن عمك بمقدار الخشية عليك . نوري بك يريدك وحدك . وجميع من تضمهم زحلة من عثمانيين يريدونك لينتقموا منك . وعمك وابن عمك لا تبعة عليهما . فهما في السجن كرهينتين ، ولا بد ان يخلى ، بعد لأي ، سبيلهما ، وقد يئس الظالمون من استدراجهما الى البوح بسرك . فهل يسجنونهما حتى الممات ؟

فما اقتنع بمنطقها . إنها لتشيح به عن المقدور عليه حيال من يتعذبان في سبيله . قال : أليس من العار عليّ ان اراهما في السجن ، يكابدان لاجلي الضنى ، وان أتخلى عنهما كالساقط ، الدنيء ؟ ... أما من فضلة من حمية ؟ ... آه كم جرّت لسعة السوط من وخيم الذيول !

فابانت تميل الى درء هواجسه : لا عار عليك وانت تتماسك عن المحال . أيكون المفروض عليك ان تجود بنفسك ، وكلنا يبذل وسعه لانقاذك ؟ ... هما يغفران لك هذا التخلي ، وفي بقائك في هذه الديار هلاكك . لنرحل !

فتمتم بارتباك واسى : إنك لقاسية ، يا عفراء !

فافاضت بشدة تتلهف : حرصي عليك يحملني على هذه القسوة . لنبتعد

عن فوهة الخطر !

فرفض . أيندد بالسفال ويجترحه ؟ ... ونبر : وماذا يقول عمي وابن عمي وقد تقاعدت عنهما في ناخع الملمة ؟

— كن على يقين أنهما لن يتفوّها بكلمة امتعاض وعتب !

فما وافقها على ما تذيع . إنها لتصمه بالنذالة وهو يغضي عمن يشقيان للتكفير عن خشونته . قال بلهجة عاتبة ، مرّة : أتريدين لابن عمك هـذا التقهقر في الوفاء ؟

فعمدت الى التهديد ، قائلة بعناد : اذا طاب لك الاصرار على انقاذهما فسأكون رفيقتك في المغامرة . وللجنود العثمانيين ان ينتقموا مني ويعيدوني الى المحابس المظلمة ، النتنـة . ولست ادري ما يكون عندذاك من نوري بك فينا !

ولم يلمس في كلماتها التهويل . فهي عازمـة على اقتحام المهالك مثله . فهتف يستغيث بها منها : لا تحرجيني . دعيني شريفاً حيال انسبائي . ما ذنب عمك وأخيك كي يعانيا الاهوال بين ايدي هؤلاء المناكيد ؟ ... هل ضربا ذاك النوري ؟ ... هل خمشا وجنة الفجر بزهرة ورد ؟

فما انفكت تردد الكلام نفسه . اخوها وعمها لا خوف عليهما وهمـا بريئان . فالخوف عليه وحده . والا فهي شريكته في اقرار تدابير الخلاص . وانتهت الى اقناعه بان القوة في النجاة ، في البقاء . فقال وفي قلبه غصة : عفراء ، غلبتني على امري !

وانتابه صمت أليم . قالت : علينا ان ننصرف . فالخطر يتهددنا معاً . لننهض ولنسكن الى الفرار !

– إلى اين ؟

– الى حوران !

– دون أن أرى أُمي ؟ ... ودون ان تبصري امك ؟

– دون ان نراهما والجند يرصدنا بالباب !

فتأفف وقال متبرماً بنفسه : أنبلغ في الغلاظة هذا المبلغ الدون ؟

– امك لن ترضى بان يقبض عليك العثمانيون ويسلبوا حياتك ، وأمي تحت رعاية جارتنا !

فاشتد به التأفف . سيبصر أمـه . وتمرد على كل ذعر . وكفر بكل حائل . لن يكون زريّاً في عين نفسه حتى آخر امد من الجبن . واستهان بنصيحة عفراء . ووثب الى زحلة في حلكة الليل شبحاً مستميتاً في اداء ما عليه، لا يبالي مفاجأة القدر الغدور ، الواقف في كل خطوة لاعتراض ذوي السعي. ولحقت به عفراء تمسك به عن شهوته. فما اعارها سمعاً. وبلغ المنزل بهمة غلباء . واوشك ان يدخله . ولكن الحراب العثمانيـــة تطوّق بيته كالسور العالي . فايقن مجيـد ان اقتحام اشداق الويل ويل . صدقت ابنة عمه. وتراجع وهو يبلع ريقه مهمهماً في اذن عفراء : طاب النزوح . الخطر جاثم في العتبة . فلنعجل في الانصراف !

وانسابا الى السهل يتجلببان بسفعة الليل ، ويده بيدهـا . ولقد خاف عليها اكثر منه على نفسه . وربما جبه الخطر لولاها . ومن السهل نفرا الى دمشق . ومن دمشق الى حوران . رحلةٌ شاحطة مكتوبة عليهما للخلاص من الظلم الطحون

ومن حوران كتبت عفراء رسالة الى اسقف زحلة توصّيه خيراً بعمهـا

واخيها ووالدتها ووالدة مجيد . وتذكر له وعد القائد العثماني ، المقيم في تل شيحا ، للاخ حنانيا . والاخ حنانيا وقف على الرسالة وقال : حدثته عن الرهينتين . ويبدو منه انه لان . فلا يرى من جداء في المضي في حبسهما ، ومجيد يتيه في متباعد الآفاق !

فقال الاسقف : عُدْ اليه وحدّثه عنهما . ربما نسي !

فاطاع الاخ حنانيا ، وهو اللين العريكة ، الساعي للخير ، المؤمن بان الابواب مهما عزّ ولوجها فلن تقفل دونه . ودرج الى تل شيحا بمرحه ، ومباسطته ، وله من وجهه الضحوك ما يعينه على النفاذ ، بلا مكدود جهد ، الى عصيّ الالباب . وما كاد يظهر في حضرة القائد العثماني حتى ابتسم له القائد ، وقال بمستفيض البشاشة والايناس : مرحباً بخنانا افندي . خيرٌ ان شاء الله !

وبسط له يده مصافحاً بشدة دلت على صفاء مهجة . فقال الكاهن في نفسه : ان النهزة لموفورة . وعليّ باغتنامها ما دام الرجل على انشراح !

ودعاه القائد الى الجلوس . وتبازيا في اهداء لفائف التبغ بعضهما الى بعض . وجيء بالقهوة والاخ حنانيا يفيض بالمزاح . فيقهقه القائد راضياً عن ساعة البهجة . ان « المحترم افندي » للطيف الظل . وبعد دقائق طويلة ، صاخبة بضحكاتها ، ايقن فيها الكاهن المفاكه بانه مهد الى ملتمسه ، قال برقة في الصوت تشيع فيها الكياسة ، وتحفل بالاستدراج : لا ريب ان سعادة القائد ما يبرح يذكر وعده لي في صدد نجيب حريز وعمه !

وشفع كلماته ببسمة ترجو ، وتثق بانها لن تخيب . فهتف علي رأفت بك مستوضحاً : أتتحدث عن الرهينتين ؟

– نعم ، يا مولانا ، وقد حان لعطفك ان يشملهما !

فاذاع القائد بلا ابطاء: حاجتك مقضية، يا « خنانا افندي » . ساخاطب الساعة نوري بك بالهاتف كي يطلقهما من الاسر !

وفعل. وشاء نوري بك الاعتراض، وهو المحترق القلب حسرة على عفراء، فاعلن القائد بشدة : يكفي مـا اصابهما ، يا نوري بك . لو كان من امل بالوصول الى غريمك لقبضنا عليه . مع اننا سنوالي البحث عنه . اما هذان البريئان فما ذنبهما ؟ ... هبهما لي !

فغصّ نوري بك بريقه . ودهمته مرارة ممضة . وردد بينـه وبين نفسه اسم عفراء . غير انه اضطر الى اخلاء سبيل الرهينتين . فبرح نجيب حريز وعمه السجن على متداعي الرمق . شبحان هزيلان ، شاحبان ، يقبلان من الآخرة . ولم يشأ نوري بك ان يلقي نظرة واحدة عليهمـا ، وقد آضاع ، بنجاتهما من محبسهما ، مجيداً وعفراء . ومما أسف على إفلات مجيـد بمقدار لوعته على ضياع عفراء ، فاتنته . فلم يغب عنه أنه لن يلقاها ، وأنهـا نأت عنه الى الابد . وثبت لديه أن ابن عمها مجيداً أقبل من حوران وفرّ بها . ومما أوجعه ان لا يستطيع إبلاغ قائده حبسه إياهـا ، ثم فرارها . فطوى الامر كأنه لم يكن . إلا أنه ما برح يبدي الجزع على فقدها ، ويقول بحزن ونواح : عفراء ، قتلتني عفراء !

ويشكو الى نفسه لوعة الهوى الخائب . ويقضي ساعات طويلة في غشية ساحقة من الذهول الاسيان

٢

سهول حوران شاسعة الآماد . تبدو للعين في استوائها كالقاعة الرحبة ، الزاخرة بنفائس الرياش . فالبساط يتلو فيها البساط . والاخضرار آية من آياتها ، وقد نفحتها الرحمة بالخصب ، فتناهت في العطاء .

والمجاعة الناشبـــة الاظفار في سوريا ولبنان ، وخصوصاً في لبنان ، وهبت للقوم الثروة . فازدهرت زراعتهم ، وعرفوا الاقبال ، وقد باعوا باربعين ما كان يساوي اربعة ، وناموا على الذهب ، بعدما كانوا يفترشون التراب. فتدحرجت في مضاربهم الدنانير كمنصبّ السحائب السحاح. كأن النضار ما اصطفى موئله في سوى هاتيك الاكوار

وارتاد يومذاك حفل من اللبنانيين سهول حوران يعيشون فيها بمشاطرة قومها الحراثة والحصاد. وتزيوا بازياء بنيها، واقتبسوا اللهجة والعادة . ومجيد وعفراء، وقد بلغا حوران ، اعتمدا على زيّ القوم ولهجتهم كي يضيعا فيهم ، فلا يدري بامرهما احد، وان يكن رجال الامن هناك على ضؤولة واستخفاف

وبحث مجيد عمن اتفق واياهم على بلوغ الحجاز ، والانضمام الى جيوش الثورة العربية. ثورة الحسين بن علي، شريف مكة، وقد لقيت في جميع اقطار العرب التأييد والاكبار. فالاثرة المتعاظمة في العثمانيين ، وتنكيلهم بالعرب، طلاب السؤدد الحر ، اهـابا بالسواد الاعظم من العرب الى التماس خلع النير . فالتحرر من القبضـة الضاغطة بات المرتجى الطاغي على الارواح . فليس للعرب ان يذلوا ولهم في مراقي المجد وثبات أبيّات

وحوران ما خلت من هؤلاء الساعين الى الحرية للسجود في محرابهـا .

واهتدى مجيد الى جماعة منهم فقال مستوضحاً : متى يكون الرحيل ؟

قالوا ، وهم له على أهبة : ساعة تشاء !

فاشار الى عفراء معلناً : وابنـة عمي ، ماذا افعل بها ، وليس بوسعها اجتياز الفيافي ؟

فابان عامر الطفيل، وهو من دروز صرخد الاشداء ، المفاخرين بكونهم من صفوة العرب الابرار : تقيم بجانب أختي نفيسة . أختي ستبقى وحدها في صرخد ، بين ابناء عمي واهلي . فمرحباً بعفراء ، اخت اليعافير والآرام . والله ، يا مجيد، يا ابن عمي ، أما تذكر بها الصحراء ، معتصم العرب الاباة ؟

ونفيسة في عمر عفراء . ذات سمرة حادة ، منشورة العذوبة ، وقوام رهيف ، ميّاس ، كأن في هيفها لدونة الخيزران . ومع كونهـا لا ترتع في جمال عفراء، فما خلت من نغشة الحسن. عدا أن لها من ذكائها خير شفيع، وهي فيه من اهل النظر . ونشطت لمرأى الفتاة الزحلية . وخيل اليهـا ، لدن ابصرتها ، ان في الروحين اجتذاباً ، كأنهما ليستا غريبتين بعضهما عن بعض . وابتسمت احداهما للاخرى ابتسامة المودة، كمن تقيمان على بعيد معرفة . وفي الضمائر اشواق راكدة ، لا تستفيق بسوى ميعاد . قال عامر يوّصي بها اخته : كوني لها نسيبة ، بل شقيقة . ولا تبخلي عليها بقرص العسل ، ولا بآخر قرش في الكيس . فهي منا . أخوها يسير وايانا الى مقاومة البغاة . وانت تعلمين ما لقينا من عسفهم . جـدك تدلى على اعوادهم ، وهو ينصر يحيى الاطرش على قائدهم سامي الفاروقي . وابوك مات في سجن دمشق ، لكونه مانع في الانحناء لغطرسة ألوالي الذميم. هذه اختك، يعهد فيها اليك اخوك عامر. فاذا كنت تحبينه، فعليك باكرام الضيفة النازلة بيننا. عفواً ،

بل ربة الدار !

فابانت نفيسة، وهي تنظر الى عفراء حريز باعجاب المؤمن برفعة الخلق، ووضاءة المنتمى : لن افرق بينها وبين نفسي. فهي في المنزل سيدة المكان. لها الرأي المسموع ، والكلمة القاطعة . فاذا جار علينا الدهر فسنبذل من اكبادنا ما نرد به كيده عنها . واذا اقبل عشنا واياها في مسرة ، نرقب عودتكم الينا وعلى مفارقكم أكاليل النصر !

فاشرق وجه اخيها ابتهاجاً بما يسمع منها . وما تمالك ان قال بزهوّ الفخر : زدتني يقيناً، يا اختي، بكونك ابنة رامح الطفيل ، سيد الفرسان ، وعنوان الاسخياء !

وخاطب عفراء بقوله : هذه دارك . فانت فيها على الرحب . سنعود ، باذن الله ، وفي أجيادنا من عقود المآثر الغرّ ما يبيّض الوجوه. فلن يخزى من يبذل روحه فدى امته . عاش العرب سادة سعداء !

واشعل لهبة الحماسة ، فاضحى سامعوه قذائف تتلظى . ما اسهل عليهم شق الصحراء الى من اطلق في مكة ، الرصاصة الاولى ، داعياً بها الى الكفاح . وما كانوا قلة من نفروا من الحورانيين الى استظلال لواء الشريف الثائر ، واستعادة العز المسلوب. فالهيام بالقتال فطرة في الدرزي، وكأنه لا يهوى غير الهيجاء. فاذا ما اتسع له الى خوضها ، فانى يحجم عنها، وهو فارسها ؟... عدا انه يذود بها عن عرضه، وما كان ليرضى الزحف في ركاب الاستعباد ؟

ولعامر جوادان . فامتطى أحدهما ، ووهب الآخر لمجيد ، وفي شفتيه قولة العطاء : انها لهدية العربي الى العربي . أرجو ان لا تصدف عنها ، ومن

حق اليد أن تقاسم اختها ما عندها !

ومجيد يعلم أنه في قوم يدينون بالفروسية والاقدام ، ولا يتنكرون للاريحيـة . فابتسم وشكر الجميل الغمر . فليس للكريم ان يتماسك عن عطية الكريم ، وللارواح المطبوعة على الندى إلمام بما يضنيها ، إذا ما لقي جودها الاعراض .

وعفراء عضّ الكمد جنانها . أيظل الدهر في خصام ؟ ... على انها لم تشأ اعلان اساهـا ، وهي بين قوم يهيمون على بكرة ابيهم بالبسالة . من شيوخ، وشبان، ونساء، واطفال. فسلمت امرها الى الله، وفي قلبها السيول الطوامي من منسكب الدمع. وليس لها ان تصارع الاقدار

ومجيد، قبل ان يمتطي جواده، خطا الى عفراء يودعها. وطابت له معانقتها على مرأى من الحشد، غير انه خجل من إذاعة حبه، واكتفى بان يصافح ابنة عمه النازلة جأشه. فهز يدها، وضغطها ضغطة حملت كل ما في قلبه من حنين، وكل ما في صدره من حفاظ. وكادت تلتقي الشفاه، وقد تحركت ليطبع بعضها بعضاً بقبلة الوداع، وربما بقبلة الفراق المتلاف. ولكن الحفل الحفيل فجعها بمرامها. وتحرق الحبيبان . أدمت ساعة التنائي الحشاشات . قال مجيد يغالب آلامه السخان : الى الملتقى ، يا عفراء !

وابتسم لها ابتسامة حزينة ، على حين شاء بها بثّ الامان . وانى تقبل زاخرة بالدعوة الى الامان ، وثمة مخاطر كامنة في كل صوب ، كأن الحيتان وثبت الى قضم الانسان ؟ ... وتجسد مضض عفراء فسال دمعاً على خديها يفضحها في الموقف العصيب . قالت وهي دون العاطفـة الهادرة فيها : الى الملتقى ، يا مجيد !

فكاد يبلى بدائها ويبكي . غير أنه تجلد ، وهو قاهر العناء، وقال يكره نفسه على المضي في الابتسام: سنرجع، بحول الله ، وفي أيماننا النصر الثمين. فلا تقلقك غيبة قصيرة الامد ، طافحة بالفخار !

فغمغمت من قلب مكدود : رفق الله بنـا وبك ، وكتب لك الفلاح والسلام !

فقال يدفع عنها البلاء الكاوي مهجتها ، وبه منه استفاضة : لن تطول الحرب ما دام العرب يناجزون الدولة العثمانية العداء. ابشري ، يا عفراء !

فاعلنت بوهن المتداعي ، والانفصال بدد مكين ذرعهـا : واني لاطلب الى الله ان لا تطول ، فأراك بخير ومناعة !

فاشجاه دمعها الكاتب في خديها بحروف من نار لواذع اشجانها . ليس يطيق ان يبصرها في غمّ ونكـد . وودّ الانصراف عنها لئلا يشتد بهما الالتياع . وتراجع الى جواده وعيناه في عفراء . واعتلى متن مطيتـــه ، وارتفعت يمينه يودع بهـا كل من حوله من المشيعين ، وهو يقول : ادعوا لنا بالتوفيق ، أيها الاخوان !

وصاح عامر الطفيل : أطلبوا لنا أن نلقاكم في أقرب آن ، وبغية العرب ان يملكوا الحرية . وما كانت الحرية الا منصورة اللواء !

فردد الجميع بصيحات منطلقة من الاعماق : وفقكم الله . وجعل اللقاء قريباً ، وانتم في نجح وأمان !

وامتزجت الدعوات بالعبرات . فالامل على وفر ، بيـــد ان الخشية على طغيان . فمن يدري ما سوف ينفث الزمن من فادح الغدر. وانطلقت الجياد من صرخد على بركة الرحمن. ومن سأل عن وجهها ، ممن طالت ألسنتهم ،

فجمحت بهم الى السعاية ، قيل له انها ترتاد السهول في غزوة . وما اكثر الغزوات في حوران، والقوم ابداً فيها على كرّ وفرّ . ومن علم الامر، من الكارهين للدولة العثمانية ، دعا للمغيرين بالنصر . ونظر الغلمان الى الركب المجتاز الفدافد الفساح وودوا ان يكونوا من القافلة . وتحمس نفر منهم للشريف حسين ، مضرم الثورة ، فاخذ يهتف للعرب الشوس، ولا يبالي . ولولا أن يسرع الى هؤلاء الهاتفين من يحذرهم من سوء المغبة ، لتمادوا في صياحهم ، وذاع النبأ يطرق مسامع العثمانيين ، وواويلاه من الانتقام !

وفيما الجياد تندفع في جريها الوثاب ، اخذ الفرسان يلوّحون بمناديلهم المعقودة على أسنّتهم. ووقفت عفراء تنظر الى الخيل تناطح الافق، والدمع لا يفتأ يصول في العينين النجلاوين . ووهت العزائم الصلاب لدن توارت الجياد ، كأن كابوساً لوى الحواني ، فسقطت عفراء الى الارض في رعدة وعياء ، وهي تغمغم : مجيد ، مجيد !

وتصاعدت هتفات الذعر من كل صدر . وهرعت نفيسة الطفيل تفتح ذراعيها لهذه الكابية الوكد، وتتمتم وقد تبين لها في الحرقة المستأسدة وميض من كلف : اختي ، لا تجزعي . سيعود !

فلم تجب وقد غارت في دمعها . قالت نفيسة : سيعود ظافراً ، فلا تقلقي عليه !

على ان العبرة لم تكن ترقأ . وأطالت شقيقة عامر الطفيل النظر الى هذه المسترخية في احتمال ملمة الوداع ، الصائرة الى الغيبوبة ، وازداد لها السر جلاءً. فحملتها الى صدر المنزل تنعشها، وتقيها شر الاغماء، مشفقة عليها من النازلة . وما نعمت عفراء باليقظة حتى مالت عليها نفيسة تقول بلهجة

خاشعة ، تكبر سمو الهيام : اختي ، أتحبينه ؟ ... أراه لديك اكثر من ابن عمك !

فعاود البكاء عفراء ، كأنها تؤيد ما صارحتها به نفيسة . قالت شقيقة عامر الطفيل ، وقد وضح لها اليقين : وهو حقيق بحبك . انه لزينة الفرسان. لا تخافي . سيعود ، والله !

واجتهدت في أن تجفف دمع هذه الولهى . وما ندّ عن عفراء أنها تمادت في التلهف، فاكرهت نفسها على حبس ذوب مدامعها. قالت نفيسة : البكاء امسى لا يجدي . فكل ما علينا أن نرقب أخبارهم بصبر جميل، وان ندعو لهم بالغلبة في النزال !

فهمهمت عفراء باستسلام الى المقدور : صدقت ، يا أُختي !

وتماسكت وجلست تفرض على نفسها التأسي . وجاءتها نفيسة بالطعام فلم تأكل ، ولا قبل لها بالغذاء . قالت نفيسة الطفيل تميل بها الى مغالبة الاشجان : تغلبي على الترحة، يا أُختاه ، والا ذهبت بك ، وباتت يد مجيد منك صفراً !

وخافت عفراء ان تتلاشى قبل ان يسرع اليها ابن عمها ، فاعتزمت الاعتصام بالهدوء والجلد . وابتسمت لشقيقة عامر وهي تغالب فيها الجزع ، قائلة باستئناس : سأعمل بنصائحك . فلن اجازف بدمعي . ان للدمع مواقف علينا ان نزدخره لها لنحسن بذله فيها !

واكلت . وحدثت نفيسة عن زحلة وبردونيّها ، ووواديها وصفصافها ، ودواليها وخمرتها . ولم تنس تل شيحا ، وعين البخاش ، ومأوى البيادر مثوى السادة الحكام . وما اغفلت امها المفلوجة. ولم تقوَ على حجب دمعها

وهي تروي حكاية هذه المقعدة . قالت تعتذر عن سكب ذوب شؤونها : عفواً عني، يا اختي، اذا اطلقت لمدامعي مداها، وانا أذكر امي . فلقد جنى عليها القدر، واسعفتُه في الاجهاز على روحها. مات أبي وانا صغيرة، وتولت امي تربيتي وتربية اخي تتعهدنا بجسيم حنوها . الا ان العياء هدّ ذرعها . فنزل بها الشلل ، واضطرت الى ملازمة الفراش . وتوفرنا على اعالتها . فيشقى اخي نجيب في التحصيل. واتولى تنظيم شؤون الاسرة، حتى اقدم مجيد على مخاصمة ضابط عثماني قبيح . لسعه بالسوط في تهمة كاذبة ، فردّ له مجيد الاهانة . وكأن اعصاراً من ويل هبّ علينا. فشتت شملنا واباحنا للهلكة ، وقد طارد الجند مجيداً . وعجزوا عنه ، فاعتقلوا اخي وعمي . ثم اعتقلوني . وقضي عليّ بان اكل امر الاعتناء بامي الى جارة لنا . ولكن ألا تذهب الحسرة بتلك المسكينة ، حين تلتفت الى ما حولها ولا تبصر ولديها ؟ ... أما تموت لهفة عليهما وهي على حفاف الرمس ؟

واطالت عفراء الانتحاب ، ونفيسة تجاهد في الترفيه والتخفيف . ان الرزيئة لشادخة . وروت عفراء كيف عاد مجيد الى انقاذها من السجن ، مجازفاً بنفسه. وافاضت في سرد حكاياته . وعادت اليها طمأنينتها وهي تتغنى بمحامد ابن عمها ، وبمكانته في بني قومه الزحليين ، وببطولته ، وحرصه على كرامته . فضحكت نفيسة. فاستفهمت عفراء مدهوشة : ما بك تضحكين ، يا أختي ؟

فاجابت باستئناس بما اكتشفت من بريق يشفّ عنه الحديث عن مجيد : الحب يلمع في مطاوي كلماتك . هنيئاً لك !

فاستوضحت عفراء ، كأنها تأبى ان تجاولها، دون سواها ، تهمة الولوع:

وانت ، ألا تحبين ، يا نفيسة ؟.

فتنهدت شقيقة عامر . هزت منها عفراء حريز وتراً شجيّ النغم . قالت عفراء : أرأيت ان الحب يعبث بالجميع؟... كلنا نقيم له من افئدتنا مسارح ، ونذهب له ضحايا. على اننا راضون باحكامه حتى في جوره علينا . ومن خلا منه فكأنه لم يمرّ في دنياه ، بل عاش فيها صفراً !

فأبانت نفيسة الطفيل وشفتاها تكتويان بزفرتها : اما انا فاني لمختلفة فيه جداً عن الآخرين ، يا أختاه . واحرّ قلباه مما ينا كدني ويخزيني !

فاستطلعت عفراء امر هذه الحسرة الكامنة في جوارح نجيّتها . أتشقى نفيسة في ميولها ؟... قالت بلهجة تنضح بالرفق : وكيف ، يا أُخيّتي ؟

وقصص المحبين تبدأ ولا تنتهي . قالت نفيسة وهي تتأوه ، وقد سنح لها بثّ شجوها : خُطبت منذ الصغر الى نسيب لي برح اهله حوران ، وسار في صحبتهم ، وحتى الآن لم يرجع . قيدني به وما تزال رسائله ترد عليّ ، وكلها تشير الى انه على العهد مقيم ، وانا اتقلب على لظى الاصطبار ، وما يلوح لي ضياء استدل به على غدي !

— وهل تحبينه ، يا نفيسة ؟

فأعلنت بحرقة : ولكني لا اراه كي اعرفه واحبه . وهل لي ان اعشق من لا ادري من امره الا انه خطيبي ؟... لكأنه السراب ، يا عفراء ، وحق خالقي !

— اذن انك لذات قلب خليّ !

فعادت تتنهد . لا ، هي ليست ذات قلب خليّ ، وقد احبت فتى آخر تريده ، ولكن اهلها لا يريدونه . والويل لها اذا عبثت بالمشيئة الصارمة .

فالخنجر يرقبها . وان لم يتكلم الخنجر تكلم الرصاص . والطرق المؤدية الى القبر لا تحصى، وخصوصاً في ديار لا تجيد سوى لغة العنف والقسر. فالاهل هم سادة الارواح، وقادة الافئدة. وما الاولاد غير فسائل تغرس حيث تشاء اليد الناصبة والمقتلعة ، كأن الارحام لا تلد غير عبيد تسوقهم العصا . واستوضحت عفراء باشفاق : أتتألمين ؟

فأجابت نفيسة بلوعة تعيث في القلب، والصدر، والفم ، وكأنها فيض مظالم : لا ، يا اختي !

على ان نفيها كان تأييداً . فهي تتألم حتى في مخّ عظامها . فلا تسلم جارحة من جوارحها من لذع الحرمان الممضّ . ومن يشتهيها للزواج فارس من فرسان الدروز الاشداء ، الا انه خصم عنيد لعامر الطفيل اخيها . فالاثنان لا يتفقان . وما الخصم من سوى اتباع الدولة العثمانية ، ومن المشتغلين بخدمتها. فانه لمن ضباطها الاكفياء، المرموقين. وتصادم وعامر مراراً يبلغان في الخصومة حدها الاقصى. الا ان الضابط لم يكن يجور على عامر الطفيل، وقد هام باخته نفيسة . فاذا ما ابدى حياله الشدة ، فان هذه الشدة مغلّفة بالرفق ، فتغضي في الموضع الفصل ، ولهبة الحب تستنكر الاذى

ولكن عامراً ، وقد احرجه مقام خصمه ، ودّ ان يقاتل العثمانيين، وان يعود من صفوف الشريف حسين برتبة ضابط، ليقف من خصمه موقف الندّ. وطابت له المغامرة ، فنفر اليها يغالب من يحلو له قهره . قالت عفراء، وما زال الفضول سيد النهمين : وهل يحبك من تحبين ، يا نفيسة ؟

فهزت رأسها . بمَ تجيب ؟ ... ان يكن صادقاً في ما ترى منه ، فانه لمشيّد لها في ضميره هيكلاً للتسبيح . وهو ذلك الصادق . وهي تأبى ان

يقال فيه انه يخدعها . فمضت عفراء تستقصي : أتثقين به ؟

فضايقتها هذه الاسئلة الخانقة ، وهتفت : اني لاثق به ثقتي بنفسي !

— ولماذا لا تكونين له ؟

— أما أبلغتك ان اهلي لا يريدون ؟

فزلقت عفراء بالدعوة الى العصيان دون ان تبتغيها ، مستفهمة بنفرة : وهل يكون قلبك تحت رحمة أهلك ؟

فاجابت نفيسة بصاهر الالتياع : بهذا يقضي العرف ، وافجيعتاه ، كأن لا قلب لنا !

وما انفك الدمع يضطرب في عينيها . قالت عفراء تجري في اثر فضولها الملحاح : وهل اتفق لك ان تجلسي الى من تهوين ، ويبثّ كل منكما الآخر اشواقه ؟

— لا ، فهو خصم اخي عامر . الا ان نظراته اليّ تدلني على مبلغ هيامه بي . ثم هو حدث عني صديقات لي ، واظهر لهن ما يتقد في صدره من حب لنفيسة الطفيل . ولم يكتم عنهن ميله الى عقد زواجه عليّ ، لولا خصومته لاخي عامر ، وخطبتي لذاك النسيب !

فشعرت عفراء بان مخاطبتها ذات اوصاب . وملكتها الشفقة عليها ، فقالت : هذا الحب الحبيس يضني . واني لمتوجعة لحالتك اكثر مني لحالتي ، يا اختي !

ولم يبق مجال لامساك الدمع . ففاضت به الاعين الاربع ودل على شقاء الروحين . كلتاهما تحمل قاصم البلاء . وجهلتا من على منهما ان تؤاسي الاخرى . غير ان عفراء شعرت بان عليها كضيفة ان تنشر على ابنة الدار السلوان . قالت : ليس لايمانك بحبك ان يزحزحك عن مبتغاك ، يا أُخيّتي ،

فكفكفي دمعك . ان الايمان لسلاح النفوس في قهر الصعب ، بل المحال. حبيبك سيكون لك . وقوة الهيام الصارخة فيكما ستزجيه اليك على رغم المناوئين . فلا تقنطي !

ومسحت بمنديلها دمع النجيبة الاسيانة ، واستجلت برقة : هلا حدثت في الامر اهلكِ ؟

فسألت نفيسة بغصة ضاقت بها انفاسها : ولماذا الحديث في الباطل ؟... اني لاعرف الجواب !

– أما خلوت بامك واطلعتها على ما يضيمك ؟

– ماتت أمي !

– مسكينة ، انت !

ولهجة عفراء نفسها كانت تثير الدمع . فالرأفة ملأت صوتها حناناً . واشتد بنفيسة البكاء فذابت فيه. وكل محاولة للوقوف بها عن النواح ذهبت ضياعاً . ونهضت عفواً الى خزانة للثياب في صدر المنزل وفتحتها . وجاءت منها بغلاف معطّر . وامتدت يدها الى قلب الغلاف واستلّت منه رسماً عرضته على عفراء ، قائلة بهمس حزين : هذا هو حبيبي !

وانه لرسم من تهوى، وقد شفّ عن ضابط مفتول الشاربين، عابس الوجه، يبدي الوقار مع ما يتضرّم فيه من غلواء الشباب ، وكأنه من القادة يأمر في جنوده في ملمّ عصيب . وعلا رأسه « القلبق » العثماني. ولمعت في وسطه قبضة مسدس لا تقل عنه عبوساً . وانتعل « جزمة » التصقت اعاليها بركبتيه. وبدت الغطرسة في وقفته . الا انه بهيّ الملامح مع قسوة نظرته ، لولا آثار في وجهه لداء الجدري . وما عابه قدّه ، وهو اقرب الى الطول

منه الى القصر . فهتفت عفراء تبـدي الاعجاب : اراه يعادل قبيلة . ممن جاءك الرسم ؟

فاوضحت نفيسة تذيع الاسرار في مسمع من استبدت بها شراهة الفضول : لهذا الرسم حكاية . اهداه صاحبه الى رفيق له. ورفيقه من اصدقائنا ، نتردد اليه كأننا من الانسباء. وكلما ارتدت داره وقفت امام الرسم اتأمله ، ولا ارتوي منه . فحدثتني نفسي بسرقتـه ليكون ابداً في متناول يدي . وسرقته ذات يوم واخفيتـه في صدري . واسرعت في الفرار لئلا يدري بي ارباب المنزل ، كأني سرقت كنزاً اخشى ان يلحق بي من ينتزعـه مني . وجئت به الى خزانني وانا أحس باني ملكت العالم . وكم من ليالٍ قضيت والرسم بين يديّ ، أملأ منه عينيّ ، واخاطبـه بالكلام الرقيق . صدقيني اني لقيت به بعض العزاء ، يا اختي !

فايقنت عفراء بان الحب المستولي على شقيقة عامر الطفيل حب منيع ، لا سبيل الى انقاذها منه . قالت : وما اسم هذا الحبيب ، يا نفيسة ؟

فابتسمت ، على حين لم يجفّ الدمع في عينيها ، وقالت : هادي محفوظ ، يا عفراء . أما يعجبك الاسم ، كما اعجبك الرسم ؟

فاعلنت عفراء بلا ونية : اسم جميل ، على قالب كميل !

قالت نفيسة متحرّقة : ولكن اخي عامراً يكرهه !

— والى مَ يعود هذا الكره ، أليس لك ان تدري ؟

فابانت اخت عامر الطفيل : كلاهما متشامخ ، يريد ان يكون في صرخد فتى الفتيان ، ولا ينثني !

— أيتنافسان في الصولة ؟

– هو ما قلتِ. غير ان هادي محفوظ، كما ابلغتك، يرفق بعامر لاجلي. اما عامر فلا يرفق به ، كأنه يريده للمقصلة !

ولم تقف نفيسة في الحديث عن حبها . فالدولاب دار . واصغت اليها عفراء وهي تقول في نفسها : هذه حال المحبين . كلهم يشوقه التحدث عن هواه ، وما يلذه حديث آخر . والغريب فيه ان يعتقد أن سامعيه يطربون لهذا الحديث مثله ، على حين قد يتأففون . ولا يمنعهم من ابداء التأفف غير المجاملة . آه من الانانية في الناس . أأكون اشبه بنفيسة ، أثير الملل في حديثي عن مجيد ؟... ولماذا اختلف عنها ؟... لا ، لن أتحدث عمن اهوى على مسمع من احد . ولكن أأستطيع ؟

وغنمت نفيسة النهزة العارضة وما انقطعت عن حديث هادي. كيف نظر اليها ؟ ... واين ابصرها ؟ ... وماذا شعرت به حياله ؟ ... وماذا قال فيها ؟ ... وما بدر منه من بطولة ؟ ... واضطرت عفراء الى فتح اذنيها لالتقاط البيان المدرار . هذا قلبٌ يتكلم . على ان خاطرها حام على مجيد. اين امسى ؟... هل اجتاز الحدود الى الشريف ؟... هل سلم من الخطر ؟... ليس الوصول الى فلوات الحجاز بالامر السهل. فمن مفازة الى مفازة. ومن عقبة الى عقبة . ومن ويل الى ويل . قالت تقاطع نفيسة: اين ترين اضحت القافلة ، يا اختي ؟

– في الازرق. سترقد الليلة في ذلك الجبل الاجرد، الوعر ، على كتف عمان ، ومنه تنتقل الى وادي السرحان ، وتتبطن البادية !

– ومتى تصل الينا انباؤها ؟

– كثيرون من ابناء حوران تطوعوا في جيش الشريف . والقوافل

بيننا وبين الصحراء متوالية ، فتحمل الينا الاخبار الصادقة !

وسكتت الاثنتان . عفراء ونفيسة . هـذه تفكر في هادي محفوظ ، وتلك في مجيد حريز. والمحبون ، على ثرثرتهم ، يستطيبون احياناً السكوت ليتحدثوا ، فيما بينهم وبين انفسهم ، عمن يحتل منهم الفؤاد .

والخلوة الى النفس اشبه بالحلم. الا انها ذات صلة بالواقع. فيغور الخاطر في وهادها ومعاميها الى حيث لا تدركه اجنحة طائر، ولا يشوقه ان تخلعه عنها عوابث المقلقات

٣

ما مات العرب . ولكنهم ناموا . ناموا أربعمئة سنة حتى كاد يطويهم البلى . من ١٥١٦ ، حتى ١٩١٦ . انها لرقدة تجاوز نومة اهل الكهف . فمن عهد السلطان سليم الاول ، حتى عهد السلطان محمد رشاد الخامس . وهي غيبوبة ازمنت ، واوشكت ان تذهب بالانفاس

وما قضى على العرب سوى تخاذلهم . فتشتت شملهم وعادوا كما نشأوا . قبائل قبائل ، لا يجمعها لواء . فاستأثر بأمرهم السلطان العثماني ، ونشر عليهم عزته . فأباحوا له زمامهم ، وهم مستوحشون من انفسهم ، فرادى ، كأنهم ايقنوا ان ايديهم تراخت في القبض على العنان

بيد ان هذا المسيطر لم يرفق بالأرواح . فجنح عن العدل يوزعه بالاقساط . ورغب في دولة يمتص خيرها ، ولا يطعمها كي تسمن ويظل يستمرىء ضرعها . وشعر العرب بالحيف ، وقد اشتد عليهم ضغط الكابوس ، فعلا انينهم . وما زال الانين يتعالى حتى نفخهم باليقظة . ولقد أمسى صراخاً ، فدمدمة ، فزئيراً لما تساقطت ، في ٦ نوّار ١٩١٦ ، خيرة احرارهم في ساح الاستشهاد . وما ثمة غير اعواد تتلوها اعواد ، كالاجداث المرصوفة في المقابر ، بعضها بجنب بعض . الا ان الاعواد ارهب منظراً ، واقسى دليلاً على فظاعة المنية . فان لم تكن عنوان قصاص طاحن ، فهي عنوان عسف فاضح . ولقد كانت عنواناً فاضحاً للظلم يوم تدلى عليها صفوة الانجاد

والشريف فيصل ، ابن الشريف حسين ، امير مكة ، شاهد بعينه ، في دمشق ، حماة العرب الاعلام يترجحون في الفضاء مشانيق مشانيق ، كالتماثيل

المرتفعة الى الملأ الاعلى، وقد أبت ان يقرّ لها في ارض الحسة قرار. وصبّ قلب الفتى الهاشمي الدمعة المخضّبة بقطرة الدم، لوعة على الاخدان والاعوان. ونهد الى جلاء النقمة. بيد انه موثق. فالكتاف العثماني مضروب على السواعد والاذرع. والقائد الأحمر جمال باشا يأبى عليه ان ينأى عن دمشق، وقد شمّ رائحة الكبريت المتطاير الشرر في ارض الحجاز

وبدا انور، القائد العثماني الاول، يجس النبض. هل مال العرب الى الانفصال عن جسم السلطنة؟ ... ان اولئك المتنكرين لاستانبول، نازعة السيادة من دمشق وبغداد، ليقلقونه، وما فتىء يلمس فيهم الحران. فهل زاد في نقمتهم التنكيل باحرارهم، فأوشكت ان تندلع النار؟

وما انور سوى حامل تبعة القتال. فلولاه لقنعت الدولة العثمانية بعزلتها، ولصانت نفسها من الانغماس في المجزرة الصاخبة، الجارفة الاشلاء، السافكة الدماء. ولكن حنين صهر السلطان الى سادة برلين نزع به الى خوض النازلة بجيش مفلول، وبلد مضطرب الاهواء، فناء بعبء الكفاح. وشقّ عليه ان يخذله العرب، بعد رفع سراتهم على الأعواد. فأقبل يروز الحالة، وفي يقينه ان لا بد من نبال حانقة تشحذها الأيدي العربية، لتسددها الى الكبد النخرة، فتزيد في البلاء

وانشأ في المدينة حامية موفورة العتاد لاتقاء الملمة. وعهد في امرها الى قائد ما كان في المتهاونين، وهو من البزاة

على ان الحسين بن علي لقي في البحر الأحمر الانكليز، وشكا اليهم طفاح الكيل، وضيم الارهاق. واستوضحهم هل له ان يثق بالنصرة اذا لجأ الى السلاح، ونادى بها ثورة لاتخبو لها نيران؟

والانكليز ما يبحثون عن سوى مؤيد من وزن الحسين ، له في العرب ماضٍ وحاضر. فاذا ما شهر السيف لقي وراءه جحافل من شاهري السيوف يدينون بهواه . ولكن الحسين راعه ان يجازف بابنه، وفيصل في دمشق كالرهينة، يتقي به جمال باشا فورة الصحراء. وما دعي هذا الابن الى المدينة ، ليصلح بين الحامية العثمانية والاهلين ، حتى انبثق ضياء التحرر ، واطلق الحسين صيحة الانذار ، فمادت لها الرمال ، كأن اعصاراً خضخض الفلوات

والسنة سنة ١٩١٦ ، قمة الموت والحياة. فيها تدلت زهرة العرب، في دمشق وبيروت، على الأعواد، ليصرخ نسور العرب، في مكة والمدينة، صرخة الانتقام . وما لذي حرمة ان يطيق الذلة . أفليس من حق سادة الامس، وقد تراكمت عليهم العوادي ، ان ينشدوا الخلاص ؟

وفي جوف الفيافي الغبر ، فوق منبسط من الرمل لا امد له ، وتحت منبسط من الرقيع لا انطواء له ، وقف ، أمام خيمة منصوبة في السهل ، عبدٌ أسود ينتضي السيف . عبدٌ كالمارد، مغموس في السواد كأنه الفحمة . وهو فحمة لولا بياض اسنانه المتنافر وسواد لونه. فتلمع ثناياه كلما كشّر او ابتسم . والتكشير فيه دراك ، والابتسام ضئيل ، كضؤولة الظلال في الصحراء

ولغته اللغة العربية. ولهجته لهجة أهل الحجاز. انه لمن العرب الأقحاح . وابى على الناس الدنو من الخيمة، كأنها الحرم. هذه خيمة فيصل بن الحسين، الشريف فيصل ، يد أبيه اليمنى في الثورة المعلنة . نادى بها الاب وتولاها الابن يجاهد في نصرتها . وملكه اليأس في تقهقره عن المدينة . غير انه ظل يجاهد. فلم يشأ ان يقال في العرب انهم اقدموا ، ثم نكصوا على كلال

وفي صدر الخيمة رجلان . فيصل والضابط « لورانس » الانكليزي . فيصل يسأل عن النجدات الانكليزية، و « لورانس » يتدفق بالوعود. سيجيء بالمدافع وبالرجال. فالانكليز عاهدوا على النجدة ولن يحنثوا. قال فيصل : انت ترى انني وحدي. ليس ورائي ما يزيد على ثمانية آلاف رجل . وماذا يستطيع هذا العدد النزر في جيش منظم ؟... لا تفضحوا عياءنا . فالفضيحة تخزينا وتخزيكم . فتضحك منا القبائل، وتقول اننا عاجزون . بل تقول في الانكليز انهم على وهن. ومن المحال ان تسير في ركابنا وهي تتهمنا بالعجز. وهذه قبيلة جهينة ما لمست فينا الضعف حتى أعرضت عنا . نقودكم تشتري الناس . بيد ان هؤلاء الناس اذا أحسوا بالتوائكم اعرضوا عنكم في ساعات الشدة، مكتفين بما نفحتموهم به من مال. اين المدافع ؟... فما يخيف العربي سوى قصفها. وما يحيي في قلبه الشجاعة سوى قصفها. فان تكن في صفوفه بعثت فيه الهمة . وان خلت صفوفه منها ، وملكها عدوه ، ذهبت فيه بكل مضاء !

و « لورانس » مؤمن بكلام الشريف فيصل. وهو نفسه ايقن ان المال وحده لا يكفي . فلا بد من توفير الاعتدة . قال : سأكتب الى القيادة العليا في مصر !

فأعلن فيصل بشدة وألم : عليك ان تسرع ، يا صديقي ، والا دهمتنا الخيبة. بوسع العرب ان يقاتلوا العثمانيين وان يدحروهم ، ولكن أيقاتلونهم بلا معدات ؟... لا ذخيرة لدينا ، حتى ولا بندقيات . وكيف تعيش ثورة لا اسلحة تعتمد عليها ، ولا ذخائر . نحن في حرب ، لا في جولة قنص !

وجيء بالقهوة. وفيصل يرتدي القمباز. ويلفّ رأسه بالكوفية. ويطوّق

هامته العقال . وتدلت اكمام قميصه الحريري المزركش بخيوط الذهب . وانتعل خفّاً . وجاراه « لورانس » في زيّه . فالضابط الانكليزي رام ان يكون عربياً محضاً

وكلاهما في ميعة الشباب. فيصل طويل، اسمر . و « لورانس » قصير، اشقر . وفي الاثنين مهابة وبهاء . وما يجهل « لورانس » لغة الضاد ، وقد اقتبسها في الفلوات ، قبل ان تنفث الحرب نارها . فتولى في « قرقميش » التنقيب عن الآثار . واختلط بالعرب . ووقف على لهجاتهم ، وعاداتهم ، حتى بات شبيهاً بهم . وما كان يروقه الا ان يندمج فيهم ويعايشهم . ابن جامعة « اوكسفورد » فتنته البداوة ، كأنه ، وهو الصامت ، يطيب له صمت الصحراء

وما ظهر في الحجاز الا ودولته تنتدبه للمسير في ركاب ثورة العرب . ولقد اطلّ وفيصل يعاني الهزيمة تحت اسوار المدينة . وجمعت المودة بين الرجلين، فتماثلا خلقاً، واتفقا ميلاً. وجاهدا في ادراك امنية، على رسوخ في الولاء والاخلاص. واخذا يمتصان القهوة وهما يفكران. قال « لورانس » ، وما تخفى عليه اسرار البادية : هل ورد عليك جواب عودة ابي تايه، زعيم الحويطات ؟

فأجاب ابن الحسين بيقين المؤمن بتأييد الأعوان : عودة سيأتي . اوفد اليّ ابن عمه، فكتبت اليه اني أبتغي مرآه. وانضمام عودة الينا غوثٌ أيّد، وفي الحويطات الالوف من الشجعان !

وعلت في المضارب ضجة . فنهض فيصل ووقف بباب الخيمة جازعاً ، مستفهماً : ماذا ؟

فأبصر فارساً مهيباً ، على متن جواد كريم ، يحييه بلهجة لا كلفة فيها ، صارخاً والابتسام ملء محياه : السلام على فيصل !

فرقص أبو غازي ابتهاجاً . عرف الرجل . هذا عودة نفسه . فهتف بوفور جذل : مرحباً بعودة . اهلاً ومرحباً بالصديق الأمين . اننا لنتحدث عنك الساعة ، كأنك في النواظر وقد ملأت الخواطر ، والله !

وترجل عودة . وبدا في هيكله من الجبابرة . ولاح في الخمسين ، او في الحبو الى الخمسين . وخطه المشيب . وطبعه الشحوب والهزال بطابعهما . انهما لعنوان الصحراء . واندفع اليه فيصل يصافحه بشدة ، ويعانقه بشوق . فهو بانتظاره . اذا سار بجانبه فازت الثورة وبلغت امانيها . قال : ولكنك ابطأت في المجيء ، يا عودة !

فأجاب سيد الفلوات ، وابتسامته المرحة لا تنأى عنه : على اني جئت . واني لألقي بين يديك امري ، وأمر قبيلتي . فافعل بنا ما تشاء !

وكانت عاطفة صادقة ، جيّاشة بالحفاظ . فهتف فيصل معجباً بالوفاء : عشت ، يا عودة . والله ، ما خطر لي الا ان اصغي فيك الى هذا البيان . اخوان المودة لا يعروهم تبديل . فالالفة الصادقة ابقى من الاحقاب !

واشار الى « لورانس » معالناً عودة باستيضاح المعجب : أتعرف أخانا ؟... والله ، ان تكن تقرأ في الغيب ، يا عودة ، عرفت المغوار . وهل لي ان انكر عليك قوة الفراسة ، وانت في من يتجلى لهم السر من وراء حجاب ؟

وابتسموا جميعاً . فقال عودة باسطاً يده لمصافحة الانكليزي الساكن المظهر ، اللطيف الطلعة : والله ، يا فيصل ، ما اراه من سوى جماعة الخيّال المطبوع على الاصفر الرنان . وابيك ، أليس من اخواننا المحرضين على

الاصطلاء بالنار ؟

وشاع الضحك . انها لمباسطة مريئة تزيد في مدى الوئام . قال فيصل يطري في زعيم الحويطات رهافة البصيرة : اصبت ، والله . هو منهم . واسمه « لورانس » . ذو بأس وفطنة . ويتكلم لغتنا . أتحب العثمانيين ، يا عودة ؟ ... قل ، بحياتي !

فصاح يبعد عن نفسه التهمة : أأنا احبهم ؟ ... ولكني لا اطيق ان ادوس ارضاً يقيمون فيها . نال امتنا من ظلمهم ما يثير الجبان . لا والله، ما احببتهم ، يا فيصل . واني لاتبرأ من كل من يرتبط بهم بصلة . أتحب من يريد لنا الفناء ؟

ونظر الى « لورانس » يقول: مرحباً باخي الوداد. اني لاقرأ في عينيك الزرقاوين سمو الارومة ، وصفاء الروح . ويسرني ان نتلاقى على صعيد واحد في مغالبة الجور. يميناً ، ما أردنا للعثمانيين النكد، الا انهم رمونا به . ومن حقنا ان نثأر لأنفسنا . هذه الضحايا المتساقطة منا عسفاً وامتهاناً ، ما ذنبها ؟... هل عكرت الماء ؟... اصبحت اكره كل ما هو عثماني . بربك، يا فيصل ، أيحلو للمظلوم عيش ؟

ومدّ يده الى فمه ينتزع بها اسنانه الذهبية ، ويعمد الى حجر فيدقها به وهو يقول بانفة وغيظ : هذه اسنان اهداها اليّ جمال باشا . فلا عشت اذا استعنت بها على ازدراد طعامي ، وهي من مال عثماني . كرهي لهؤلاء الطغاة يغلي في دمي ، يا ابن الحسين . فما اقدم ابوك ، وهو يعلن الثورة ، على سوى الرشيد السديد . ابو علي من نسل الكرام ، والله !

فاطربت البادرة فيصلاً . وتوطدت الثقة في نفسه بانضمام عودة ابي تايه

اليه . واستطلعه رأيه في رؤوس القبائل : والشعلان ، يا عودة ، ألا يكون منا ؟

فأبان سيد الحويطات : هو منا . الا انه لن يمشي بجانبنا الا وقد ايقن اننا ظافرون . سنعرفه يوم نمسي في دياره . لنمش الآن في طريقنا الى وادي السرحان !

واندغمت قبيلة الحويطات في رجال الثورة العربية . واضحى الثائرون عدداً راجحاً . وانهزمت امامهم الفلول العثمانية تخلي لهم البيد . وكل قبيلة مروا بها اقبل سادتها يعلنون التأييد . فما بلغت القوات الثائرة وادي السرحان ، الا وهي جيش لجب ، ترتاح الى مرآه العين

ووادي السرحان كئيب في ارضه وسمائه . يخيم على اشجاره الذبول ، وتنبو ارضه عن الخير . فكأنه في حزنه وعبوسه ملعب للشؤم . فلا يقطن فيه الا من غضب عليه القدر . ولا يحفل الوادي بسوى الافاعي. وهي فيه على اطمئنان . تسرح وتمرح ولا من مزعج . انها لسيدة المكان

وفيما الخيام مضروبة ، والثائرون يمنون انفسهم باحتلال دمشق في العاجل الوشيك ، واقصاء العثمانيين عنها ، اذا غبار يعلو في الافق . فهتف عودة : من المقبل ؟

وتعوّدت عيناه ان تخترقا الصحراء ، وتستجليا سطورها . وتناول الشريف فيصل منظاره وقال : كوكبة من فرسان العرب . الى اي قبيلة ينتمون ، يا عودة ؟

فاجاب ابو تايه : نحن هنا في جوار نوري الشعلان !

– أيكون هؤلاء من رجاله ؟

– ربما اوفدهم للترحيب بنا !

وانتظروا الكوكبة المتكاثفة الغبـــار ، الحثيثة الانطلاق . ومشى الى لقائها فريق من الثائرين يستوضحون امرها . وما دنت منهم حتى صاحوا بها : من القوم ؟

فاجاب السائر في طليعتها : فئـة من دروز حوران ، جاءت تقاتل في جيش الشريف فيصل . فأين الشريف ؟

وكلهم شاكي السلاح . فارتفعت الأصوات باغتباط : مرحباً بالأنصار ! وترجل الفرسان . وألقوا بين أيدي الثائرين جيادهم واسلحتهم . وحبوا الى ابن الحسين ينحنون بين يديه . قال السائر في الطليعـة : نحن ، ايها الأمير النبيل ، من دروز حوران . سمعنا بالثورة العربية فأسرعنا ننضوي تحت لوائها ، ونسخو عليها بكل ما اوتينا من همة . وجلّ ما نطلب الى مولاي ان يقيمنا في عداد رجاله ، ولا يردّنا خائبين !

فرفرفت الابتسامة على شفتي ابن الحسين . واغرورقت عيناه . ما صدف عنه الاحرار . قال بوافر الجذل : يسرّني ان تبلغ دعوتنا مسامعكم ، وان تقبلوا الينا تلبون النداء . فالعرب في ثورتنـا يدافعون عن العرب . وانتم منا . فلا عجب اذا قمتم بالدفاع عن انفسكم ، وابديتم الحرص على كرامتكم ، وقد استهان بها العتاة !

فضجّ وادي السرحان بالهتـاف : ليحي العرب . ليحيَ الحسين وشبله فيصل !

وقال نذيرة الركب : من الشرف لي ان اقـدم لمولاي الامير نفسي واخواني . انا عامر الطفيل ، من صرخد . وهؤلاء رفاقي !

وعدّهم له واحداً واحداً. وبلغ مجيداً فقال فيه: وهذا السيد من خيرة اللبنانيين. فهو ابن زحلة. وأبى الا ان يكون في قافلة الثقات!

فقال فيصل بابتسامته العذبة: مرحباً باللبنانيين. هؤلاء روح الثورة وباعثو فكرتها. هم شقّوا امامها الطريق يغذّونها بحميتهم وفطنتهم. فجلتها لنا افواههم واقلامهم. وقد كدنا ننسى لولاهم اننا سادة وارباب مجد عريق!

وامعن في الترحيب بمجيد حريز. وراقه منه شبابه ووقاره. وودّ ان يجعل منه مرافقه. قال يخاطبه باعجاب ولين: لا ريب ان نقمة اللبنانيين على الدولة العثمانية بالغة الحد الاقصى. فهي تحاربهم بالسيف والنفي والجوع. ولقد عرفت جماعة من خيارهم. وفي جيشنا رهط من زهرتهم. واني لاراهم احق منا جميعاً بالتحرر من النير. فأمعنت استانبول في القسوة عليهم، حتى كادت تجيء على معظمهم. وقد اعتزمت فيهم سياسة المحو بلا اشفاق!

فابان مجيـــد: اجل، هي تروم محوهم، يا مولاي. وما تتورع عن اذلالهم فيما تسعى لابادتهم. وانهم ليبحثون عمن يستندون اليه في انتفاضهم عليها ولا يجدون هذا النصير. واطربهم ان تتقد ثورة الحجاز. ولو كانوا على مقربة منها لاضحوا باجمعهم من رافعي لوائها!

فابتهجت نفس فيصل وهذا المقال يختلج في شفتي مجيـــد حريز. قال الأمير العربي يثني على مروءة اللبنانيين، وعلى صدق وفائهم للتراث العربي الأثيل: اني مما تبدي لعلى خالص اليقين!

ونادى محمد الدحلان، رفيقه الدائم، يقول له برحابته المثلى: الضيفان، يا محمد. والله، ما تغفل عن مكرمة. العرب للعرب، يا ابن امي. هؤلاء الطائرون الينا من الاقاصي علينا ان نبذل الوسع في الاحتفال بهم. شدوا لهم

الاطناب ، واحملوا اليهم اطيب ما عندنا من مأكل ، ففي مضارب الثورة متسع لجميع المخلصين !

وادهش عارفيه بفيض عطفه. وطول أناته. فكأنه ابو هؤلاء المقاتلين على بكرة ابيهم . فيقاسمهم الرغيف ، بل يتخلى لهم عنه ويقيم على جوع . وما يجنح الى سوى رؤيتهم على اطمئنان واكتفاء. وضنّ بهم ان يشقوا ويفنوا . فان قطرة دم تسيل منهم لكأنها تسحّ من قلبه . وابتسم لهم . كان يبتسم حتى في اندلاع الاعصار ، وهوس الرصاص. وما نضبت ابتسامته في احرج مأزق . ويتفق له ان ينزو خاطره يأساً وما تغيب البسمة عن شفتيه. فالصدر الرحب لم يتماسك عن بثّ القوة ، والايمان. وليس للوثبة العربية ان يطاولها العثار

وما كان مجيد حريز اول من اندمج في جحافل الثورة من اللبنانيين . فالمضارب زخرت بالاشاوس ، حماة البلد الاخضر . وكلهم ارتدى ثياب الضباط . واعتزّ بهم الحسين وهم حوله زرافات ، من آل عمون ، وآل الخازن ، وآل يزبك ، وآل نعمة ، وآل الخطيب ، وقسطنطين يني فتى المرؤات ولاطفهم فيصل مستأنساً بهم . من بلاد الارز الى مرابض النخيل . فما اسمى الفداء . واضحوا جميعاً من الرفاق ، بل من الاشقاء ، كأن نثلتهم رحم واحدة

وبدا جعفر العسكري طافراً من خنادق العثمانيين . وهفا في اثره نوري السعيد يستظلان مكارم نبي الثورة . فما يحتمل العربي الجور وتجاهه تمتد فسحة النجاة

وغالوا جميعاً في التماس الحرية ، حتى راعي الشويهة والبعير . وما ثاروا ليرتفع عن رقابهم نير ، ويشدّها نير ، بل ليستعيدوا الامس المتوهج بلظى السؤدد ، وروعة الاباء

وتضايق الثائرون في وادي السرحان . ومالوا الى الانصراف عنه ، وما فيه غير بؤس وحرمان . لا شجر ، ولا عشب ، ولا عين ماء . فما يبلّون الريق بسوى ما تحمل اليهم العيس ، فيكاد يقتلهم الظمأ . ونفروا الى وادي ابي اللسان يقيمون فيه ، ويتفيأون اماليده النضر . ولكن العثمانيين يحمونه . فما طلع عليهم العقال العربي حتى اصلوه النار اللهوم ، فجلا عن مستقره . وغضب عودة ابو تايه غضبة حمراء تناثرت لها شظايا . وزعق وقد هاج : أنجلو عن هذا الوادي وكنا سادته ؟ ... لا ، والله . ما تعرفون عودة . سوف ترون !

وجنّ جنونه . وتناول عقاله وكوفيته عن رأسه وطرحهما في الارض ، وزمجر : لامزقنّهم ، وحق السماء !

وصاح برجاله ، وكلهم ذو ناب : عليهم ، عليهم ، بالرصاص والنصال !

واندفع بهم الى الوادي تياراً مهلكاً . واصابهم ما اصاب زعيمهم من جنون . فانقضوا نسوراً كواسر يقاتلون بالنار وبالسيف . عصائب من بزاة عطاش الى الدم ، بل الى المجد . ومشى عودة في الطليعة ، يعطي من شجاعته ومن دمه . وهجم عليه جندي عثماني بحربته يوشك ان يطعنه بها . فراعت المفاجأة عودة وأحس بدنو اجله . فما ابصر الجندي ليردّ عنه الطعنة الا وقد بات على شبر منه . ولاح له الموت . شاهدته عيناه ولمسته يده . واذا بالجندي يسقط الى الارض كشجرة باسقة اقتلعتها فأس مسنونة . والتفت عودة وومض في ناظريه فارس يتواثب وراءه كالشرر ، وبندقيته بيده . وبهذه البندقية صرع الجندي العثماني ، وانقذ ابا تابه من الخطر الفاغر الشدقين . فهتف به عودة بمستطير الاعجاب : من انت ؟ ... من انت ، بروحي ودمي ؟

وتأمله فعرفه. مجيد حريز الفتى اللبناني. فصرخ يكبر الاقدام والحفاظ: بابي انت وامي، اقترب فاقبلك في عينيك. ما كان لبنان سوى منجم ابطال!

ومع اشتداد المعركة، ووهج النار، ابى عودة المقدام، المقرّ بالحمية، الا ان يقبل مجيداً الهمام، وهو يعلن باجلال: لتلد مثلك النساء. والله، لتكونن من القادة. وليس لباسل من وزنك ان يركد في الاذناب!

ودعاه الى المسير بجانبه. وشقّا الصفوف وعودة يحثّ بصوته العريض جنوده على القتال: آه، يا عرب، عليهم!

وفاضت في كلماته الحماسة، وفي اقدامه العزة. وابصره رجاله في هياجه فنثروا الرؤوس بلا امساك، وهم يتغنون بالنداء المستحثّ، كأنه الحداء. وومضت حرابهم، ولمعت فوهات بندقياتهم، فدرجوا على الجثث وقد سكروا بخمرة الجرأة، ينازلون وجهاً لوجه، ويحطمون الشفرة بالشفرة، والبندقية بالبندقية. انها لمعركة إفناء لا ترتضي ليناً. ومن يرأف صرعته الرأفة. وامتلأ وادي ابي اللسان بالجثث على اهزوجة: «آه، يا عرب، عليهم!». وما فتىء عودة يؤرّث لظى النخوة. وحمل اليه احد الرفاق رأساً مقطوعاً يصبغه النجيع. وطرحه بين قدميه وهو يصيح: ابا تايه، اضرب بنعلك رأس عدوك!

فأدهشت الصولة عودة الصؤول. وبات في حيرة ازاء البطولة السامقة، البادية لعينيه. فعلى من يثني من هؤلاء الغطاريف، وبمن يعجب من هؤلاء البناة للغد الازهر، وقد انتزعوا النصر من مفرق العدو بقوة سواعدهم وإيمانهم بالحق؟... واستوضح ابو تايه، وقد جهل الصنديد: من انت، ايها النجد؟... من انت؟

فاجاب الفارس بابتسامة الاعتزاز : خادمك عامر الطفيل ، يا عودة . رفيق السلاح ، وابيك !

فصرخ زعيم قبائل الحويطات ، وملء صدره الاعجاب : والله ، زين . والله ، سادة صيد . انتم في انضمامكم الينا خيرٌ منا . عامر ، لتكونن من الضباط . ليبشر قلبك . إنا لنكرم الشجعان !

وجلا العثمانيون عن وادي ابي اللسان . وعاد العرب يحتلونه . فوزع عليهم الضابط « لورانس » الهبات بالجفنات ، وهو السخيّ في العطاء. وقاد اليه عودة مجيداً وعامراً يقول له : أتعرفهما ؟... هذا لبناني مسيحي، وهذا حوراني درزي . كلاهما ابدع . فيا للشجاعة المخصاب . اللبناني انقذني من الموت . والحوراني قطع رأس احد الاعداء وطرحه تحت قدميّ كي ادوسه بنعلي . لمثل هذين وجبت المكافأة بوافي السماح !

فمدّ لورانس يديه الى كيس مملوء ذهباً ، وغرف بملء راحتيه ، وقال لمجيد : خذ . النضار يرخص للابطال !

فامتنع مجيد حريز من الالتفات الى الذهب، كأنه حيال غبار. وابتسم وشكر ، واذاع قوله ببشاشة وشمم : ما جئنا نسترفد ، ونحن ارباب ايمان . ففي النضال هدف ليس فيه المال سوى انحناء غصن في مهب النوء. فالمطلب أعزّ واكرم، ومنانا ان نغنم الحرية . وعليها وقفنا الارواح . دع نصيبي من العطاء لسواي . قد يكون ثمة من تقضم الحاجة كبده . فان عندي من هذا المعدن ، ولله الحمد ، ما يرجح الملتمس !

فدهش لورانس . لم يتعوّد في البادية سماع هذا المقال الأثيل. كل من حوله يريد مالاً . بل يلحّ في ان يتقاضى ذهباً انكليزياً طنّاناً ، يجول في

احد وجهيه خيّالٌ برمح . قال بايجاز الانكليز وبساطتهم في أداء الكلام :
أما تأخذ ؟

– لا ، والله . ارجو ان تعفيني مما لا تشتهي نفسي . ما هجرنا الحمى في ابتغاء الدينار !

فسدد اليه « لورانس » ، البسيط المظهر ، المتجلبب بالسذاجة كأنه جاهل غمر ، نظرة تكتنز بحفيل الاعجاب . واستوضحه ، وهو الملمّ بلهجات العرب حتى ما يسمع نبرة الا ويعلن مصدرها ، كأن اذنه على رهافة احساس ، فما تضيع عن موارد الأصوات : في ألفاظك قسوة الجبال . فانت زحليّ قحّ ، وقد جاش في بيانك هدير البردوني . أتكونون باجمعكم من هذا العيار ؟

وابتسم له بوارف العذوبة . فاعلن مجيد : نحن قوم انطوينا على الشدة ، ابقاك الله . ولنا من موقع بلدتنا ما يفرض علينا الاعتصام بالعزة !

فما تخطى الداهية الانكليزي قاعدة بني قومه في الايجاز ، واستفهم : وما تريد اذاً وانت تنفر عن المال ؟

فأعلن مجيد ببيان السماح : نجدة قومي في درء الظلم ، وبلوغ شاطىء الخلاص !

فهتف عودة : ليكن ضابطاً عالي المرتبة ، ولن نقع في كل يوم على هؤلاء الانمار !

فنزع « لورانس » من كتفه شارته العسكرية ، وزيّن بها كتف مجيد حريز ، قائلاً له بلهجة من فائق الاكرام : اصبحت في الجيش العربي برتبة رئيس . اظهروا هذه الحماسة فتحرزوا عفواً نعمة الاستقلال . وما كان الاستقلال بالهبة ، وهو صنع اليدين !

و « لورانس » يعلم ان الفرنسيين يطمعون في لبنان . فعزّ عليه ان يضيع على انكلترا هذا الصقع المرموق، وهو في الكتلة العربية وجه نبيل، ويد مأمونة. فيتوسده العرفان، والذكاء، والسخاء. ويأوي اليه الاحرار، وما يقعون فيه على سوى اخوان ابرار . ويضرم الحماسة في النيام ، فلا يبقى عرق في الناطقين بالضاد الا وينتفض حنيناً الى اليقظة . و « لورانس » يعرف لبنان . جال فيه وآمن بكونه درعاً ومنارة . أما يحتاج الانكليز في الشرق الى هذا المجنّ البرّاق ؟

والتفت الى المجاهد الدرزي يعرض عليه حفنة الذهب ويقول : وانت، ألا ترضى ؟

فتعالت الانفة في عامر الطفيل ، واجاب يترفع عن لمس العطية ، كأنها هباءة : اعتقد ان رفيقي تحدث عنه وعني. وليس لي ان ازيد على ما افضى به ، وقد كفاني البيان !

فنزع « لورانس » شارته الاخرى، من كتفه الاخرى، وجاد بها على عامر هاتفاً باجلال: وانت في الجيش العربي برتبة رئيس. عوفيتما من أروعين أنوفين !

فابتهج عامر . مات هادي محفوظ. ابن الطفيل اضحى أعلى منه مرتبة. ألا فليرقب ما سوف يناله . وانحنى وصافح اليد المانحة ، المكافئة حسن البلاء . فهمس « لورانس » في اذن ابي تايه : ليت امثال هذين يكثرون بيننا ، اذاً لعشنا في رهط من الميامين الاعفّاء . وهو حيّز البسالة الاعلى !

واستقر الجيش العربي زمناً مديداً بوادي ابي اللسان . ونمي اليه ان العثمانيين يزمعون اقصاءه عن مكمنه ، فصاح « لورانس » يدعو الى قطع الطريق على المغيرين : لننسف جسر اليرموك !

وتولى بنفسه المهمة . بيد انه لم ينجح . فامتلأ قلبه حقداً على نفسه . وخشي ان يسخر به العرب، وهم يعتقدونه متفوّقاً عليهم. فعمد الى مغامرة اعظم . جاءه من يبلغه ان احمد جمال باشا ، قائد الجيش العثماني الرابع في سوريا ولبنان ، يشخص الى القدس ، معتلياً الخط الحديدي الحجازي ، ليردّ عن المدينة المقدسة هجوم الانكليز . فضحك « لورانس » وقال لمخاطبه : اراك تبلغني نعيه !

فصاح كل من حوله : وكيف ، يا « رورانس » ؟

وكانوا ينادونه « رورانس » ، لا « لورانس » ، وهم يجهلون التلفظ بالاسم الأعجمي . قال : سننسف الخط الحديدي فيما القطار يجتازه !

— ونقتل جمال باشا ؟

— نقتله !

— والله ، زين !

والتفت بعضهم الى بعض كأنهم لا يصدقون ما يسمعون . أيستطيع « رورانس » ان يقتل احمد جمال باشا، القائد العثماني الشامخ الجبروت؟... وظلوا يرتابون بما يلقي اليهم . على انهم قابلوا بين قوة الانكليز ، وقوة العثمانيين ، فرجحت كفة الانكليز لديهم . أما شاهدوا بعيونهم كيف يحشو الانكليز الارض بالقذائف ، فيطير من عليها ؟ ... أما بصروا بالطيارات الانكليزية تضرب المعسكر العثماني ، فتبدد رجاله ، وتبيد معظمهم، وتحرق خيامه ، وتقوّض ثكناته ؟ ... وهذا الذهب الانكليزي الثقيل الوزن ، أمارسا في ايديهم ، فبهر ابصارهم ، وايقنوا ان لا مثيل له في الخزائن العثمانية الخالية ، وقد باتت ملعباً للعنكبوت ؟... ألا ما هذه الرقعة الرثّة

يحملها اليهم العثمانيون ، ويريدون منهم ان يساووها بالذهب، وليست تصلح للفّ التبغ ؟

لا . الانكليز اقوى . وآمنوا بان « رورانس » يقدر على قتل جمال باشا . وصاحوا ، واصواتهم ترتفع من كل صوب : ومتى يقبل القطار ؟

واتسعت انظارهم . وماج فيهم الفضول . هم بوّدون ان يعلموا كيف يتسع للضابط الانكليزي الفتك بالقائـد العثماني . فالتفت « لورانس » الى من ابلغه الخبر يقول : ومتى يمرّ القطار المقلّ جمال باشا ؟

– في صباح الثلاثاء . بعد ستة ايام !

– أموقن انت بصحة الخبر ؟

– اليقين كله ، والله !

– وان تكن كاذباً ؟

– اضرب رأسي !

فاعلن « لورانس » بالبرودة المألوفة في قومه : وسأفعل . فكن على حذر ! ولكن حامل النبأ ابى الغرم دون الغنم ، فاستجلى متحمساً : واذا صدقتُ ، يا « رورانس » ؟

فابتسم الانكليزي الازرق العينين . وادرك ان عليه ان يعد بالمكافأة ، كما انذر بالتهديد . وابان باغتباط : لك مئة دينار برّاق !

فانتشر الطرب في وجه المخبر، واعلن بشدة يذيع بها الموافقة : رضيت ! وبالدنانير البرّاقة خطف الانكليز الانظار والالباب . اجل ، فالقبائل لا تدرك ما هذه الرقعة المدعوّة مالاً . وهي في عرفهم تطوى وتمزق وتطرح في النار . على حين ان الذهب يرنّ ويطنّ ، ولا يفنى . بل هو يضيء كأنه

الكوكب الوهّاج. واين الادكن من الابلج ، والمنيع من المهلهل الغثّ ، ومـــا تعوّدت الصحراء غير الاتكال على الصلب المغري ، لا على الهشّ الموّار؟...وهو ما استجلى الانكليز غوامضه وأقرّوه، وقد انكشف لهم وجه الصحراء . وصاح « لورانس » بمن حوله من الرجال : من يكون رفيقي الى الخط الحديدي ؟

فشاؤوا ان يسيروا اليه كلهم . قال « لورانس » : لا ، إبقوا . إبقوا. فمن للمضارب يحميها ؟ ... مئة منكم يكفون !

واختار هؤلاء المئة . على ان ثمـة من شدّد في الانضمام الى القافلة ، فأضحت مئـة وعشرين . وانطلقت ، و « لورانس » على رأسها ، تجتاز مديد الفلوات الى الخط الحديدي لترقب مجيء القطار الحامل صاحب الدولة. وانحنى الكثيرون على الخط يلقون اليه آذانهم ليسمعوا الهدير . قال « لورانس » وهو يحشو السكة بالقذائف : ماذا تسمعون ؟

قالوا : والله ، انه لمقبل !

– أترون في الافق دخاناً ؟

وضحك وهو يطلق هذا السؤال . وعمد الى مباسطتهم كي يذهب عنهم بالضنك والمشقـة . و « لورانس » اضحى في ثورة العرب واسع الخبرة في نسف الجسور والخطوط. ولم يكن يحجم عن الاستبسال. فينساب الى كبد الديار العثمانية ويضرب ضربته المحكمة . ويعود الى مقره في جيش الثورة دون ان يشعر به العثمانيون . فالثوب العربي يقيه الشبهة. وما كان يتورع عن المسير حافياً ، وفي ابراد ممزقة ، قذرة، امعاناً في التخفي . وليس لمن يبصره ان يقول فيه انه غريب عن اولئك العريقين في البداوة ، المنتشرين

في الصحراء ، حتى وفي المدن والقرى

وما تخلو دمشق من المتجلببين بالاعبئـة ، الملتفّين بالقمابيز ، الضاربين على هاماتهم الكوفيّات والعُقُل . فالزيّ منشور في معظم امصار العرب . من حلب حتى الخليج الفارسي ، فاليمن . ولقد طغى على حماة ، وحمص ، وبعلبك ، فضلًا عن البادية . فاذا ما ظهر « لورانس » بهذا الزيّ فمن يعرفه ، وهو وجهٌ عابر من مئات الالوف من الوجوه البادية في كل يوم للعيون؟

وجازف الضابط الانكليزي الهمام ذات مرة بنفسه ، وبلغ رأس بعلبك ، ينسف جسر الخط الحديدي بين رياق واستانبول ، ليمنع الذخائر والجيوش والمؤن من الوصول الى القيادة العثمانية في الاردن والقدس . وما تحدث عن اقدامه ونجاحه في الغارة ، ومن طبعه الغوْور في الصمت ، وخصوصاً في ما يتصل بنفسه . وما هو في معرض التفاخر بحسن سعيه غير شبح يتوارى ، محتجباً بالخجل ، كافراً بحب الظهور

وان يكن في الصحراء لخدمة بني أمه الانكليز ، فما نسي العرب ، وقد احبهم ، واحيا فيهم الهمة الراكدة لاستعادة الأمس السمين

وفي وثوبه على الخط الحديدي ، الممتد الى القدس ، مغامرة خارقة ، ازجته ومن معه الى صدر المعسكر العثماني ، المشرف على جبهة الجنوب . فاذا ما درت بهم القوات العثمانية افنتهم جميعاً

على ان « لورانس » لم يجهل كيف يتقي النائبة . فدعا رفاقه الى نصب خيامهم كأنهم بطنٌ من قبيلة ثوى هناك ، لا فئة من رجال الثورة . وخاف عليهم ان يفلتوا منه اذا ما انتابته الخيبة . فمن حنوا الرؤوس اربعمئة سنة للاستعباد فهيهات ان يرفعوها بين يوم وليلة ، ان لم يكن ثمة رائد يهب لهم

الفوز والطمأنينة

وتفنن القطب الهادي في الاغراء. فحدث اخوان الوثبة عن مجد العرب، كما تحدث عن كنوز الطاغية الاحمر يبهر بها عيون الأعراب، ومعظمهم تفتنه الغنيمة . وما درجوا في اثر « لورانس » لنسف السكة الحديدية بالقائد العثماني الخطير لولا شوقهم الى الظفر بالاسلاب

ورقدوا ليلتهم بجانب الخط ، وكلهم يلهبه الشره الى رؤية جمال باشا يطير بالانفجار . وطلع عليهم الصباح وقد انتهى « لورانس » من بثّ القذائف . وجلس يمازح هؤلاء المتحلّقين عليه، ويحدثهم عن المأثرة الكبرى في قضائهم على الطاغية . وللعرب من موته امضى عون على ادراك الظفر ، ونحر تنين الاسترقاق

واتجهت انظار الجميع الى الافق ترقب ان يطلّ القطار . واذا دخان يلوح . فصاحوا : هذا هو !

ورقصت قلوبهم جذلاً. سيقضون على القائد الأحمر وعلى صحبه، وينهبون كل ما في القطار من اموال واسلحة وثياب. وغنم الثياب يفتنهم بمقدار ما يشغفهم كسب القروش. فانهم لينقضون حتى على الجثث وينزعون منها ثيابها ويرتدونها ، غير حافلين بما تتلطخ به من دم ، ولا بما يعشش فيها من علة

وتهادى القطار اليهم وحافلاته تبلغ العشرين . وظهر منها انها للركوب، لا للشحن . فشحذ العرب اسنانهم لقضم الزاد . سيعودون بالبدل الراجح . فصاح بهم « لورانس »، وقد امسى القطار على مقربة منهم : ألا اختبئوا !

فمانعوا في الاختباء. لن يبتعدوا عن القطار لئلا تضيع عليهم الجدوى . فينال احدهم من الأسلاب ما يزيد على نصيب الآخر . فأعاد « لورانس »

صيحته : هلا اختبأتم ؟

فظلوا على ممانعة . وعلا ضجيجهم فكاد يذهب بضجيج القطار . فتململ « لورانس ». ولكن هذه عادتهم. فلا دقة ولا نظام . وبات القطار فوق القذائف . وخيل الى جمال باشا ان هؤلاء الأعراب اقبلوا لتحيته . فوقف في احدى نوافذ الحافلة الفخمة الموقوفة عليه مشرق الوجه، راضياً، باسطاً راحتيه للسلام . واذا الانفجار يعلو . وتطاير الخط الحديدي . وعلا الصياح من الجانبين . صيحات الذعر وصيحات الابتهاج . على ان الانفجار لم يقع الا والقطار في آخره . فحطم مركبتين من مركبات المؤخرة . ولم يفقد جمال باشا روعه حيال الكارثة، وفي القطار ما لا يقل عن ثلاثمئة جندي. فصاح بهم : اقذفوهم بالنار واقبضوا عليهم . اسحقوهم !

وملك الجنود رباطة الجأش وهم يسمعون اوامر قائدهم . فوثبوا من القطار لمقاتلة الأعراب . ووضح للورانس ان الموقف خطير ، فدعا رجاله الى الابتعاد والى الامعان في اطلاق الرصاص. وهو نفسه رمى الجند العثماني بما بقي لديه من القذائف المدمرة . وتوهم العثمانيون ان عدوهم اوفر عدداً ، ففصلوا عن القطار الحافلتين المحطمتين وركنوا الى الفرار ، مكتفين بانقاذ قائدهم ، وقد خافوا عليه من الوقوع في الاسر ، او في فوهة الموت

ودرج الاعراب في اثر القطار الفارّ فما لحقوا به . وثارت في احدهم النقمة على العثمانيين فدفع جواده يبتغي ادراك الحافلات الهاربة. فصاح رفاقه : من الفارس ؟

وصرخ « لورانس » غاضباً : هذا جنون !

واطلق الفارس ناره على القطار فاصاب جندياً في رأسه ، ورماه من

النافذة الى الارض. وتكاثرت اطلاقات الجند على المغوار المستبسل، فاذا به يختلج ويتدحرج في الرمال. ووقف الجواد عن المسير وقد رأى فارسه يهوي عن متنه. فجمد بقربه لا يتزحزح، كأنه ايقن ان فجيعة دهمت راكبه. فقلق «لورانس»، وما برح يسأل عن الفارس، ولا من يجيب. وحثّ اليه مطيته وازاح عن الصريع لثامه، فعرفه على الفور. هذا مجيد حريز. فغصّ «لورانس» شفته حتى كاد يدميها لفرط جزعه. هل مات مجيد؟

وجسّ منه النبض وهو في حيرة. وتصاعد من افواه الأعراب قولهم معجبين، متألمين: هذا هو الفارس اللبناني!

فأعلن «لورانس» متبرماً بالنازلة: إقدامه غريب. احملوه الى المضارب!

ففعلوا. وكانوا قد عادوا من غزوتهم بعشرين بندقية، وبثياب القتلى والجرحى من جنود الحافلتين المنسوفتين، وباموالهم. ودفعوا مطاياهم كالشرر المستطير الى مثوى جيش الثورة. وانها لمسافة بعيدة طووها على عجل، كأنهم يسبحون على جناح طائر، وليس فيهم من يلتفت الى الوراء. بلى، كان «لورانس» يجيل عينيه في الافق. هل تحرك العثمانيون للمطاردة؟... وبلغوا خيام الجيش العربي بمأمن من الغائلة. فتنفس «لورانس» طويلاً واعلن بانشراح: سلمنا، سلمنا!

ورجال الثورة ما لاح لهم الركب حتى وثبوا اليه يحيطون به من كل جانب، مستوضحين بفضول نهم: هل مات جمال باشا؟... هل قتلتموه؟... اين رأسه؟... اين رأسه؟

فقصّ عليهم «لورانس» الخبر معلناً بحسرة: خانتنا القذائف. فما انفجرت الا والقطار على وشك اجتيازها. فدمرت حافلتين في مؤخرته،

ونجا الذئب الأحمر . على ان افلات جمال باشا من ايدينا لا يوجعني بقدر ما يدمي مصابنا بمجيد حريز كبدي !

فصاح عودة ابو تايه : وماذا اصاب مجيداً ؟

قال « لورانس » معجباً بالبطولة ، وعاتباً على الهوس : لحق بالقطار فلم يرحمه العثمانيون !

فتألم عودة . واسرع الى الشاب المضرج بدمائه وهزّه ليتبين فيه مدى خلجة الحياة . والتفت الى الواقفين بجانبه يقول : اراه لا يزال يعيش !

وطلب الى « لورانس » ان يدفع الجريح الى مستشفى انكليزي يتداوى فيه بامان . فقال « لورانس » : ولكن الأمر صعب ، يا عودة !

فقال ابو تايه ، وما فتىء يذكر فضل مجيد عليه : مهما يكن من صعوبته فافعلوه لاجلي . ليس لمن ينقذ عودة من الموت ان يموت !

فدعا « لورانس » سيد الحويطات الى الاطمئنان . واوفد مجيداً الى مستشفى الثورة ، وهو يقول : لدينا من الاطباء من يضمن شفاءه ، فطب قلباً !

ومجيد غائب عن نفسه . فهو جثة شبه هامدة ، يشدّ بها الموت وتكاد تفلتها الحياة .

٤

عفراء ترقب اخبار مجيد . فلا رسالة، ولا كلمة ، كأن الصحراء ابتلعت الدارج في بساطها الشرود

وجلست الهائمة الحزينة بقلق الى نفيسة الطفيل تقول لها : ماذا ترين، يا أختي ؟... أيعودان من تلك المهامه السحيقة ، ونبصرهما بخير ؟

فقالت نفيسة تميل بصفيّتها الى الاتئاد في اللوعة : لا اراني في اضطراب بال . كل ما أحسّ به يحملني على الاعتقاد انهما سيعودان سالمين !

فأعلنت عفراء بارتباك مهجة : اما انا ، يا نفيسة ، اما انا ...

وزفرت ملياً تشويها اللهفة . فاستجلت نفيسة بمضض : أتكونين في خشية ؟

ـ أكاد أجنّ . فما هذا الانقطاع عني ولم يعوّدني إياه مجيد ؟ ... كان يطلق إليّ في الاسبوع رسالتين، وله الآن ثلاثة اشهر ، ثلاثة اشهر بلياليها، ولا خبر ، ولا كلمة تخفف من الوسواس !

وشعرت اخت عامر بحرقة رفيقتها . هي مثلها قلقة على اخيها . الا انها شاءت ان تزيل من نفس عفراء الجزع ، فقالت تنشر الطمأنينة : لا تخافي . لو حلّت بهما ملمة لوصل الينا النبأ. فليس أسرع انتشاراً من انباء السوء !

فسكتت عفراء . بيد ان الهول ما برح يكويها . لقد طرحها ابن عمها بين قوم غرباء وتوارى . اجل ، هي تلقى بينهم كل اكرام ، الا انها مقيدة كالاسيرة ، ومن تعيش لأجله بعيد عنها ، يتغلغل في المترامي المجهول

وباتت في سهو دائم. ومع كل ما بذلت نفيسة من جهد في دفع الذهول عن نجيّتها، ظلت عفراء ضائعة عن نفسها. فهي تائهة في اثر ذلك التائه في البيد،

وكأنه قلبها يشقّ الفيافي الشسع وحيداً. فتلذعه الشمس، ويدميه الحرمان، وتتقاذفه النوائب من مفازة الى مفازة. ولا رحمة في ما كتب مجيد على نفسه من شدة. فانه ليناضل عن الانفة الموتورة. ولكن أما يلتفت الى من اودعها شبه منفى تعاني فيه البلبال، مترقبة الفرج، ولا فرج، كأن الليل الوهون ضاع عن مدرج الصباح؟... وشاق نفيسة ان تخرج بها عن كآبتها، فقالت تؤانسها: أتدرين؟

وابتسمت ابتسامة عريضة عذبة، تخفي وراءها ماتع البشرى. واضطرت عفراء الى الاصغاء. قالت: ماذا؟

فاعلنت نفيسة ببهجة روح: لقيت امس هادي محفوظ. فدنا مني وحياني. وسألني عن عامر. قال: «ما بنا لا نراه، يا نفيسة؟... أيكون هجر صرخد، وكان يملأها؟». فأجبت: «هو في دمشق. وله فيها اشغال امسكته عنا!». فابتسم، كأنه يعلم أني لا أنطق بالصدق الصراح!

فاستفهمت عفراء ببعض وهلة: أيدري ان أخاك تبطّن الصحراء؟

— اعتقد انه يدري. ولكنه لن يبوح بالسر. ومما خاطبني به انه لن يتنكب عن امدادي بما احتاج اليه في اثناء غياب اخي. واذا اجزت له ان اراه اقبل في زيارتي!

فهتفت عفراء، وقد شغلها حديث المحبين عن نفسها، وهي الولهى: وبمَ اجبت، يا نفيسة؟... هل تحامقت؟

فظلت الابتسامة ترين على محيا شقيقة عامر الطفيل. ونفثت الشفتان ببطء واعتزاز، كأن القلب ادرك المنى: احزري ان كنت ذات فطانة. يا أُختي!

— هل دعوته اليك؟

– بل رأيت ان اصون شرف عامر اخي، وشرف آل الطفيل أنسبائي.
فشكرت وقلت : « ما زال أخي بعيداً عن المنزل ، فلا سبيل للرجال الى دارنا ! » . أما أصبت في بياني ؟

فصاحت بها عفراء : أحسنت !

وانحنت عليها وقبلتها ، وقالت باكبار : بمثل هـذا الكلام تجيب كل ذات كرامة . هادي محفوظ أضحى يرى فيك وجهاً حافلاً بالسمو . فعلوت في عينه حتى حجبت في لبـــه ذوات السنى . كنت في جوابك عنوان الشرف والبراعة . هنيئاً لك !

فكشفت نفيسة عن جنانها بلا حذر. وقالت تجود بما يتقد فيها من عاطفة : على ان ما بدر منه حيالي زادني شغفاً به . احبه كما تحبين مجيداً ، يا عفراء. ولست اشتهي في دنياي الا ان اجلس اليه ، وأبثّه هيامي ، وأحس باني اصبحت قطعة منـه ، وبات شطراً مني . فهو مالىء نفسي . ومن المحال ان احب سواه ، يا اختي . من المحال ، والله . ان في صرخد من هو اسمى ، وابهى ، واغنى . على اني اجد الجميع دون هادي محفوظ ، ونوره حجب عني كل ضياء. وهل يبقى للكواكب لألاء لدن يبزغ القمر ؟

فنظرت اليها عفراء بحزن كأنها تكاد تبكي . فما تختلف عنها في شوقها الملحّ ، وقد تساوى القلبان في منازعهما . واكرمت ابنـة زحلة في ابنة صرخد مكين هواها . فالأرواح الموثقة بالهيام الركين ، الشريف ، جديرة بالاكرام . وتعاظمت شفقتها عليها . فليس للقلوب المنسجمة في ميولهـا ان تشقى . وعفراء ما هانت في حبهـا ، وقد كان سمحاً ، الا انها لمست بليغ سلطانه. فاكرهها على التخلي عن اخيها وامّها كي تنصرف اليه . وهي تضحية

لا يجود بها غير من سطا عليه الهوس. والحب هوس في يقين عفراء، وحامله يضيع به هداه

وعادت نفيسة الى الافاضة بهواجسها السحم ، والوله في الافصاح سيلٌ منهمر . قالت بلاعج الخشية تسائل صاحبتها : أترين عامراً اخي يرضى بان يزفني اليه؟... ان مشيئة عامر الطفيل لمقدسة عندي. ولا يخيل اليك اني ارضى بالفرار من المنزل اذا ما طاب لهادي محفوظ اختطافي . فالهرب ضعف وعيب. ولست في حبي عائبة ولا ضعيفة، وانا اصونه بقوة. وابدو فيه بشمم. ولن اسعى الى هيكله الا واخي عامر يقودني بنفسه الى المحراب. والا بقيت حيث ترينني، في العزيز الأثيل. لا اخرج قيد انملة عن انفتي . فأنزل حب هادي محفوظ الحريز المنيع من مهجتي، دون ان اثلم، حتى بخدش، حمية عامر الطفيل اخي !

وغصّت بكلماتها الزاخرة بالاباء . انها لتفرض على روحها من الجهد ما تنوء به الحواني . فتأثرت عفراء بالنبل العالي المناف . وهبّت للنجدة تقول برغبة ينبض فيها جلال المؤاساة : بنفسي سأخاطب في الامر اخاك، واقنعه بضرورة العقد لهادي محفوظ عليك، ومن الجناية تحطيم القلوب ، يا أُخيّتي !

والمحبون في عون المحبين . فهتفت نفيسة بارتياح ورضى : أتفعلين ، يا عفراء ؟ ... بحياتي ؟

وشاقها ان تقع فيها على حبل النجاة. فأعلنت ابنة عم مجيد حريز بمطبوع المروءة : سأفعل ، وحقك !

فتمتمت نفيسة باعجاب واغتباط : ما اكرم قلبك !

فاستنبأت عفراء بوفر من مداراة ، وما تألف الايلام : على ان ما اود معرفته ، يا نفيسة ، أيكون هادي محفوظ مخلصاً في ما يبدي ؟

فأبت المستهامة الانوف ان يجاول الوفاء في من تهوى نفثة من ريب ، وأبانت بلا ونية : انا اراه عنوان الاخلاص !

ـ ولكن المظاهر تخدع ، يا نفيسة !

ـ ليس في هادي محفوظ ، يا عفراء !

ونفت عنه المواربة . فليس لمن انطوى على ذلك الخلق الحميّ ان يخادع . فأوضحت عفراء ماضية في مبرّة الغوث : اذن عليّ ان ابصره واستجلي ضميره !

فهتفت كأنها لا تؤمن بالمبرة : أتقدمين على هذا الجميل ؟

ـ اقدم عليه في سبيلك . أين أرى هادي محفوظ ؟

فأغارت عليها نفيسة تعانقها وتصيح بفرحة : يا لحسن حظي في اهتدائي اليك !

وطغت عليها نشوة من ابتهاج ، كأن المرتجى بات ملء يمينها . فاستوضحت عفراء بشدة : ولكن اين اراه ؟

لم تكن نفيسة تدري . فاين تصادف عفراء هادياً ولا يبدو اللقاء مشدوداً بامراس ، وجدواه في ان يقبل عفواً ؟ ... قالت اخت عامر الطفيل : هو يتردد الى دار اصدقائنا من آل محسن ، وعندهم استوليت على رسمه ، وقد عرّفتك بهم . فاذا ما راقك ان تبصريه ، وتحدثيه عني ، فاذهبي اليهم في الحين بعد الحين !

فما كانت لتشيح عن الاجابة ، وأعلنت باخضلال مبسم : حباً وكرامة !

فهزّ الحبور نفيسة ، واختلج في شفتيها قولها الطروب : اجل ، اجل ، عليّ ان اقف على رأيه الصريح !

وغرقتا في سهو الاطراق الطافح بلذة الامل . وتناست عفراء لبعض الزمن اشجانها ، وهي تفكر في حب مجيد لها . وودت نفيسة لو جرّت على الفور صديقتها الى اصدقائها . بيـــد ان حياءها اهاب بها الى التماسك .

فالكلمة لعفراء !

وعفراء حريز، وهي تجد لدى آل الطفيل الضيافة المثلى، شاقها ان تقابل المنّة بالمنّة. وليس لذي إباء ان ينحني تحت وقر الجميل، وان يتسع له الى الوفاء وينثني . فدرجت الى آل محسن تزدلف اليهم . انهم لاخوان الصفاء وصادعو الغمة . وعرفت هادي محفوظ وحضرت مجلسه . ورأت منه في حديثه غير ما بان لها في رسمه. فهو ليس ذلك المتعجرف، الغليظ. قد يبدي الغطرسة في منصبه، اما في المجالس الخاصة فانه لين الجانب، خفيف الظل. وأصغت اليه عفراء في منطقه، فاذا به سمح الحديث، عفيف المقال. وتراءت له لبنانية محضاً فسألها عن بلدتها من لبنان . وعلم انها ابنة زحلة ، فقال : الزحليون قوم اشداء . ولكن ما جاء بك الينا ؟

فما ارتبكت في الجلاء. قالت: نحن من اصدقاء آل الطفيل، وقد جئت اقضي في ضيافتهم بعض الزمن !

فاتسعت عيناه وهي تحدثه عن آل الطفيل، واستقصى مدهوشاً: أيكون آل الطفيل من اصدقائكم ؟ ... واين عرفتموهم ؟

– والد عامر صديق ابي . اقاما معاً في دمشق ، فتعارفا ، وانعقدت بيننا الالفة !

– وانت هنا بجانب نفيسة ؟

وأحرق شفتيه الاسم. وومضت له عيناه. فأوضحت عفراء: انا ضيفتها . وقد عرفت في القوم عالي المكانة ، ومنسكب الجود !

فقالت ربة الدار : عامر من الاسخياء. وابوه حاتم طي زمانه. ومقامهم بيننا رفيع . فهم من علية الناس !

وشاء هادي محفوظ الكلام ، فغصّ بريقه . فرأت عفراء ان تزيد في اضرام عاطفته، فغالت في نشر سجايا صديقتها بقولها : ونفيسة زهرة عطرة ، هنيئاً لمن يشمّها . ففيها الخلق الصافي ، والذكاء النيّر . وان تكن نساء صرخد من طرازها ، فان صرخد لمهد العفاف !

فتلظى حبه وهو يسمع بيانها. وتولى وجهه الاحمرار. على انه لم يتفوّه بكلمة . قالت ربة الدار وهي تلتفت اليه وتبتسم: اجل، نفيسة من ذوات الأدب والحسن . فمن يظفر بها يقتعد غارب الحظ !

وجالت عينا عفراء في ربة الدار المبتسمة ، وفي هادي محفوظ المشتعل الحائر، وقالت بلطف جمّ ، يشفّ عن رخيّ افترار: أيكون السيد محفوظ مطلعاً على ما تتحلى به نفيسة من ادب وفضل ؟

فلم تقوَ ربة الدار على امساك ضحكة تجيش في حنجرتها ، خالعة عنها واقي الحذر . وعالنت عفراء بقولها : علينا ان نوضح لك الحق . ان السيد هادياً لمن الهائمين بنفيسة !

فاعترض هادي محفوظ بحدة : ولكن ما لنا ولهذا الحديث . أتذيع فضيحتنا في البشر اجمعين ؟

فأذاعت ربة الدار لا تتهيّب : ومن يجهل في صرخد انك تحب نفيسة، وانها تهواك ؟... اسمعي ، يا عفراء. ما يفتأ السيد محفوظ، منذ بلغ الحلم، يهوى نفيسة ويؤثرها على كل فتاة في صرخد . وهي اهل للايثار . بيد ان عامراً شقيقها لا يرضى عن هذا الحب، والفتاة مخطوبة لاحد انسبائها. ثم هو ينفر من هادي محفوظ ، وليس يطيق احدهما الآخر !

فتأفف هادي واعلن بمضض : هذا كلام !

قالت ربة الدار : ولماذا الابتعاد عن الواقع ؟ ... انت تميل اليها . وما يلوح منها انها تتقي هذا الميل !

فنفخ ينشر الزفرة اللهبى ، ونبر : لا الفتاة تحبني ، ولا انا اصبو اليها . فما يدعو الى التأويل ، وليس اليه مجال ؟

فاستجلت عفراء باسمة : وهل في الحب عار ؟

وتذكرت مجيداً . فأعلن هادي محفوظ بشدة المكروب : لا عار فيه على الاطلاق . ولكن ما لا مجال اليه لا يحفز في بلوغه الى اجهاد النفس !

وبدا فيه الامتعاض. فهو من حبه في نقمة . قالت عفراء بلهجة لا تخلو من مسحة الشفقة : أتكون يائساً من نفيسة ، ايها السيد ؟

فكاد يختنق . وخجل من القول انه يائس من حب فتاة ، وهو قائد صرخد ، وصاحب المكانة الرفيعة فيها ، وله من قوته وشبابه كل شفيع في الزواج باكرم ذات وسامة. قال وقد انفجر: لا اعتقد اني يائس من مودتها. الا ان نزق اخيها قام حائلاً بيني وبينها . انا أحبها . وهل استطيع انكار هذا الحب، وقد غرقت فيه حتى الرأس ؟... بيد اني اخشى ألا يتحقق، وعامر الطفيل جعل مني خصماً له، دون اساءة تجنيت بها عليه. وعامر شديد البأس ، ولكنه سريع الغضب . ومن يتسرع في غضبه يتسرع في حكمه . شخص له اني عقبة في سبيل ظهوره ، فبادرني بالنفار . لقد اخطأ ، والله . انا من عشاق الفروسية والعزة. فكيف اكره عامراً وهو الفارس المتدفق بالصلابة والحمية ؟ ... وتوالت بيننا الصدمات كأننا عدوّان . وكان بوسعي ، وانا حارس الأمن في صرخد ، أن أهزّ عامراً في عجبه ، وأقف به عن غيّه . الا ان هناك نفيسة ، يا عفراء !

ونطق في وجهه صاهر الألم . وزفر وقال بعبوس واعتداد يشفّان عن زكيّ الحلم : أيخيل اليك اني اجهل مقر عامر ؟... وثب الى الجبهة الاخرى يقاتل في صفوف الشريف فيصل. اني من الأمر لعلى يقين. ولو شئت لخربت بيت الفارّ . بيد اني لا افعل ، وحب نفيسة يأبى عليّ ايذاءها بالانتقام من اخيها. مع اني صبرت عليه طويلاً. صبرت حتى كدت انكر ازاءه نفسي ، وهو ماضٍ في رعونته ، لا يتمالك بغطرسته وقحته عن ايلامي !

وتململ شديداً هادي محفوظ. وظهر منه انه يجتهد في كبح جماح غضبه، متحايلاً على نفسه . قالت عفراء تستبحث لتنفذ الى الملتمس الاثير : وهل يدري عامر انك تميل الى الزواج باخته ؟

فضحك ضحكة مرّة ساخرة، وقال وألفاظه تحرق فمه : أتحسبينه يرضى بان يزفها اليّ ان يكن يعلم اني اميل اليها ؟

فأبانت بصوت جازم، كأنها أُوتيت السيطرة على قياد المتشامخ، الحرون: انا اقنعه بان يرضى !

فما برحت ضحكة السخرية تربع باساريرِ ضابط صرخد . قال بارتياب صيّاح : انتِ ؟

فأذاعت بقوة المؤمن بسلطانه القاطع : انا ، نعم ، انا !

فلان حيال شدتها. الا انه لين المطمئن الى صدقه في مذهبه، والمتألم لهذا الصدق الكاسف، وما يشتهيه. قال بصوت مريض: اراك تجهلين عامراً ، يا عفراء !

فأوضحت بحماسة : بل انا اعرفه ، انه لنبيل المهجة ، حرّ الطبع !

— على انه لن يعقد على شقيقته نفيسة لهادي محفوظ !

فابانت بثقة، بايمان، كأن الأمر مردود اليها: بلى، سيزفها اليه. وسوف ترى !

فصاح بمضض ، بشك : أسمعك تخاطبينني بلغة العجائب ، فهل عدنا الى زمن النبوءات ؟ ... ما يبدو لي اقناع عامر الطفيل بان يزف اليّ شقيقته في متناول يدك ، مع إقراري بضلاعتك . فإن حوران باسرها لتضيق بهذه المعجزة . واذا ملكت الوسع فإنك لمن رسل السماء !

وتأججت فيه هواجسه . انه لبعيد عما تزخرف له من وعود ، وقد اضاع اليقين . فهتفت تأبى ان تهون في ما تبايع عليه ، وما ترضى لنفسها الكسوف : واذا اقنعته ، فماذا يكون ؟

– يكون اني اقرّ لك بالسيطرة على العنيد الجموح !

فأعلنت باعتداد لا يهاود في انجاز : لا تيأس من نفيسة !

فعاد الضحك المرّ يساوره . وقال بزفرة طافحة بالامتراء : أتكون نفيسة مخطوبة الى فتى من انسباء عامر، ويجوز لي التفكير في الزواج بها ؟... عامرٌ صلبٌ ، لا ينبو في المحارم ، يا عفراء . وعد نسيبه باخته ، وستكون اخته لنسيبه . ولا يحلّ عامراً من وعده غير الموت !

فشددت في القول ان عامراً لن يخيبها في ما تلتمس منه . فأعلن هادي محفوظ ، وما برح ضعيف الايمان : اذن امري بين يديك ، فتدبريه . وما دمت تقيمين ونفيسة تحت سقف واحد ، فابلغيها اني بالانتظار !

وتكلم بلسانه قلبه . فانه لينتظر يوم الفرج بصبر وهى . وتحدث عن حبه فقال انه يكويه . ولكنه يمعن في ضغطه لئلا يفضحه. وليس للرجال، وقد جُبلوا من صوّان، ان تظهر فيهم لوعة الغرام. بل عليهم ان يتجلدوا في منازعهم ، كأن ليس بهم عاطفة

هذا رأيه في الحب . فالمرأة وحدها ذات حق باظهار ميول قلبها .

اما الرجل فلم يخلق ليرتمي عند اقدام النساء . وكان عنيفاً في لهجته ، جريئاً في ابداء رأيه . قالت عفراء متأوهة : ان من يملك عاطفته لسعيد !

وهزت رأسها اشفاقاً منها على نفسها. وانصرف هادي محفوظ وقد عقد عليها كل رجاء . وما كاد يتوارى حتى اطلت نفيسة . فصاحت عفراء وربة الدار صيحة الابتهاج. وقالتا بكلمات تكاد تكون واحدة : منذ دقيقة كان هادي محفوظ بيننا . لو تقدمت بضع خطوات لوقفت منه وجهاً لوجه . كنا نتحدث واياه عنك !

فأشرق وجهها وتورّد. وقالت عفراء: انه ليحبك، يا نفيسة، ويجد فيك مناه !

فعقدت لسانها البشرى . وخفق قلبها شديداً . ووقفت في وسط المكان باسمة، و كأنها خاضعة لسلطان السحر. قالت ربة الدار: ولقد وعدته عفراء بان تخاطب في الامر اخاك عامراً، وتقنعه بضرورة زفافك الى ضابط صرخد !

فأذاعت عفراء بالاعتداد المتمكن منها : اجل، بهذا وعدته. ولن يخيب لي عامر رجاء !

وتناوبتا في محادثتها . فكل واحدة منهما روت لها ما كان . وفتحت نفيسة اذنيها معاً تصغي بهما الى عفراء والى ربة الدار . واتفق لهما مراراً ان تكلمتا معاً . قالت شقيقة عامر الطفيل : ولكن أيرضى عامر ؟

ودهمتها الريبة الممضة كهادي محفوظ عينه . قالت عفراء : ولماذا لا يرضى ؟... لن يكون الهمام النجد غليظ القلب !

وظلت تعلل نفيسة بالأماني العذاب. ونفيسة بينا ترى الهناء في قبضتها ، لا سبيل الى افلاته منها، اذا بها تتخيل نفسها في حلم خاطف، استيقظ منه قلبها مغموساً في الحداد ...

٥

توهجت شمس تموز، ١٩١٧، عضوضاً موتورة، فيما تحتل قوات الشريف فيصل مدينة العقبة في الاطراف الشمالية من البحر الاحمر. ومع عياء الجيش العربي لم يتعب رجاله في الانسلال اليها. فالعثمانيون نأوا عنها حيال ما كابدوا من جحيم المدمرات الانكليزية والفرنسية الجيّاشة اللهب. الا انهم جلوا عن فسحتها وهي دمار. فلا طعام فيها، ولا حياة، كأن الموت نشر عليها العفاء

وتململ الجند العربي. اين ما يقتات به في البلدة المتهدمة، الغارقة في الانقاض؟ ... والتفت الى سرح النخيل فما استطاع ان يسد منها رمقه، وثمارها ما تبرح عجراً، كالحصى. ومال فيصل على «لورانس» يقول مستنجداً برفيق الرحلة: العون، يا صاحبي، والا مالوا عن النصرة. اركب الى مصر واستجر باخوانك. اصبحنا في مسيس الحاجة الى المال والزاد!

و «لورانس» شعر بحرج المأزق. فلن يقاتل الجندي وقد خوت احشاؤه، وخارت قواه. قال الضابط الانكليزي بحزم المقدام: يميناً، سأركب الصحراء الى مصر. ولن اعود الا والسفن تشحن المؤن والاعتدة. فليس لجهدنا ان يتحطم وقد اوشك ان يسخو بالجداء!

والتهمت به الناقة القفار الى وادي النيل الممراع. فذابت امامها الفدافد الفساح وما برحت ازاء فدافد فساح. فالطريق الى مصر سحيق. والصحراء بوتقة تغلي على مرجل. وكوت الشمس اللاذعة «لورانس» فاحتمل، وهو يحس بكونه يذوب ضنى. وعرّج على واحة بتول، شمخ نخيلها وتاه، فعقد

عليها من اجنحته سماء خضراء. الا ان السعي الى الهدف يقدر السرعة، والا تداعت الهمم، ونفرت عن التأييد. فعاد « لورانس » الى وثبته العجلى، وهو يعبّ من الواحة الماء ، ويملأ القرب بكدح ومضاء

ومصر لا تبرح قصية. وسكب فتى المغامرات على وجهه الماء الزلال كي ينتعش . على انه اذا انتعش في الواحة فقد يهون في القفر . ولم يرقب ان يدركه الليل كي يسير في مطاويه الرفيقة الى مضارب بني امـه . فالموقف يفرض الدأب ، وما كان « لورانس » بالمكسال

وحثّ ناقته «غزالة» الى ترعة السويس، وهو في حيرة ضربت على عينيه غشاوة كادت تعميه. اذا لم يبلغ مصر في موعد قريب ، ويحمل منها الوفر، والعتاد ، والزاد ، انتثر الشمل ، وكأن ثورة العرب حصاة في قعر مهواة

وترجح « لورانس » على امل ويأس ، وخشية وهمة . أتخفق الوثبة ، وينطوي الجناح المبسوط ؟ ... أيعد صديقه فيصلاً بالنجدة ولا يوفق لها ؟

وفيصل وحده يقاتل . وانه ليخوضها بصبر ، وعزم ، راضياً بالمشقة ، والضيق. على ان من حق هؤلاء الاعراب ان يشبعوا، وما يطيق ان يبصرهم في ضنى ، وهم فلذ سويدائه ، وذرات دمه

وطوى « لورانس » ليلة على ليلة يعاند في الغفوة ، بل في بعض تهويم. فلن ينعقد له جفن الا وقد احرز البغيـة . عندذاك يحق له ان يستريح . فمن شمّر للغلبة يستخف بعياء الجسد ، وعليه بعث روح ، بل نشر امـة كاد يطويها القعود والاسترسال في الغفلة

وتلت القفار القفار ولا منفـذ الى رجاء . رمل على متادي الفساح . وسماء بلون الرمل ، شاحبة ، غبراء ، كأن من يدرج في هاتيك المهامـه

في قفص رحيب ، ضيق ، مع كونه عاطلاً من القضبان

واستبسل « لورانس » . ولذعه الحر . ورعى في جسده القمل يمتص دمه . واقلق جنبيه السنام . ونهك روحه السهر والكدح . وما زال يتابع مسيره يأبى ان تساوره ونية . انه لمن فولاذ راكب الناقة السبوح . وكادت ناقته تحرن لفرط التعب ، ولم يتعب . ولاحت له لطخٌ سود . اين هو ؟... هل اشرف على ارض مصر ؟

وغالب الشدة . ولكز مطيته . لتكن صقراً جموحاً . وبلغ اللطخات السود . هذه ترعة السويس تنتشر امامه ، وفيها ما اقام العثمانيون من خنادق ومتاريس ليغزوا الترعة ، ويحتلوا مصر ، فارتدوا مدحورين . ولكنها خنادق ومتاريس مهجورة ، لا ظل فيها ، ولا حياة . فزفر « لورانس » وهو الحيران ، المكتوي بمضض اللهفة الخانقة . هل اضمحل الرجاء ؟

وقدر على نفسه الاستماتة في ادراك المطلب ، وما زال على مناعة اعصاب . ولم تحنه غزالة ، ناقته الصبور . فاندفعت تطوي البيد بسعي قاهر تهون فيه فوادح الغمرات . ووقفت على الضفاف تستروح هواء اليمّ ، ورطوبة الماء . وشاهد « لورانس » كوخاً فوثب اليه . فبدا خالياً من الانس ، الا ان آلة هاتف توسدت ارضه ، فلاحت فيها للورانس خشبة الانقاذ . وهتف بها ينادي على غير هدى : انا ، انا « لورانس » ، فمن يفتح لي اذنيه ؟

وسمع صوتاً انكليزياً خالصاً . ضابط الجانب الآخر من الضفاف يجيب . قال « لورانس » وقد تنفس عن اطمئنان : اني لمقبل اليكم . فادفعوا اليّ زورقاً يبلغ بي نواحيكم . لي خمسة ايام في الصحراء !

واقبل الزورق . فنفض « لورانس » منه العياء كأنه ما قاسى نصباً .

وانساب وناقته الى وادي النيل على مفرش الماء ، تزدهي في صدره الاماني الخضال. وبدا للضابط الانكليزي بثوبه العربي الصرف. وتصافحا بمودة. قال «لورانس» وما التفت الى نفسه، بل الى رجال الثورة في العقبة الجياع، القانعين من الطعام بالبلح الأعجر: الزاد ، الزاد الى الثائرين العرب . فهم في العقبة يتضوّرون جوعاً . لنسرع بامدادهم بكل ما لدينا من مؤن ، والا ضاع علينا مجهود لا نستعيده في اعوام !

وسأل عن القائد « اللنبي » ، قائد جيوش الحلفاء في الشرق الأوسط . فاعلن الضابط ، حامي ترعة السويس : هو في القاهرة ينتظر !

فأقلق الانتظار « لورانس ». فالى متى تسود البرودة الانكليزية ، والى اين تمتد، والمأزق في ابعد مدى من الحرج، والروح على وشك الاضمحلال ؟... وما كلف نفسه الاستراحة. بل انقض على القاهرة بمضاء النسر المديد الجناح. ولم يكن يعرف القائد « اللنبي »، فمثل بين يديه ببرنسه الأبيض ، وكوفيته، وعقاله . فتعجب « اللنبي » من مرآه في هذا الزيّ الناطق ببيان البوادي ، والمعيد وجه هارون الرشيد ، وصلاح الدين . واكبر الاقدام . واصغى . قال لورانس : نضجت الثمرة . ولم يبق علينا الا ان نقطفها ، يا مولاي . اصبح رجال الشريف في العقبة ، وهم يرقبون الذخر والزاد . فلنسرع في المدد ، قبل ان يعرو الفشل رفاق السلاح !

وانتصر لاخوانه العرب . وامتدح فيهم الصدق في العون ، ورباطة الجأش ، والازراء بالشدة . وعرض حاجاتهم . المال ، المال . وهو عصب الحرب . والغوث ، الغوث . ولا غنية عنه ليوقن جميع العرب بان ثمة رغبة صحيحة في المساندة ، وما الدعوة الى الثورة اضحوكة . فأبان القائد

« اللنبي » بمستفيض النخوة : ان حماستك لتروقني . هـذه ستة عشر الف دينار انكليزي ذهباً، هي كل ما نحوز الآن. فادفعها الى حلفائنا في العقبة. وشيكاً وتبصرونني في طريقي الى القدس . واني لاحيي فيكم الثبات ، وهو رمز البطولة والانتصار !

ووفى « اللنبي » . فزحف الى فلسطين . ولكن بعصب المتأني . ونزلت قواته شواطىء يافا ، يمهـد لها الاسطول . وسلكت طريق القدس تلقى صدام قائدين عنيدين ، « فون فالكنهاين » الالماني، ومصطفى كمال التركي . على ان وفور ذخائرها ومعداتها ، ونصرة العرب ، كتبا لها التقدم . الا انها احرزته ببطء ، خطوة خطوة ، كأنها السلحفاة في سعيها الوئيد

ووفـدت المؤن ، والسيارات ، والدبابات ، والمدافع ، والأدوية . فالجيش على اوفى تنظيم ، وكل ما فيه يرشح بالاهبة . وانضم الى جيش « اللنبي » لواء المتطوعين الفرنسي، ومعظمهم من لبنان وسوريا، هفوا سرعاناً الى انقاذ وطنهم من كدمات النير

ومال الجيش العربي الى الاتصال بالفرنسيين والانكليز النازلين في الضفاف. فانضم فيصل وربعه الى قوات « اللنبي ». وتولى نوري السعيد قيادة الجيش العربي المستقل، المردود امره الى شريف مكة الحسين بن علي. وتقاسم الفريقان العتاد والزاد، يجمعهما روح واحد، هو روح استلال الظفر. واعتنى الاطباء الانكليز بجرحى العرب. ومن عزّ عليه الشفاء في المستشفى العربي، انتقل الى مضارب الجرحى الانكليز والفرنسيين يستشفي فيها . وهو ما صار اليـه مجيد حريز . ما آتاه البرء في مصح الجيش العربي، فاتفق معالجوه على ضرورة المسير به الى دور المداواة الحليفة في ضواحي القدس

وشقت به ناقةٌ وثابة بطون الفيافي الى مغاني الرحمة . وخاف عليه سائقها من لفحات الشمس، فأقام له من عصاه ومن عباءته شبه هودج يقيه عضات الهجير

وسمع هدير سيارة ، فانتظر . هل له ان يرجو عطف القدر على باسل مكلوم، استعصت نجاته من اشداق الخطر؟...ولاحت ذات الدواليب، فابتسم الأمل للسائق الشفيق . وبات يتحرك من رأسه حتى اخمصيه كي يلفت اليه السيارة الواغلة في الرمال . فيموج ويصيح ، ويهوي على الرمل فيتناوله بيديه ، ويذروه حفنات ، فينعقد غباراً يستصرخ المنجدين

ووقفت السيارة ، بل جنحت الى سائق الناقة تستطلعه امره . فهتف : العون، العون. والله، ما اضطجع على السنام سوى مجيد حريز، البطل الجريح . واني لاجوز به الفلوات الى خيام الانكليز . وهذه رسالة من « رورانس »، اخي المغامرات، تدعو الى الاهتمام بامر الدنف العاني. المروءة، وانت فتاها، ايها السيد الرفيق !

فاطمأن سائق السيارة وهو يسمع باسم « لورانس » . وأبى ان يتنكر للمعروف ، فهتف بالمستغيث : أنخ الناقة . لا يزال في السيارة مكان يتسع للجريح . اما انت فارجع الى ابي اللسان ، وابلغ اخوانك ان الضابط فهداً اليعقوبي تولى امر العليل الكسير !

وفهد اليعقوبي رسول القائد « اللنبي » الى نوري السعيد. حمل من القائد الانكليزي الى القائد العربي رسالة يتحدث فيها « اللنبي » عن موعد احتلال القدس ، وعن ضرورة اقتحام الأزرق وحوران ، لئلا يطول موعد فتح دمشق . واتفق السعيد و « لورانس » على الجواب . فابلغا القائد الانكليزي ان قبائل نوري الشعلان انضمت الى العرب، وانها عاهدت على الاخلاص. فلن

تلقي سلاحها الا والجيش العربي ينزل عاصمة الأمويين. على ان هذه القبائل بحاجة الى المكافأة. فلتمعن القيادة العليا في السخاء بالمال، ولتعجل في دخول القدس . والقدس ركن من اركان السلطنة العثمانية في الجنوب

وهذا الجواب حمله فهد اليعقوبي الى القائد « اللنبي » . وفهد من ذوي الجرأة الوقحة ، البالغـة في بعض المواقف آخر حدود الجنون . فيغير على الدواهي باستخفاف من يلتمس الموت. الا انه ما عدم الحنكة. فاعتمده القائد « اللنبي » في مكاتباته الخطرة. وآمن به ، وكأنه يوفد، حين يوفده في احدى المهمات ، طيارة مسلحة

وقاد مجيداً الى المضارب الانكليزية . وكان يلقي عليه بين حين وآخر نظرة مستوضحة . وراعه منه شبابه ، ووقاره ، مع اكفهراره وغشيانه . وما بلغ المضارب حتى اسرع الى احد اطباء الجيش يطلعه على امر الجريح، الغائب الحاضر ، ويطرح بين يديه رسالة « لورانس » . وما توافرت العناية لمجيد حريز ، حتى كان فهد يستأذن على القائد « اللنبي » في مقره الحصين

ونظر الطبيب في حالة مجيد وقلب شفتيـه ، كأنه لا يؤمن بالشفاء . وعاد يجسّ النبض ويلقي اذنـه الى القلب . فالقلب موزون الضربات . ولكن الخوف من فوات الاوان . فانقضت على الجريح ستة اشهر وهو في غيبوبة لا تأذن في طويل يقظة . فالرصاصة النازلة جبينه ابت عليه ، الا لماماً ، استعادة الصواب. وعكف الطبيب على المعالجة برغبة في صادق الانقاذ. وساءل نفسه هل يقوى على ما تضاءل عنه اطباء المستشفى العربي ، وما استطاعوا ان يدرأوا عن الجريح الساهي قسوة الاغماء ؟

وغار المبضع الانكليزي في السلخ والاحتزاز لا يشفق. ولم يكن شاهره

يصدق ان مجيداً سيمزق عنه سدول الغشيان . فكل ما اطمأن اليه ضميره انه قام بما عليه

وابتسم حين تراءت له النجاة موفورة . وآمن بانه حيال معجزة من معجزاته . فما عزّ على سواه هان عليه. والطبيب يجد في نفسه، حين يشفى من يعالجه ، صورة ناطقة للخلاّق ، وقد اسبغ على من يداويه نعمة الحياة، وانتشله من مبالغ الارماس

وفتح مجيد حريز عينيه، واجالهما في ما حوله، فلم يفهم. ماذا يرى؟... واخذ يطبقهما ثم يفتحهما وهو يحسب نفسه في حلم طويل . فأين هو ؟ ... ان الحقائق لتحتجب عنه مغلّفة بالضباب

وتذكر ما كان منه في المعركة الأخيرة . لحق بقطار جمال باشا فصرعه الرصاص. وغاب عن نفسه فتلاشت في وعيه الصور، كأن دهمه الانطفاء . واذا ما استفاق ظل معقود الادراك ، فلا ينجلي له المحسوس ، كالغائص في بحران. اما الآن، فما هو حاله ؟... هل سلخ من عينيه غشاوة السهو ، وخلع عنه خدر الصواب؟...وعلم مما يلوح لناظريه انه في مستشفى. ومرت بجانبه ممرضة ترتدي الثياب البيض ، فحدق اليها كأنه يدعوها اليه. فاقتربت منه تقول بلغة عربية متقلقلة ، ترفدها بسمة مطمئنة : انت بخير !

فجمجم بجهد مستوضحاً : اين انا ؟

فاعلنت بمرح: في مستشفى بريطاني، في ضواحي القدس . احتل في هذا الصباح الجيش الانكليزي المدينة المقدسة !

في القدس ؟ ... اذن انقضى عليه زمن طويل في غفلة عما يقع من احداث. كان يقاتل في وادي ابي اللسان. واضطر الى اجتياز مسافة بعيدة

في بلوغ الخط الحديدي الممتد الى بيت المقدس . وهي مسافة لا تطوى في اسبوع في الحروب . فكم مضى عليه في ازمة اليقظة ؟

وتكاثفت في ذهنه الاسرار . هل حمله اخوانه الى القدس يخترقون به المضارب العثمانية غير مكترثين للعاقبة الخطرة ؟ ... ان في الجيش العربي مستشفى للجرحى كان يستفيق في ظلاله ، فلماذا لم يبقوه فيه ؟

وشاء الامعان في الكلام والاستيضاح . فلم تسعفه قواه، وما برح ذلك الضعيف . فنام وحلم بعفراء ، وبانقطاعه الطويل عن مكاتبتها . واستيقظ يطلب قلماً ورقعة . أليس له ان يلتفت الى من اودعها مهب الانواء، فتعروها الخشية ، ويخضخضها البلبال ؟ ... واذا بضابط يدخل عليه ويخاطبه بلغة عربية خالصة . قال : انا جئت بك الى هذا المستشفى . كنت مطروحاً على سنام ناقة تجوب بك القفار . فخاف عليك السائق من القيظ المستأسد وعهد اليّ في امرك . فانطلقت بك في سيارتي الى هذه المضارب ، وهي بجوار القدس . والانكليز استولوا اليوم على المدينة . ودعا القائد « اللنبي » الضابط « لورانس » كي يشهد بنفسه احتلال البلدة الخالدة . وظهر لي من « لورانس » انه يجلّ فيك البسالة . فما أطل على القدس حتى سألني عنك . واوفدني اليك للوقوف على اخبارك . وهو يرجو ان تكون لقيت الشفاء. ومما يبلغك اياه ان عودة ابا تايه صاحب الفضل في المجيء بك الينا . انقذته فأنقذك . واحدة بواحدة ، يا أخا المروءات !

فاجتهد مجيد في الابتسام. تجلى له السر. قال الضابط: انا فهد اليعقوبي ، من الضباط العرب في الجيش الانكليزي. فماذا تطلب مني ابلاغه «لورانس» وابا تايه من رغبات ؟

فاستطاع ان يغمغم بابتهاج : جزيل شكري !

وغلب عليه العناء فأصابه الخرس . كان بوده ان يكتب الى عفراء . ولكن من يحمل اليها رسالته ، بل من يجبرها ؟... وحاول تسطير الرسالة فنبا عنه الوسع. سيكاتب ابنة عمه يوم يملك القوة. وعاد الى رقاده القهّار. وظل اسبوعاً طويلًا بين يقظة وغفلة . خشبة مطروحة في مهد . الا انها خشبـــة بدأت تحس بعصير الحياة يتغلغل في مطاويها . كأن التغلب على الاضمحلال كتب لها في ذمته ، بعد طويل سلوان

ولمعت في مجيد العافية. ولكن على بصيص، كصفاء الجو بعد الزوبعة. وما تنجلي السماء الزرقاء على سوى متعدد المراحل. من سكون، الى انقشاع، الى اشراق . وهو تسلسل الحلقات في الدائرة . ولكل انتفاضة نظام

وها هو ذا مجيد حريز يستوي في سريره الابيض بعدما كان لا يقوى على الحراك. وها هو ذا يتكلم بملء فيه ويجد نفسه اعجوبة وقد نهض، وزحف ببطء بين اخوانه الجرحى ، ومشى . واندفع على مهل الى باحـة المستشفى متوكئاً على عصاه ، ومستنداً الى الجدران

وجلس في ظل شجرة من النخيل يتأمل ما حوله، وقد اوجعه ان يصير الى هذا الهزال . وشاء الكتابة الى عفراء فارتجفت يداه . فما يقوى على تسيير القلم في القرطاس. وتأوه مشفقاً على نفسه. انه لنحيل كليل. واطلق باصرتيه في اولئك الرفاق المنتجعين العافية . وساءل ضميره أيكون جميع هؤلاء مثله ، لا عزم ، ولا طلاقة حركة ؟ ... متى يدفع عنه السقم ويبيت بهمة الاصحاء ؟

واختلج وهلة. انه ليبصر بين هؤلاء المستشفين من يخيل اليه انه يعرفه.

أليس الفتى ، المستقر بالجانب الآخر من الباحة ، ابن عمه نجيب حريز ، شقيق عفراء ؟

وساوره الريب . من حمل نجيباً الى ما وراء خطوط النار ، وهو في سجن معلقة زحلة يعاني العذاب ؟ ... هل استطاع الفرار ؟ ... وكيف اندغم في صفوف الحلفاء ؟ ... ان مجيداً ليرى نفسه مخدوعاً . هذا من يشبه نجيباً ، لا نجيب حريز بعينه . على ان الفضول تحفز في مجيد للالمام بالواقع . وشاء ان ينادي من لاح له فيه ابن عمه ، فما ارتفع صوته عالياً . وما حفل به المنادي ، ولم يسمعه ، فبقي مكانه لا يبالي . فقال مجيد لخاطره المرتبك : هل اخطأت عيناي ؟

لا . ما اخطأتا . هذا ابن عمه في قامته ، وشكله ، وخطوه . ودعا اليه مجيد احد الممرضين قائلاً له : جئني بهذا الرفيق . اراه من انسبائي !

واشار الى من يتوهمه نجيباً . وما ظهر له وجهه مرة اخرى حتى هتف مؤمناً بصدق باصرتيه : هذا هو . نجيب !

وانفتل المنادى الى من اخذته فيه الشبهة ينعم فيه العين ، ويكدّ في قراءة ملامحه . فلم يعرفه . واذا به يهتف بشدة يمازجها الارتياع : مجيد ؟...انت ؟

فغمغم مجيد : انا هو ، يا ابن عمي !

لا . لا . ما اخطأ . فهو حيال شقيق عفراء . كلاهما في المستشفى . وسبق العناق الكلام . وازدحمت في الحنجرتين اسئلة تضيق بها الشفاه . والاثنان اصابتهما الجراح ، وان يكن نجيب دون ابن عمه في بلاغة جرحه . قال مجيد يستفهم بلجاجة : كيف برحت زحلة ؟ ... من قادك الى هذه الارجاء ؟

فاستوضح نجيب بالالحاح نفسه: وانت ما بك حتى ضمك هذا المستشفى؟

فأبان مجيد: لحقت بقطار عثماني يقلّ جمال باشا، فصرعني رصاص العثمانيين!

واشار الى رأسه يدل على الجرح ويقول: كدت ألقى حتفي... ولكن العناية...

وسدد الى السماء نظرة شكر وابتهال. فقال نجيب: ولكنك هزلت حتى بتّ لا تُعرف. فأين عافيتك، وكنت ذا صحة يغبطك عليها الصوّان؟

فاستقصى مجيد: وانت ما جاء بك الى معسكر الحلفاء، فاختلطت بالفرنسيين والانكليز، وما ازال امثلك في سجن المعلقة، كما حدثتني عنك عفراء؟

ما جاء به؟... ولكن جميع من في سوريا ولبنان لو استطاعوا ان يقبلوا لجاؤوا. أيدهمهم الموت، على متعدد ضروبه، ويتسع لهم الى منتدى الرأفة، وتطمع نفوسهم المعذبة في البقاء؟

واوضح نجيب فقال: كنت لي قدوة فتأثرتك. فان شوقي الى الانتقام من الظالمين مال بي الى ناحيتك. أتدري ما لقيت في معلقة زحلة من الحيف؟... كنت أُجلد في كل يوم لاجلك. فتضخمت رجلاي. وامسيت لا اقوى على الوقوف. والوغد نوري بك لا يميل الى الرفق بي وبعمنا سليم. كان يجلدنا بسوطه، كأننا من المواشي، بل من الوحوش. فيسيل منا الدم، والسوط ينهشنا. والذئب مقطب الوجه يريدنا على ما هو اقسى وأمضّ!

فصاح مجيد، وما ان يذكر نوري بك حتى يفور: يا للدنيء. أما شبع سفالاً؟... والله، ما ضللت الا وقد ابقيت عليه!

فاذاع نجيب يفيض باشجانه: واقسمت، وانا في محبسي، اعاني وعمي الشدائد النكر، على الاخذ بالثأر. وما تباطأت. فما كدت املك

حريتي حتى علمت ما اصاب عفراء، وما كان منك فيها . فركبت الليل الى سهل البقاع اطويه الى مرج ابن عامر . ومن ذلك المرج قادتني قدماي الى مضارب الفرنسيين . فاسروني ودفعوني الى قائدهم . فرويت له حكايتي . وصارحته باني لبناني من زحلة. اهاب بي الطغيان الى مقاتلة اربابه. فانطلقت الى صفوف المنقذين اكافح الشر ودعاته. وأجتهد في محوه من ارض قومي. فشاق القائد الفرنسي ان يصغي اليّ ، ووثق بي . وما تردد في قبولي بين جماعة المتطوعين . وفيما كنا نهاجم ، في الضواحي، كتيبة عثمانية ، اصابتني في زندي رصاصة حطمت عظمي. فأقمت في هذا المستشفى ريثما يندمل جرحي ، واستعيد قواي . ألا اين عفراء ؟

فاجاب مجيد وقد ادهشته غرائب الاقدار : في حوران !

— وحدها ؟

— في دار آل الطفيل ، في صرخد، بجانب شقيقة عامر الطفيل ، رفيقي في الجهاد !

— ألا تخشى عليها ؟

— اعتقد ان لا خشية على عفراء !

— أتكاتبها ؟

— ومن اعتمد في مكاتبتها ؟

— اذن هي قلقة عليك !

— على اني سأراها. لا احسبنا نتأخر في احتلال سوريا ولبنان. ولكنك لم تحدثني عن امي وامك وعمنا !

وانتظر ان يسمع اخبار الاهل والرفاق . فزفر نجيب كأنه يئن ،

وقال: وهل عفا الموت عن حي في لبنان؟...من لم يمت جوعاً واستشهاداً، مات رعباً وغمّاً !

فصاح مجيد والهلع يدمغه : هل ماتوا ؟ ... هل ماتت امي وامك ، وطاولت المنية عمنا ؟ ... قل ، قل . اراك تنعاهم اليّ !

فنشر قولته بالتياع : رحمهم الله . لقد ماتوا . امي لم تحتمل جلاء عفراء عن المنزل . فما غابت عنها اختي حتى ادركت مقدار الويل ، فاختلستها المنون. وامك فقدت من يلتفت اليها بنأيك، وباحتجاب عفراء عنها، فلفظت انفاسها وفي شفتيها اسمك . اما عمنا سليم فلم يحتمل ما دهمه في السجن من عذاب، فتلاشى. وهو بعض ما جاد به علينا العثمانيون من نكبات. جعنا ، ومتنا، واضعنا سيادتنا. وكيف اطيق البقاء في ارض يستنسر فيها الظلم ؟

فما انفك مجيد يستوضح بنواح : هل ماتت امي ؟

وودّ ان يسمع انها تنعم بالعافية . وعلقت عيناه بفم ابن عمه . أما يرفق به نجيب ؟...ولكن نجيباً بحاجة الى من يرفق به . قال متلهفاً: ماتوا جميعاً، وأسفاه. وخلت منا ومنهم الدار. على ان لبنان باجمعه بات خالياً، وما تبصر فيه غير جثث عافتها الحياة !

وبكيا معاً. موتى زحلة تنعقد مناحتهم بجوار القدس. واندلعت الحسرات. موكب من الاسى والدمع يتهادى في جنازة الذكريات السمان . وشعر مجيد بالعبء الراسي على كاهله . فالضحايا الثلاث ذهبت بهم رعونته ، وقد انتصر للحمية . أيكلف الانتصار للحمية هذا القدر من النائبات ؟ ... فما اغلى الكرامة ، وثمنها ازكى الارواح !

وسكت المفجوعان باقرب الناس اليهما لينغمسا في اللهفة . ان من فقدا

ليعزّ فيهم السلوان . وحمل الفضول مجيداً على خرق جو الصمت الحزين . فسأل عن زحلة ، وعن اخوانه فيها ، وعما تكابد من تعس وعدوان . فأبان نجيب: حسبك ان تعرف من امرها ان البردوني انقطع عن ترانيمه، وأمسى لا يجرف غير الاشلاء !

وطالت احاديثهما المخضبّة بالمرارة والجزع. فما ابقيا على خبر الا سرداه. وتحدث مجيد عن فيصل ، ولورانس ، وعودة ابي تايه ، وعامر الطفيل . ونفث نجيب ما لقي من اهوال قبل وصوله الى القوات الفرنسية . كيف كان يختلط في طريقه بابناء القرى، ويزعم على مسامعهم انه جندي عثماني متنكر. ويدعي على مرأى من الجند انه من القرويين . وهي مهمة شاقة تحتاج الى حيلة واسعة . ولقد ملك الحيلة والدهاء ، ونجا من الويل مع وميض الموت مراراً في الرحلة الحافلة بالاخطار

قال مجيد: العرب والفرنسيون حلفاء. فأنى كنا فنحن في صف واحد. وكلنا يجاهد للحرية ، ويستميت في تحرير الاوطان . طال علينا الرسوب في اغوار العسف والظلام !

وقال نجيب : الرصاصة المنطلقة من صفوفنا رصاصة انقاذ ، سواء اطلقها الفرنسي ، او الانكليزي ، او العربي . فالمرحلة مرحلة تفكيك اصفاد !

واطربهما ان يعودا الى لبنان في جيش الخلاص . فالارهاق في العهد العثماني ما عفّ عن الجسد، ولا عن الروح. فعقل الفكر. وغلّ اليد. وبسط الحيف . فما يدرج الحرّ في سوى انفاق وديناميس ليتقي البطش ، ويأمن الاعتقال . واذا سرّ مجيد حريز وابن عمه ان يسلما من الانحناء للطغاة ، ومن تدنيس الجبين بالمذلة ، فما جهلا ما يزال عليها من جهد لدرء المحن عن

بلاد خدّرها الطغيان، فأضحت شلّاء، عمياء، ينزل بها الهوان وما في الوسع ما يبيح لها صدّ النائبة المغيرة عليها بمخالب واضراس . قال مجيد متحمساً للفداء المقدور : وهبت نفسي لقومي العرب ، يا نجيب . وسأذود عن امتي ، وانتقم لضحايانا !

فأعلن نجيب : كلنا فدى لبنان !

وما اختلفا في التفسير . فاللبناني عربي في شرعهما . ولم يكن ثمة من يذهب في التأويل مذهباً تلتوي به الحقيقة الصراح. فيقيم الحواجز والسدود بين اخوان تجمعهم وحدة الروح ، ووحدة الذمام !

٦

– الى دمشق !

صيحةٌ حمراء، ذات لهب، انفجرت في حناجر العرب الاباة، ونفوسهم تغلي حنيناً الى البلد المثقل الهامة بالمجد والفخار

– الى دمشق !

هتاف اضحى صلاة . وصرخة باتت امنيـة . وهدف امسى قبلة كل عربي سويّ الخطو ، مرفوع الرأس

وأحس الشريف فيصل بانه اصبح عاجزاً عن الامساك بهـذه الالوف المتحمسة ، الشاخصة بابصارها الى البلد العربي الأمين ، فصاح مع الصائحين : الى دمشق ، يا اخواني . فهي طلبتنا !

على ان الرأي ما يعلن القائد « اللنبي » ، سيد الحملة . وما ابتغى القائد الانكليزي غير الوقوف بباب عاصمة الامويين ، والزحف الى سويدائها . فلم ينزل القدس كي يبقى على الدهر فيها . ولكن ازاءه قوات عليه بارهاقها . ولم تكن عثمانية وحسب ، وقـد جمعت الالمان والنمسيين . واذا التوى الجندي العثماني، وركن الى الفرار، فما كان الالماني والنمسي ليلتويا ، وهما من الدائبين في الثبات حتى في انكد مأزق . فانهما ليجرعان كأس الموت بملء الرضى ، ولا ينثنيان عن الوكنات

الا ان الابطاء استنفـد الجلد . واعتزم « اللنبي » الوثوب لئلا تتداعى الهمم . فضرب يوم ١٩ ايلول ١٩١٨ موعداً للهجوم على درعا ، في حوران . ووقف بين يديه « لورانس » يقول : انا امهد الطريق . فليهب لي مولاي

الفي جمل فأقودها من وادي ابي اللسان الى عمان، ومن عمان الى حوران. فنبلغ درعا والجيش يسندنا، ونفتتحها تساعدنا عليها المدافع والطيارات!

والقائد «اللنبي» وثق بهذا الشجاع المؤمن «لورانس». فقال: هي لك. فخذها، ايها الفتى المغامر، وعبّد لنا النهج!

وما رام «لورانس» الا ان يزحف العرب في الطليعة ليحرزوا فضل الفتح. هم حرروا ديارهم من الطغيان، لا سواهم. فالحراب العربية جلت المستعبدين عن الوكر، لا الحراب الاجنبية. ودعا الى اقتلاع سكك الحديد. لينسفها العرب على متعدد الاميال. وحقق ما نشد. وسقطت عمان بعد عنيف النضال. ومشى الجيش المحتل الى درعا يغزوها. بيد ان الالمان والنمسيين هناك يحمون التخوم والدروب بسواعدهم وصدورهم. ويستميتون في رد المغيرين عليهم بشمم الأنوف، وجرأة العابث بالمنون. كرامٌ كالغيث. أعزّة كالطود. يتراجعون حيال وفرة العدد، ولكن بنظام نضيد. ويفتك بهم الرصاص والحرمان وما ينحني لهم رأس. فالطيارات من الجو. والمدافع من البر. والجوع في الحشا. ولا كبوة، ولا نبوة. تقهقروا والبسالة تتألق في كل خطوة من خطاهم. وماتوا على بسالة. فما ان يدعوهم قادتهم الى الارتداد الى العرب والانكليز حتى ترسخ في الارض اقدامهم ويرتدوا. فتنطلق نيرانهم، وتصيب، وتنزل بالصفوف المناوئة الضحايا. وما ان يضمنوا لانفسهم بعض الامان حتى يعودوا الى تراجعهم النسيق، غير حافلين بمن فقدوا من مغاوير. ويلحق بهم الجيش الحليف، فتتفاقم المصادمة. ويتعاظم في الالمان والنمسيين نبل الفداء. ضياغم في فوهة عرين

وفي دمشق عصبة عربية تستّي السبيل الى الاحتلال العربي. ومن قادة

هذه العصبة علي رضا الركابي ، وشكري الايوبي ، حفيد صلاح الدين . فخاطبها الشريف فيصل بامر احتلال دمشق، فورد عليه الجواب ان الطريق مأمون . فالدمشقيون سئموا سياسة الطغيان الكاشرة الناب ، وحنّوا الى يوم النجاة ، وقد ضاقت بالظلم الصدور ، واكتوت بميسمه الحلوم

ولكن على الجيش العربي ان يحتل حوران باكملها قبل بلوغ دمشق . وبحث فيصل عن الحورانيين المنضمين اليه ، فاذا بهم ضخام العديد. وتحمس عامر الطفيل فمثل ازاء الشريف مجلبباً بالسلاح، كأنه قبيلة تمشي الى غارة . وصاح بملء فيه : مولاي ، دعني املك شرف تذليل تلك النواحي ، وهي بلدي ، وفيها قومي !

فابتسم فيصل وقال بما فطر عليه من رحابة الصدر : لن احرمك هذه الامنيـــة ، يا عامر . الا ان سلطاناً الاطرش بايعنا على ان يهب بنفسه حوران لنا !

— بلا مقاومة ؟

— بلا مقاومـة ، يا عامر . وانت تعرف سلطاناً . فهو من رجال القول والعمل !

فما استطاع عامر الطفيل الا ان يوافق على مقال الامير . سلطان من قادة حوران ، ومن اصحاب الكلمـة الفصل . قال عامر : انا من جنود سلطان ، يا مولاي . فان لم انل شرف دخول حوران كفـاتح ، فلا اقل من ان ادخل بلدتي صرخد دخول الفاتحين !

فعاد فيصل الى ابتسامته ، وقد أُعجب بالفتى الدرزي الهمام ، وقال : وهبت لك ما تشتهي ، يا ابن الانجاد . صرخد ملك يمينك !

ودفعه وكتيبته الى شقّ حوران لبلوغ صرخد، وله فيها السلطة المطلقة. وعامر لم يكن يطمع في بغية اوفى. بات يقوى الآن على تحقيق انتقامه من هادي محفوظ، الجاسوس العثماني، كما كان يقول فيه. وطوى ورجاله الارض القاتمة يبتغون الازرق. ومشوا في بني امهم الدروز ينادون باسم فيصل، ويحيون الثورة العربية. وحوران على أهبة للمناداة بالامير العربي، وسلطان اعدّها لليوم المبارك. فرحبت بعامر بالاهازيج، وبالازهار، وبالعطور. وشعر الولاة العثمانيون بكونهم على حفاف المهواة، فتواروا. ولم يبق في الميدان غير الانصار. والانصار انفسهم دهمهم الرعب. فهم في حيرة وارتعاد. وهادي محفوظ في صرخد ممن انتابتهم الحيرة. فالى اي فئة ينتمي؟ ... العثمانيون نازحون، او على وشك النزوح، والعرب مقبلون ليرسخوا. ولكن العثمانيين سادة جنود صرخد. اما العرب ففيهم خصمه عامر الطفيل. واضطر هادي محفوظ الى الانتصار لسادته. واكره صرخد على الاعتصام بالهدوء. فليس لها ان تنادي باسم الشريف. فحنق الاهلون، ولكنهم لم يثوروا، وهو يقبض منهم على النواصي بيده القاسية المجدولة. وفي صباح يوم اغبر، رمته الشمس باشعتها الناصلة، كأنها لفرط شحوبها واهنة بيضاء، حجب موكبٌ من الفرسان كثيف، فضفاض، وجه الافق، ناثراً الغبار تلالاً وهضاباً، كقوافل من غيوم مسرفة في الامتداد. وهبّ الناس يسألون ما الخبر. وما طال بهم الوقوف على النبأ. جيش فيصل يزحف اليهم ليبدد الظلمات

ولم يبقَ بد من اظهار الطرب. فاحتشدت جموعهم ومشت الى لقاء الموكب الظافر المندفع اليهم، لا تبالي التبعة. فهاج هادي محفوظ وزأر. وانطلق برجاله الى منع المتحمسين من الاحتشاد، مهدداً بوخامة العقبى.

فقابلوه بالسخر . عهد سادته انقضى وبزغ فجر الخلاص . فغاظه ان يرشقوه بالامتهان، ورماهم بجنوده. وكادت تنشب معركة لهبى بين الجند والاهلين، لولا ان يصل موكب الفرسان المغاوير . فادرك ضابط صرخد ان الصفقة غير رابحة . واهاب برجاله الى التراجع ، وليس له ان تحصده واياهم الغائلة

ولجأوا الى دار الامن يحتمون فيها . وهتفت صرخد للموكب الفياض بالامل ، المتقد شجاعة واقداماً ، الحامل بيمينه مشعل الحرية . وبدا عامر الطفيل في الطليعة. عامر فتى صرخد، واحدى ذوائب النخوة فيها. فتعالت صيحات الاعجاب من كل صدر : مرحى لعامر . مرحى لفارس صرخد البطل وابنها البارّ !

وازدادوا اندفاعاً وابتهاجاً وقد رأوه في مقدمة الصفوف. ونادوا باسمه، وباسم الشريف فيصل، وابيه الحسين. وهزجت له الصبايا ورشقنه بالزهر والعطر. فحياهم ودعاهم الى تأييد الثورة العربية المطلّة عليهم بالمنى العذاب . فهتفوا له ولها . قال : اصبحتم سادة في دياركم . فالامر امركم . وليس لاجنبي ان يتحكم فيكم ، كأنكم من عبيده الارقاء . انتم عرب . ولقد جاءكم العرب بسيف الحق يحرركم من الاستعباد !

فكادت صرخد تميد تحت وابل الهتاف وانفجار الرصاص . فما فيها غير صيحات للعرب الاشاوس ، وللحرية الرافعة جبينها بعد اربعمئة سنة من فادح الانتكاس

وحثّ عامر جواده الى دار الامن يحتلها، وما يرجو سوى تحطيم هادي محفوظ. فالنهزة موفورة. وصرخد باجمعها جرت في اثره، تثب على دار الامن لرفع العلم العربي عليها . ووقف هادي محفوظ برباطة جأش ينظر الى هذه

الجحافل الزاعقة بنشوة تترجح على فرحة وقسوة في هجومها على حماه، وهو لا يتفوّه بكلمة . فلم يشأ ان يدعو رجاله الى اطلاق النار ، وقد علم ان عامراً يقود الهجوم . ربما ارداه . وما يكون من نفيسة وهي ترى اخاها قتيلاً برصاص حبيبها ؟... وعزّ على ضابط صرخد ان يهرق الدم، وهو دم اخوانه الخلّص ، ولم يبقَ في اليد حيلة . وما النفع من المجازفة وله عنها غناء ، ولن تسفر عن مأمون الجدوى ؟... فاللهبة المتقدة في المهج لا تطفئها رصاصات عابرة ، وخيمة الصدى

ودخل عامر الطفيل دار الامن معتلياً صهوة جواده ، شاهراً سيفه. اين خصمه وقد حان موعد التدويخ ؟ ... فنادى هادي محفوظ رجاله ان اجمعوا صفوفكم . ففعلوا واسلحتهم بايديهم ، يأبون ان يعاندوا ، حتى في الملمّ المنذر بالهلكة . فان هادياً ليسيطر ابداً عليهم بصولته وبسحره . ووقف ضابط صرخد على رأسهم ، ولكن دون ان ينتضي سيفه . وشزره عامر بنظرة ماضية كالنصلة ، فما اضطرب لها ، بل دنا من ابن الطفيل وحياه تحية عسكرية ، وعرض عليه سيفه وهو يقول : رغبتي في حجب الدم تحملني ورجالي على الاستسلام الى ابطال الثورة العربية الظافرة. كنا نخدم السلطان العثماني ، ولا يسعنا الا ان نقرّ كعثمانيين باننا مغلوبون !

فساد صمتٌ طويل تخلله اعجاب فيّاح جرى في العروق رعشة سمحة ، مديدة . وعامر نفسه أُعجب بخصمه ، وكان يرقب منه ان يقاوم بصلف وبغضاء ، لا ان يلين باستسلام نبيل ، أشمّ . ولم يكن منه حيال البادرة البليغة الرمز، الغراء، الا ان قال بدفق من ترفع اثيل: ارواحكم في منعة. فالثورة ما جاءت لتنتقم ، بل لتردّ الضالين الى الصواب !

فعلا التصفيق ، واهتز المكان بصيحات التأييد . والتفت عامر الى فئة من رجاله قائلاً بنبرة السيد المطاع : انزعوا منهم اسلحتهم ، ولا تمسّوهم باذى !

وخاطب هادياً بقوله المخضب بمنيف الحلم : يشوق الثورة ان تحجب دم العرب ، وهو دمها . وانها لتهب لكم طلاقة المهزة . فانتم احرار في امركم . على ان لا تجبهوا اريحيتها بالمناكرة . والا احكمت السيف حيث افاضت بالندى . أتريد ان تكون منا ؟

فاجاب هادي محفوظ برزانة : اريد . فالعرب قومي . وانا في خدمة امتي . غير اني لست ممن يرتدون في كل يوم قميصاً . فما دمت وقعت بين ايديكم كاسير عثماني ، فعاملوني كاسير اصطبغ بلون العثمانيين !

فصاح الناس : بل اخلوا سبيله . فهو حرّ . ان في صدره لروح بطل !

وساند عامر الجموع في صيحتها . فقال لهادي محفوظ ، خصمه الالد : وهبتك لهذه الجموع ، يا صاحبي . على انك اذا شئت ان تكون منا فلن نتخلى عنك !

فصرخت الجماهير الفاتحة اذنيها لبيان الضابطين : كن للعرب ، ايها العربي الابيّ . وطنك يدعوك اليه ، فلا تسدّ عنه اذنيك !

فاعلن ويده ترتفع الى جبينه بالتحية الموائمة : لتعش امتي وليسلم وطني . انا حيث يقضي عليّ اخواني بالوقوف !

فهتف القوم للاثنين معاً ، لعامر الطفيل ولهادي محفوظ . كلاهما ابدى الجرأة وعزة النفس . وكلاهما تناهى سمواً وكرماً . وشقّت فتاة ، تيّاهة الوسامة ، الحشد الى عامر ، وبيدها اكليل من الغار ، ضفرته بنفسها لهامة رجل الساعة . فلم يعرفها في البدء . الا ان شكلها دله على كونها غريبة عن حوران .

وخاطبته بمنطق الاكبار ، معلنة بحلو لسان : عامر ، ايها المقدام الانوف ، احسنت وابدعت . ان بين جنبيك لنفساً حرّة . وهذه هديتنا للاحرار !

وزينت هامته باكليل الغار ، عنوان البسالة المورقة . فصاح مدهوشاً ، وقد راقته صباحتها ونخوتها : ولكن من انتِ ، عمرك الله ؟

فاجابت بابتسامة عذبة ، آسرة : اخت شقيقتك نفيسة ، يا عامر . هل دبّ اليك النسيان ؟

فصاح بخجل يلتمس به لنفسه العذر الصفوح : من ؟ ... عفراء ؟

فابانت وما تزال تزجي بسمتها العذراء : هي بعينها ، يا عامر . ولقد اقبلت تصارحك بانك توسدت بكرم اخلاقك مراتع الالباب !

وشاءت ان تسأله عن مجيد . ودرى من نظراتها ما تروم . ولم يكن رأى مجيداً بعد انتقاله الى القدس . على انه ابى ان يصعقها بالنبأ ، فعمد الى الاختلاق البريء . قال : مجيد مقبلٌ الينا . هو في صفوف عودة ابي تايه . فانتظريه . والله ، انه لصنديد حقيق بك !

فاتسع في محياها ملتمع الانس . سمعت ما تشتهي استيضاحه دون ان تتحرك شفتاها بالسؤال عنه . قال عامر ، وقد ودّ ان يساقطها حديثاً آخر : واين نفيسة ؟

ـ في الدار ، بانتظارك على نار !

فصاح برجاله : الى مثوى العرب ، ايها العرب !

وعهد الى فئة منهم في امر دار الامن ، وقد ارتفع عليها العلم العربي الاغيد ، المنتشي بالعزة . وسار بكل من ضمه الموكب الى داره يذبح لهم فيها النعاج ، ويحي المآدب عن يد لا تنبو عن منبسط السخاء . ولم تبتعد عنه

عفراء حريز . فظلت الى قربه تحادثه عن الثورة وفوزها . وتطلب منه بكلام خبيء ان يروي لها مآثر مجيد . فحدثها عن حمية ابن عمها بطلاقة وفيض . الا انه ظل يتحامى اطلاعها على النبأ الصادع . فما ابلغها ان مجيداً اصيب بجرح كاد يهصره . قالت وقد شعرت بابتهاج في نفسها : ما دمنا في معرض المسرات ، فهل لي ان التمس منك مطلباً لا تدهمني فيه الخيبة ؟

فادهشه السؤال ، واعلن بمستطير الرحابة : ولكن اي حاجة ليست مقضية لك ، يا عفراء ؟

— ألا تمسك عني رغبة ؟ ... قل ، بحياتي !

فجهر صادق الحلفة : وتربة ابي ، وشرف عامر الطفيل ، كل حاجة لك مقضية ، ولا استثني ، يا ذات الروعة . ألا اوضحي . اثرت في نفسي الشره الى الالمام !

فابانت تجود بما في نفسها من شهوة ملحاح : اريـــد منك ان ترفق باختك نفيسة . نفيسة زينة صرخد في العفة والاباء !

فادار فيها عينين تطفحان بالاستيضاح القلق وهي تدعوه الى الرفق باخته . فمتى اساء الى ابنة ابيه وامه ؟... ما تراءى له انه اوجع فيها نبل السريرة ، وشهوة الرغد . امواله بين يديها . وحقوله وسهوله ومواشيه رهن ايماءة هذه المسيطرة على شؤونه . ولم يلمس فيها الالم وهو يبدو حيالها . بل وثبت اليه تعانقه هازجة ، كأنها في عرس . هاتفة للثورة الزاخرة بالرحمة . مرحبة بالضيفان . موزعة نفسها على احياء البهجة في الخواطر . عامر ، اسد العرين ، عاد من جهاده يهزّ لواء النصر في نخبة من اخوانه الشوس . وما لمح فيها أسى ، ولا نفرة . فما يهيب بعفراء الى اعلان ما لا يلوح له في شقيقته الجذلى ؟ ...

واستفهم بدهش لم يجنح به عن لهجة المباسطة: أتنزعين بي الى الرفق بها؟... ولكن متى جرتُ عليها ، يا ذات السماح ؟

فأوضحت ما لم يبق فيه مجال الى الكتمان: لاح لي انك تخنق عاطفتها !

فصاح مرتعداً : انا ؟

واحس بان الامر دقيق . وندم على معاهدتـه عفراء على اجابتها الى ملتمسها . فانها لتحفزه الى مشكل بعيد الغور . فالتذمر من خنق العاطفة سمع له في مبسم اخته صدى . قالت عفراء ، وقد رأت ان تمضي في مـا كتبت على نفسها من جهد : هل من الغبن ان تعقد عليها لهادي محفوظ ؟

واطالت اليه النظر وهي تبتسم لتلمّ باثر كلماتها في نفسه . أما يزال يرعى في جنانه الحقد ؟ ... فعبس وتولته الكمـدة . وغرزت اظفاره في راحتيه لشدة غيظه . ماذا تطلب منه عفراء وهو حيال عهد مبرم ، وازاء جفوة ما تنفك تتأجج ، وما سكنت لها وقدة؟...أتدري ابنة عم مجيد حريز ما تقول ؟ ... واتصل حاجبا عامر بعضهما ببعض لفرط قطوبه . وودّ ألا يجيب . ولكن عفراء ، وقد تجلى لها نفوره مما تعني اذنـه ، ابت ان تقف بالعتبة وتجمد . فاعتزمت ولوج المحراب مهما فرضت عليهـا اللجاجة من عناء. أما ترقب منها نفيسة الجواب الواعد ؟... أما احيت عفراء في نفس هذه الولهى الامل الممراع؟...وظلت تحدق الى عامر على مستفيض الابتسام. وقالت له بدالة فيحاء احيتها فيها المروءة الغيرى ، المتهالكة على المبرة : أترفض لي هذا المطلب ، وانت المفضال ؟

فارتعشت نبرات صوته تدل على ما يجيش في روعه من اضطراب ، واستوضح بقسوة : هل حملتك نفيسة على مخاطبتي بمثل هذا الكلام ؟

فما اخفت عنه انها تولت الامر بنفسها، لا يهزّها اليه غير الحنين الى انعاش قلب متبول . قالت ببسمتها المطمئنة الى الخير: بل انا وعدتها بان اخاطبك به . ومشتهاي ان لا تضنّ عليّ بالرجاوة المثلى !

فاستقصى بفضول وحرد : أتكون تهوى هادي محفوظ ؟

فسمع ما ايقن به ان الشوق ينبع من المهجتين . قالت عفراء بعذوبتها الخضلة : الحب متبادل ، يا عامر !

فاطلق دمدمته الخشنة: ولكن اللعينة مخطوبة الى نسيب لها ، الى صيّاح الطفيل . فكيف تستجيز لنفسها التنكر للعرف ؟ ... فهل غاب عنها اننا موثقون بعهودنا ، وليس فيها مدرج الى نقض ؟

فما تأثرت بغضبه . بل قالت تستعدي عليه لطف انوثتها الدهاق : واين هو خطيبها ، وقد هجرها منذ الطفولة ، وربما لن يعود ؟

فهتف متململاً : انت تحرجينني ، يا عفراء !

فابانت بقوة لا ترضى صداً : اعرفك نبيلاً . فلا تحطم قلبين متحابين !

فلم يقوَ على انتهارها والصياح بها ان اخرسي . فهي من ضيوفه وابنة عم مجيد . ولها من رقتها ومن رونقها سحر يفرض الاقناع . وشاء النجاة من قبضتها ، وقد احس بها ممسكة بخناقه ، فقال يزوغ عن قصدها دون ان يخدش شعورها بالرفض: دعي ذلك الى ما بعد. سنتحدث به في الآتي !

فمانعت في الارجاء . لن تبيح له ان يتحرر من سلطانها ، وقد تراءى لها من نفسها انها فيه ذات اثر . قالت تنتهز السانحة : عاهدتني على قضاء حاجتي مهما بلغ من شأوها ، وما عرفتك تنكث العهود !

فزادته احراجاً . وتمتم وصدره يضيق بانفاسه : انت تضغطينني بكلابة ،

يا عفراء !

فقهقهت، وما فتئت تنطلق الى هدفها، قائلة بابلغ بيان: ان ليوم النصر فدية . فما هي فدية يومك هذا ؟

فانحنى رأسه يعلن انكساره ، وغمغم : عفراء !

فقالت بمعنة في الالحاح : اطالبك بعهدك ، فلا تنكص عنه !

فاشتد به انحناء الرأس. ولم يكن منه الا ان أقرّ بالهزيمة، معلناً باستسلام: غلبتني . هبي لي ساعة من التفكير !

ونادى نفيسة . وخلا بها قائلاً : بمَ تحدثني عفراء ، يا اختي ؟... أصحيح انك هائمة بهادي محفوظ ، بعدوّ شقيقك عامر الطفيل ؟

وكان خشناً في نبرته ، مخيفاً في نظرته . فقالت نفيسة بثبات جنان لا تعدو في الاعلان الواقع: انا لم اطلب الى عفراء ان تروي لك شيئاً مما يختلج به قلبي، يا عامر. فكنت راضية بان احمل هواي دون ان اتذمر، مع يقيني اني خائبة فيه . ولقد حدثت به عفراء ، فوعدتني بان تنصفني منه مشفقة عليّ . فعارضت ومنعتها من الافضاء بسري. فلم تمتنع . انها لمن نفس مجبولة بالاريحية والمنة !

فاستوضحها يروم الوقوف على صريح طويتها: أتحبين هادي محفوظ، يا نفيسة ؟

فاذاعت ميولها لا تتهيب ، قائلة بجلاء لا يدركها فيه خجل ولا عناء : لا سبيل الى انكار هذا الحب ، يا عامر . اما اذا ابيت عليّ وروده فلست اعاند لك بغية . شقيقتك رهن مشيئتك، وانت سيد الاسرة. وسيد الاسرة مالك الرقاب والالباب !

فاطمأن لجوابها وقد ألقت اليه امرها . روح البيئة هذا هو . فالطاعة

لرب البيت عمياء. لا تردد فيها ولا اعتراض. والا تحدث التمرد عن وخامته. ونهايته اختلاس الانفاس. على ان اخت عامر الطفيل وقت نفسها التطاول على السمت. ودفعت عن اخيها مضض النقمة. وعامر ما يزال معجباً برباطة جأش هادي محفوظ. فرأى فيه سيداً هماماً حتى في هزيمته. وساءل نفسه لماذا يشدد على اخته في ان تكون لمن لا تهواه؟... أليست ذات قلب حساس؟...هل اطلت على هذا العالم كي تشقى؟...ولكنه العرف. آه من جور العرف!...وخطر لعامر ان يتخطى الحد المضروب. أليس من حقه ان يهدم البالي ليبني الاصلح والابقى ؟... قال يزري بالغثّ ، الهشّ : نفيسة ، وعدت عفراء بان اجيبها الى كل ما تبتغي مني . وكنت اجهل انها ستحدثني عنك . اما وقد فعلت فلم يبقَ لي الا الانجاز . انت لهادي محفوظ ، يا أُختاه !

وما كانت قولته الا ابراماً، نسف به الواهي ليقرّ الوطيد. وعلا في نبله. وتراءى لشقيقته انها ازاء إله رحيم، كريم. ونادى عامر عفراء يقول لها بفيّاح الجذل : قُضيت حاجتك ، يا عفراء . نفيسة لمن تهوى !

وقلب نفيسة خفق حتى كاد يثب من صدرها لفرط الغبطة. وانثنت على اخيها تقبل خديه ويديه ، وما تكتفي. وتألق النور في وجه عفراء، فهتفت تعلن الشكر بوفر من اكبار : انت في حلمك مثلك في بأسك ، يا عامر . حياك الله وابقاك !

ومالت على نفيسة تعانقها وتقول لها : طيبي قلباً ، يا اختي . لك الهناء !

فتمتمت نفيسة وهي تكاد تتلاشى فرحة : شكراً ، شكراً . يدك انقذتني من الانطفاء غماً ويأساً !

وجيء بهادي محفوظ . ووقف يؤدي لعامر الطفيل التحية . قال عامر:

انت تذكر ما بيننا من خصومة ، يا ابن امي . فما كنا لنلتقي . على ان ما ابديت في انضمامك الى الجيش العربي من مكرمة، بدد من نفسي كل حقد عليك . واقبلت عفراء حريز تطلب مني قضاء حاجة لها . فوعدت . وكانت هذه الحاجة ان اعقد لك على اختي . ورأيتني لا اقوى على العبث بوعدي ، فدعوتك اليّ كي اسألك عن موقفك من نفيسة ، شقيقتي !

فضعضعه . باي اسراف في المودة يخاطبه ؟ ... لقد سال نداوة وبشراً حتى بات فيضاً من روعة. أيحدثه عن نفيسة، وهو يخشى ان يتلفظ على مسمع من عامر بهمسة عنها ؟... وتلعثم هادي محفوظ . وغالب بعنف عيّه ليقول باشراق ما برح يخالطه الارتباك: اني لاهنىء نفسي بما قام بيننا من صداقات، يا عامر . والله ، ما اشتهيت الا ان نكون اصابع في قبضة . اما العقد لي على اختك، فمن الشرف لمثلي ان تزف اليه نفيسة الطفيل. علمت طويلاً مهجتي بهذه الامنية ، وما انفك اخاف ان تضيع عليّ !

ـ أتريدها لك زوجة ؟

فهتف بسخاء في الاعلان السعيد : وهل لي ان انعم بالملتمس الاسمى وان احجم عن ادراكه ؟... ما طلبت من زمني الا ان اظفر بهذه الشهوة . وكم يجري الحظ في خدمتي وهو ينيلني العطية السمحة !

وخرجت كلماته من شفتيه انغاماً شجية ، كتغاريد الارواح الثملة بمباهج الرفاه . وطرب عامر الطفيل للغبطة المتوهجة في مقال هادي محفوظ . وتناسى بها وعده لنسيبه صيّاح الطفيل بان يزوّجه نفيسة . وهتف بجود بالسمين السنيّ : اختي لك ، يا صديقي . فكن بها ضنيناً !

وصافحه بقوة. وعانقه امعاناً في التوكيد. وانعقدت الصفقة بريئة من

مسكة من غبن . وصاحت عفراء بحفيّ الاستبشار : مرحى ، مرحى !

واندفعت تذيع البشرى وهي تصفق مرحـاً ، هاتفة بعامر الطفيل : علينا ان نحتفل اليوم بعقـد الزواج . يوم الفرح للفرح . وليس اطيب من عرس الحرية في منبسط الهيام . بلدٌ تحرر ، وقلبان خلعا قيود الحرمان !

فابتسم عامر وقال : ومن يخبّبك في ما تعلنين ، يا عفراء ؟

وكان العرس في العرس. فالبشر اتسع مدى. والانس تعالى مداميك، وقد ماجت صرخد عباباً تتلاطم اهازيجه، وتتعاقد اغاريده. والحبور اهتزاز نفوس يهيجها ائتلاف في الميل، وصدق في المواءمة. يرنّ وتر، وتشاطره الرنين اوتار ، فتتنظم المعزوفة ، وتورق الاعياد .

ولم يكن هادي محفوظ بالمكسال . فما ان تزوج حتى مشى الى جنب عامر الطفيل يقاتل في صفوف ابي علي، الشريف حسين، الثائر العربي الاول. فالعرب، وقد حالف التوفيق رائدهم، اندفعوا غير متوانين في وثبة الانطلاق الى التحرر من حزّة الكتاف

٧

ألحّ « لورانس » في ان يتولى العرب بانفسهم احتلال دمشق. فيزحف قادتهم على رأس جيوشهم لامتلاك شامة الصحراء، كما نزلها بالامس ابو عبيدة، وخالد بن الوليد. واوضح الانكليزي اليقظان الدافع الى الرغبة. فان دمشق عربية. والمحرض على الثورة عربي من آل هاشم. فليس للعرب ان يقاتلوه وهو منهم، بل من سادتهم، ومنتماه الى فاطمة ابنة الرسول

على حين يتسع المجال للمقاومة في مسير الانكليز في طليعة المحتلين. فلا يؤمن بهم العرب ايمانهم بالاشراف الحجازيين. ولكن «لورانس» رمى الى هدف ارحب. فما نسي « حلفاءه » الفرنسيين، وهم في حملة الحجاز. ولا ضاع عن بنود معاهدة « سيكس – بيكو » الواهبة لفرنسا سوريا ولبنان والموصل. فاذا ولج جيش الحلفاء، في المقدمة، ابواب دمشق، لقيت المعاهدة حظها من التوفيق. وكان للفرنسيين ان يرتعوا في افياء الشام آمنين. و«لورانس» يكره هؤلاء « الحلفاء » . وينهد الى تقويض كل سيطرة على الشرق يمنّون بها النفس. وهل له ان ينسى انه من قوم اغتصبوا الهند، ويروعهم ان تقوم في طريقهم اليها حصاة لم تصقلها يد لندن، وتحدد مكانها من ذلك النهج المصون، الحرام، كأنه باب النعيم ؟... للانكليز وحدهم ان يدوسوا عتبة تلك الجنة. وليس الفرنسيون – لسوء حظهم – بالانكليز. اذن فليفتح العرب دمشق. وهكذا تمسي قاعدة معاوية لذراري معاوية. لا سبيل اليها لفرنسي، ولا لانكليزي

وانتضى « لورانس »، شمشون الصحراء، شعار شمشون فلسطين :

« عليّ وعلى اعدائك يا رب ! » . وساق الى حاضنة بردى الافواج العربية الخالصة ، يقودها الشريف ناصر الهاشمي ، ابن عم الشريف فيصل ، لينشر على اسوارها ، وفي كبدها ، العلم العربي . ربوع العرب للعرب . ولن تُردّ الامانات الى سوى اصحابها

واقتنع القائد « اللنبي » بصواب الرأي . ودعا القوات الانكليزية الى شقّ ممر للجيش العربي ينفذ منه الى دمشق . وعلى رأس هذا الجيش الامير ناصر – وما زال فيصل يطوي الصحراء – وعودة ابو تايه ، ونوري الشعلان ، وسلطان الاطرش ، و « لورانس » ، ابداً هو !

وانحدرت القوات العربية من درعا الى عاصمة الامويين . وخيل اليها انها ستحتل دمشق اطلالاً على اطلال ، والانفجار في الفيحاء يتلو الانفجار ، كأن العثمانيين لن يبرحوها الا خرائب في خرائب . غير ان الجيش العربي ما أطلّ على المدينة ، الرازحة بمجد العصر الأموي ، الممتد الغزوات والفتوح ، حتى ذهب عن الخواطر ما شخص اليها . فالتفجير تفجير ذخيرة ابى الالمان وقوعها في ايدي المناوئين . وغادر العثمانيون المدينة دون ان يهدموا كوخاً من اكواخها . وانساب اليها العرب بين الهتاف والتصفيق ، والعطر والزهر . فما ثمة غير صيحات من مسرة ، واطلاقات من نار تطفح بالتأييد . فالقوم يرقبون منذ عهد بعيد اليوم البهيج ، الاغرّ . فحملوا الاعلام العربية ، واندفعوا الى لقاء الغزاة وهم ينشدون اناشيد الحماسة ، ويحيون الفجر العربي المنبثق كالامس ، من جوف الصحراء ، يوم كرّت جحافل عمر بن الخطاب تبتغي الموت ، او توطيد ملك عربي ، منيع الصولة ، زكيّ الطيب

ورفع الشباب المزهوّ رسوم الملك حسين والامير فيصل . وشقت

النساء حجابهن ، وبرزن سوافر يحيين الصبح المبين . غير أن ثمة فوارس لم يرتووا من قهر العثمانيين. فما بالوا بدمشق الطروب، النافضة منها ذل الكبوة ، الفاتحة ذراعيها لبنيها الغيارى ، بل مشوا في اثر المنهزمين يرومون الانتقام ممن استعبدوهم على مدى اربعمئة سنة ، عابثين ، جشعين

وتأثروهم يصلونهم النار الاكول. وفي الانتقام جنوحٌ الى الافناء. واشتبكوا وفلولهم المتقهقرة من الخليل . واذا بفارس عربي يثب على حامل العلم العثماني وينتزع منه الراية الحمراء ، المطرّزة بالقصب . ولم تمت كل جزأة في هذه الفلول المنهزمة ، الجائعة ، العارية، المنهوكة القوى . فارتد ثلاثة من رجالها الى الفارس المقدام يحاولون تحطيمه . فاتقى الثلاثة بان قفز بفرسه بين الصخور . وما خانه الجواد في عدوه . فاندفع به وحوافره تضرب الصخر فتثير الشرر . وتضايق الفارس العربي والعثمانيون الثلاثة لا يتراجعون عنه . فما كان منه الا ان تدحرج عن مطيته، واختبأ وراء صخرة اتخذها متراساً، وصرع الاول. وابصر الآخران رفيقهما يخرّ صريعاً، وما انثنيا. فسدد الفارس العربي رصاصه الى الثاني وهشّم رأسه. وبقي الآخر. وهجم على المتراس. فاذا حربة الفارس العربي، المثبتة في رأس بندقيته، تغوص في صدر مهاجمه فتردبه

وانتزع الفارس الحربة من صدر عدوه وهفا الى جواده يمتطيه في طريقه الى دمشق . ثأر لنفسه من شانئيه . وبحث في دمشق عن الامير فيصل . أما وصل اليها ؟... والشريف الهاشمي، لولب الهمة العربية الفائرة، حبا الى دمشق يستقر بسويدائها في اثر الأفواج المتوائبة الى افيائها . وهرع اليه ماحي الثلاثة يحييه ، ويلقي بين يديه العلم العثماني دون ان يتكلم . فتأمله الامير وهتف برعشة من اعجاب : أما تكون مجيد حريز ، الفتى اللبناني ؟

لقد عرفه . هذا هو . وكان عودة ابو تايه بجانب الامير ، فصاح : ومن لهذه المعجزات سوى مجيد حريز ، يا فيصل ؟

والفارس مجيد نفسه . اندمل جرحه وشفي، فرأى ان ينضم الى اخوانه المجاهدين . ولم يجدهم في وادي ابي اللسان فهفا الى حوران . وقيل له في حوران انهم سبقوه الى دمشق . فلم يعرّج على عفراء في صرخد ، بل وثب تواً الى صدر ذات المآذن والقباب ، وما ينزع الى سوى الانتقام ممن رموه برصاصة كادت تذهب به . وانتقم . وضمه الامير فيصل اليه، وقبله في رأسه . فقبل يد الامير . ولم يكن من فيصل الا ان خلع عباءته ووهبها له . وامتدت يده الى جيبه فخرجت بقبضة من الذهب . وليس لابن حريز ان يرفض العطية ، وهي من الامير . وقال جميع هؤلاء الملتفين حول ابن الحسين، وهم يلمسون مكارمه، ويشهدون عوارفه : عاد عهد الخلفاء الجحاجيح !

وما زال جو دمشق عابقاً بطيب تلك الهبات السنية . وما برحت دمشق تذكر سخاء الامويين الغطاريف . ومال عودة ابو تايه على مجيد يعانقه ويقول : هل عادت اليك العافية ؟ ... ألا حمداً للبارىء الشفيق . بالله ، كيف تخلو الساحة من فتيانها الصيد ؟

فابان مجيد بغبطة ذاكر المنّة : والشكر لك ، يا عودة . لولا عنايتك بي لقضى مجيد حريز نحبه . بلغني كل ما جدت به عليّ من وارف الفضل . واني لغريق الدين الوزين !

فهتف عودة : ولكنك السابق ، يا ابن امي . هل نسيت ؟... والله ، ما ندرج الا حيث امتدت لكم في المحامد قدم ، انتم اللبنانيين المغاوير !

واذا بامرأة تشقّ لها طريقاً الى الفارس بين الجموع المتراصة . فمنعها

الازدحام من الوصول. فدفعت عنها من حولها بقوة ساعديها. وشعر الحشد بانها تضايقه ، بيد انه لم يصدمها في مبتغاها وهي امرأة. على انها ، مع شديد مكافحتها ، لم تستطع ان تخرق النطاق. فنادت الفارس باعلى صوتها: مجيد، مجيد !

والصوت ليس غريباً عن اذنيه. فالتفت يبحث في كل ناحية عن المنادية الرخيمة النبرة. فرفعت يدها هاتفة : هنا ، هنا !

فصرخ بشوق وبهت ، وقد ابصرها : عفراء ؟

وهي عفراء. لم تبصر مجيداً يقبل اليها في حوران ، فأسرعت اليه في دمشق. لا بد ان تراه فيها. وطلب اليها عامر ان لا تقدم على المجازفة ، فقامت بها لا تبالي. وشاء ان يطلعها على حالة ابن عمها ، وهو الجريح في المستشفى الانكليزي ، في القدس ، فما تجرأ على الاعلان ، مخافة الايلام. ربما شفي مجيد واقبل في الزحف الصؤول. اما وقد صممت على ارتياد دمشق فان عامراً لرفيقها اليها، وهو المضطر الى دخولها في صفوف الجيش العربي. وصحبهما هادي محفوظ. ولكن مجيداً ليس في دمشق. فاضطربت عفراء واستفهمت بارتياع : اين هو ؟

وقضت ساعات من الجزع احب منها اليها المنية. وجابت كل معسكر تبحث عن ابن عمها. فصدمتها شفاه تنقلب ، واكتاف تهتز. ليس من يدري. فاستنبأت بلهفة الهلع : ولكن اين هو ؟ ... هل قضى ؟

وانهارت مدامعها تذيب شجوها. وانفلتت من ضابط الى ضابط ، ومن جندي الى جندي، تستطلع امر المتخلف عن الغزوة. فاذاع عامر، بعد طويل استقصاء، السر المكتوم. مجيد في مستشفى القدس يتداوى من جرح اصابه. فنفثت صيحة الرعب. أيكون مجيد في المستشفى؟... واختلجت اسى. وزال

كل لون عنها، وقد شاع فيها الاصفرار . وتضخمت عيناها خشية . وودت ان تسير الى القدس. وتأهبت للرحيل وهي تلوم عامراً على صمته وكتمانه. قال عامر الطفيل : ولماذا تكلفين نفسك هـذه المشقة ؟ ... ليس الطريق الى القدس آمناً . سنبرق اليها في الوقوف على امر الثاوي بها !

فشددت في القيام بالرحلة مع وفرة مخاطرها . قال عامر يلوي بها عن الوثبة الشاحطة، المخيفة: ولكنك لست مضطرة الى هذا الجهد . سنخاطب مستشفى القدس بالهاتف اذا لم تكن اسلاك البرق كفيلة بانالتنا الرجاوة . فالقوة العسكرية ضمنت سهولة المخاطبات بينها وبين المدينة المقدسة !

ومشى واياها الى عودة ابي تايه، كي يلتمس لها من الانكليز اباحة خطوط الهاتف الى القدس ، للسؤال عن مجيد . واذا بعودة بجانب فيصل يطوّق مجيداً ويعانقه . فتوهج في حشاشتها الرجاء. مجيد هنا ، في مهد بردى، بين جموع الفاتحين من بني قومها الاعزّة . واندفعت تناديه وقد ومض لعينيها. وزحزحت اليه الجماهير كنهر طغى فانبرى يختط لنفسه مسيلاً بحكم العنف. وابصرها مجيد فوثب اليها يفتح لها ذراعيه. صدره وسادتها ، فاين رأسها؟... وضمهما العناق على مرأى من الجموع المتماسكة الانفاس ، المعقولة الالسن ، تأثراً بالمشهد الرائع السعيد، وكأنهما روح واحد في هيكل يرين عليه الخشوع الجليل . وخنقت العبرات عفراء ، فما استطاعت ان تزيـد على الهتاف باسم الحبيب : مجيد ، مجيد !

وهزتها غبطتها كما هزّها قلقها، فأضحت بين يدي ابن عمها كتلة واهية، جامدة، ضائعة عن نفسها. فكأنها ، وقد نعمت بلقائه، بلغت هدفها ، وارتوت من دنياها . ولا بأس عليها ، وقد ادركت المحجّ ، ان تموت !

٨

انبثق شهر تشرين الاول ١٩١٨، في الآفاق العربية، بسمةً حية من بسمات الامل السبوح. فتحرر به العرب من النير العثماني، وباتوا اولياء امرهم، لهم السؤدد، والرأي، والتدبير. وما لغاصب ان يستبيح لهم تخماً، ولا ان يدعي عليهم سيطرة، من جبال طوروس حتى خليج العجم، فالمحيط الهندي، فالبحر الاحمر. دولة معاوية وهارون الرشيد عادت الى البزوغ والنهوض ورسخت في دمشق قدم الامير فيصل الهاشمي. فاستولى على الحكم يؤيده الانصار. بل اضحى الجميع له انصاراً. فالعروبة امست زياً شائعاً خلعه على انفسهم حتى اولئك المتعصبون للعثمانيين، وقد قاتلوا في صفوفهم يناهضون ثورة التحرير. فكل طامع في منصب ومال اصبح عربياً. وكل طالب زعامة انتهى في نسبه الى ربيعة، وغسان، وقريش

واتسع المجال للمنافقين والمشاغبين. واختلط الاخلاص بالرثاء. وبات من الصعب الفصل بين القمح والزؤان، وكلهم يدعي وصلاً بليلى، ويرى في انكار عروبته عليه جريمة تتبرأ من كل غفران

ومثل الدساسون ادوارهم بنظام. وما هدأت الحرب حتى برزت المطامع على سعة اشداق، ورهافة طواحن. وقرص الحلوى تُشحذ له الانياب. فلجأت الدول الى المواثيق تطلب اقرارها. والمواثيق متعددة، متضاربة، بيعت بها البلاد العربية دون استشارتها في امرها. كأنها السلعة، لا كلمة لها في مصيرها

وحار العرب. أمن استعباد الى استعباد ؟... لاجل من سخوا بجميع

تلك الضحـايا ؟ ... عللوا انفسهم بالاستقلال ، وبازدهار الامس الريّان ، فاذا بهم يشعرون بالقيود تدمي سواعدهم . وحدتهم مزّقها التقسيم الاجنبي . فاستأثرت انكلترا ببقعة ، وفرنسا ببقعة . والتفتوا الى ما حولهم فاذا علمهم لا يجد ارضاً يخفق عليها . أتذوي نضرة الآمال ؟

بقيت لهم ارض الحجاز . وانها لقسمة ضئزى بعـد جهاد صادق ، مرّ ، سالت فيه الارواح بسماح . فاين الوعود المعلنة ، والعهود المقطوعة ؟ ... تجاهلها الاقوياء لدن استنسروا . ونظروا الى الامم العربية نظرة شاع فيها الاستخفاف . بل هم لم يكرموا صداقة بعضهم لبعض . فودّ كل رفيق ان يلتهم رفيقه ، بعد انخذال اعدائه ، للاستئثار بطلاقة الميدان . كأن النفس تأبى ان تبصر حولها من يقاسمها اكليل الغار ، بل اللقمة ، بل حبة القمح ، بل نسمة الهواء .

وتجلى النزاع العنيف بين الاصدقاء ، المكرهين على الصداقة ، في سوريا ولبنان . وهما بلدان شرقيان تخلت عنهما ، في معاهدة « سيكس – بيكو » ، انكلترا لفرنسا . ولكن انكلترا نفسهـا وعدت العرب بسوريا قبل ذاك التخلي . فباعتها مرتين ، وهي لا تملكها . باعتها من الحسين ، ومن « حليفتها » فرنسا . وتقنعت بدهائها التليد تحاول ان تبرّ في وعدها للاثنين معاً . فاقامت منهما عدوين على الدهر ، يروم كل منهما افتراس الآخر . وهو سر الكيد في البطش المقنّع . فيصل يريد سوريا احقاقاً لوعد انكلترا لابيه . وفرنسا تريدها اقراراً لمنطوق معاهدة « سيكس – بيكو » . ولكن فيصلاً ، وقد احتل سوريا ، ابى ان يجلو عنها . فهو فيها بقوة سيفه ، وبحقه بها بدلاً لثورة ابيه على العثمانيين ، وجرياً في صعيد التاريخ . فالفتح العربي وثب من مكة

الى دمشق . والايام تعيد نفسها . والليالي هي هي. وليس لسير الزمن ان يختلف في دورانه عن نهجه المألوف ، المربوط بمواعيد

وتفاقم العدوان. ونشبت الفتنة. ووقفت فرنسا في جانب، والعرب في جانب . واقامت انكلترا على مقربة منهما تمدّ اصابعها الى النار فتضرمها ، وتتظاهر بانها في عزلة ، متفجعة على الدم البريء

وخشي العرب المبصرون سوء المغبة . على انهم لم يسكتوا . فعمدوا الى احراج الفرنسيين في نواحي سوريا جمعاء. وما ناموا عنهم في قلب لبنان. والتفتت عفراء حريز الى ابن عمها مجيد ، والقلاقل تهمّ بغزو سهل البقاع ، وبالامتداد الى زحلة ، واستقصت جازعة : مجيد ، في سبيل من قاتلت ؟

ومجيد لم يبرح دمشق . وعفراء لم تزل بقربه تحبوه الانس ، وتشاطره مراحل الجهاد. فالسيف العربي، المشدود الى وسط الكميّ، ما انتهى له في الاختراط مجال. ولقد اعلن الفتى الزحليّ، وابنة عمه تستوضحه امر من قاتل لاجلهم : ناضلت عن قومي العرب ، يا عفراء . وهل لي ان اكون من المرتزقة ، فاعرّض نفسي للمنايا كي يسودني الغريب ؟

فاستفهمت برهبة : هل تقاتل الفرنسيين ؟

فابان بلا تردد: اقاتل كل من يسعى لاذلال امتي. والعرب امة واحدة، يا عفراء . انهم لاشبه باصابع اليد يجمعهم معصم . واذا مال ذو طغيان الى هصر عودهم ، فانا على الطاغية . لا تنسي اننا عرب اقحاح !

فهتفت بما لقنتها في صغرها معاهد التبشير : ولكن لبنان يريد فرنسا . أما وقعت في سمعك طلبة الاجداد ؟

فاوضح بحزم بصير : لبنان يريد استقلاله . فما نشأ بنوه ، منذ فجر

التاريخ ، على سوى حرية خالصة . وانهم ليتهالكون على اقرارها . ومن يسلخها منهم فهو عدوهم . وليس لاحد ان يمنّ بها عليهم وقد اشتروها بدمائهم . فاستعرضي الزمن . على ان لونهم لون عربي لا غش فيه . وقد جرفت الاحداث معظمهم من اليمن، وما بين النهرين، وسوريا . وانى كانت لنا هذه الاسماء العربية، المكينة الجذور، لو لم نكن عرباً أصلاً ؟... واذا عدا زيّ العصر على اسمائنا، فهل له ان يتطاول الى انسابنا ؟... نزل ربوعنا نفرٌ من الاعاجم ، ولكنهم ذابوا فينا، وبقينا نحن . فدعي عنك شعوذة الاساطير !

فخافت منه على اخيها . أيقاتل الفرنسيين وشقيقها فيهم ؟ ... وهتفت بوهلة : واخي نجيب ؟

فهز برأسه كأن البلية تجسمت في عينه ، وقال بمرارة : اخوك نجيب يستظل العلم الفرنسي . وعليه ان يماشي الفرنسيين في نهجهم ، فيصادمنا . هي السياسة المخلّعة الذمة تقيم بعضنا على بعض . فنتقاتل ، نحن ابناء البلد الواحد، كي يرضى الغريب، ويقبض على ارساننا . فهل رأيت من كيد ادهى ؟... نتفانى لنمسي عبيداً يقودنا اجنبي . مع اننا لم نندفع في الثورة لسوى التحرر من الاستعباد . على اني لا احسب نجيباً ينسى عروبة لبنان !

— واذا نسيها ؟

— فهو عدوي ، يا عفراء !

— أتقاتله ؟

— أقاتله كظهير لناسجي شبكة الطغيان . فليس لنا ان نتدحرج من مهواة الى مهواة !

فادهشها . انه لصريح . وهي تعرف صلابته وأنفته ، وليس له في

سمت الحمية ان يلين . قالت تنهاه عن مناكدة اخيها : لا اريدك عدو نجيب ، ابن عمك !

وراعها ان تتباين الميول ، وتنقلب المواقف ، فيبيت الاخوة على مناكرة . أليس من ظلم السياسة ان تتناحر اليدان ، وان يتفانى ابناء الرحم الواحدة؟... ونجيب حريز عاد الى وطنه برتبة دون مقام ضابط . فما ارتقى الى حيث بلغ ابن عمه مجيد . الا انه كافح وتمتع باعجاب قادته . ففي طولكرم كان اشبه بالقضاء المبرم على العثمانيين . وما استطاع قائده الا ان يزين صدره بوسام الحرب ، وهو في وسط المعركة . فأبى ان يرجىء نفحه بالوسام الى ما بعد القتال ، وقد رأى منه البطولة المثلى . وعلى اثر المعركة الظافرة نودي ببسالة نجيب على مسمع من رفاقه . وحياها القائد بسيفه ، كما حياها الجنود ببندقياتهم . وقرع الطبل . وترقى نجيب درجتين

وركض الى زحلة يبحث عن نوري بك . غير ان نوري بك ركن الى الفرار . فخاف ان يلقى من الزحليين جزاء طغيانه ، فتاه في القفار ، يحث الخطو الى وطنه الاناضول . فشاق نجيباً ان يقتفي آثار العاتي . بيد ان هذه الآثار ضاعت في الجيش المنهزم ، المنتثر ، وما يبدو منه غير ظهور مقوّسة ، هاربة ، تشابه فيها ذو الهمة ، وأسير الوهن ، كأن الانكسار يهوي ، بمن ينزل بهم ، الى دركة واحدة في الضعضعة والخمول

على ان نجيباً اعتزم الانتقام ، طامعاً في الاستئثار بمحو الاهانة . فليس لمن شتت شملاً ان يبقى في الوجود

ومرّ بقبور امه ، وعمه ، وامرأة عمه ، يحييها ، ويبايعها على سكب سكائب الرحمة عليها ، لدن يرجع لمعالنتها الاخذ بالثأر . فما ازجاها الى الرمس غير

ذلك الراتع في الجور والحسة ، وسيلحق بها الى الضريح

وما دعت قوات الحلفاء الى متابعة الزحف، الى صدر السلطنة العثمانية، فتغزو الاناضول، وتدق اوتادها في كبد استانبول، حتى امتدت قدم نجيب حريز الى معاقل اطنة وبروسة ، في صميم ربوع العثمانيين . وفي كل مرحلة من مراحل الزحف يسأل نجيب عن نوري بك، ضابط معلقة زحلة . أفليس في القوم من يعرف مقره ؟ ... وسمع من يسخر بالاستيضاح . فأي نكرة هو نوري بك هذا ، وفي الجيش العثماني الالوف من امثاله ؟... ومن يقوى على الارشاد اليه في الفوضى السائدة ، وليس للقوات العثمانية وازع ، ولا جامع ، وقد تبددت في كل صقع ، كحفنة من غبار ، تلهو بها الريح ؟

على ان نجيب حريز حامل رسالة يأبى ان يهون في أدائها . هي رسالة الانتقام من ظالم صفا له الجو، فاستنسر في الطغيان. وما لحامل رسالة الانتقام ان يشعر بالراحة، الا وهو يلقي عن كتفيه عبئه، بامانة من لم يعثر في الوفاء

وفيما يحتل الحلفاء مدينة « قونية » ، في صدر الاناضول ، لاذ الجيش العثماني بحصون المدينة، يرد فيها عنه لطمات الموجة الكاسحة. فعزّ على العثمانيين ان يموتوا اذلاء ، ونافحوا عن حقهم بالبقاء والحرية. ليموتوا اشرافاً ، وليس للجبان نزرٌ من استعلاء . بيد ان الذخيرة نفدت ، وقضت على المناضلين بالاستسلام . وهال القائد العثماني ان يسقط في قبضة اعدائه ، فانتحر . لن يرتضي الخنوع ، وفي الموت سبيل الى النجاة من دمامة الهوان . وما تفرد بالحمية، وثمة من رفض الاستكانة ، وطابت له المقاومة. فعاد القتال يحتدم . وما طوّق آمر القوة الفرنسية الفلول الماضية في المناكرة ، لا تبتغي عيشاً زريّاً، آسناً، بل كرامة وسؤدداً، حتى دنا منه ضابط عثماني كالقذيفة في دمدمتها،

تصرخ في وجهه النقمة اللهوم . وصوّب مسدسه الى الآمر الفرنسي يروم حذفه، كما تمحو عواصف الرمل كثبان البادية. الا ان رصاصة يقظى اخترقت رأسه ، واطارت بعض جمجمته . وانفجرت صيحة تهتز استبشاراً : قتلته . قتلته . هذا نوري بك ، ضابط المعلقة !

وارتفعت بين الصفوف قامة جندي شاب، احمر العينين، بادي الحماسة. فالتفت اليه القائد الفرنسي وعرف فيه نجيب حريز. فابتسم وهتف راضياً، مكبراً : حريز ؟ ... أتظل في اندفاعك ؟

فاوضح نجيب، وقد انحنى على جثة نوري بك كما ينحني البازي على الطريدة المستباحة لمخلبه ومنسره : هذا عدوي . وللانتقام منه فررت الى صفوفكم اقاتل فيها العثمانيين . فلقيت من غطرسة الجلف ما لا يلقى العبيد من نزق السيد المتعسف . جلدني حتى عجزت عن النهوض على قدميّ . وطرحني في جوف المحبس النتن ، المظلم ، كأنه ارادني على الموت وانا في غمرة البقاء. وددت لو قبضت عليه حياً . ولولا الميل الى سحقـــه لترددت في اجتياز حدود الاناضول !

وهز برأسه وقال بزفرة الاسى: لم يعرف من العذاب ما عرفت. والله ، ما اشتهيت الا ان اضاعف له الصدعة . فاذيقه لوعة التدويخ مرتين !

فرفع له القائد الفرنسي قبعته يحييه . ودعاه اليه فور استسلام الحامية يعانقه ، ويعرض عليه لفافة من التبغ ليزيل بينهما الكلفة . وخاطبه بقولة الشاكر ، المؤمن بكرم الخلق : نجيب ، انا مدين لك بالحياة . ولا بد لي من مكافأتك على اقدامك . فأي منحة تريد ؟ ... أأرفعك درجة اخرى ، فتمسي ضابطاً ، ام انفحك بقبضة من المال ؟

فقال نجيب مستمسكاً برفعة الطبع : الترقية لا تجد من نفسي اعراضاً . اما المال فما أحنّ اليه . غير اني اتخلى عن العطيتين في مقابل شهوة تجول في ضميري !

فاستوضح الضابط بلجاجة : ألا اعلنها . ما هي ؟ ... ما هي ؟

قال وهو يخشى ان لا يلقى في قائده الاذن الصاغية : اريد، بعد فتكي بمن اهانني وعذبني ، ان اعود الى وطني !

– أتعود قبل بلوغنا استانبول ؟

– هـذا ما يتوق اليه خاطري . بلغت هدفي . وعليّ ان اذيع البشرى في اهلي واخواني. فمن قضيت عليه حطم زهونا. وجرف الى القبر خيرتنا. وما يعيد أنفتنا الينا سوى سفك دمه. اما وقد ادركت ما انشد من طلبة، فليمهد لي سيدي الى ابلاغ قومي ان المذلة نبت عنا !

فاوجع القائد ان ينأى عنه نجيب حريز . غير انه لم يشأ ان يصدمه في الملتمس . قال : وهبت لك الامنية . فارجع الساعة الى لبنان . على انك ستعود اليه ضابطاً . وقد دلتني سجاياك على كونك خليقاً بالمقام الرفيع !

واجاز له العودة ببزة ضابط . فليس للمقدام ان يرسو في البؤرة. وهفا نجيب الى زحلة برتبته المنيفة. ولقي مجيداً وعفراء يبحثان عنه فيها. وكانت هتفات وقبلات، ودموع وزفرات. ولقد بكوا بعبرات سخان من فقدوا. فصاح نجيب : الا اني انتقمت ممن اثخننا جراحاً . فلترقد عظام شهدائنا في رمسها قريرة !

والى قبر الاحباء درجوا يبلغون الضحايا العزيزة ان تدفع عن عوانقها اثقال الغدر . ناثر الحسرات عضّ التراب . وجثوا عند المدفن المتعطش

الى الالمام بالواقع المحيي . فلينتعش الرميم . وليس للارواح ان تتبطن الارض مثقلة بالضيم ، فيتراكم البلاء على البلى

قال نجيب يروي حكاية الانتقام : ما استطعت ان انام براحة . فالنزوع الى البطش بمن بدد واباد اشتعلت به اوصالي . وكيف استريح وانا احس ابداً بانياب الذئب تنهش احشائي ؟ ... قال قائد الحملة الفرنسية : « الى الاناضول ! » . فقلت : « دنت ساعة الطمأنينة . سأسحق رأس التنين !». واصبحت نواظر شائحة . وكدت أيأس من لقائه . على ان المقيت أطل في « قونية » ، يشهر مسدسه على قائد الحملة . فسبقه مسدسي . وشعرت بجرحي يندمل ، وبمهجتي تشفى من برحائها وانا اصرعه ، وانفاسه تتصاعد تكفيراً عن آثامه . وكنت ارغب في قهره كما قهرني . فأكوي جسده بالسوط ، قبل ان اخطف عمره . الا انه من ذوي الحظوظ !

فهتفت عفراء بمديد الاغتباط : سلمت يد اخي !

واعلن مجيد بنفحة من شكر واعجاب: لقد رفعت رأسنا . تعال اقبلك في عينيك . ارواحنا وارواح من فقدنا تنسج لك آيات عرفان الجميل !

وعانقه ملياً . ومع الجزع البليغ على الضحايا الاثيرة أُريق العرق الزحلي سروراً بالاشتفاء النديان . وانتشى مجيد ونجيب وعفراء بمرأى البردوني المترنم ابداً باغانيه ، وباستظلال سماء زحلة الباسمة بعد طول عبوس ، وبالتمرغ في الوادي الزاهر وقد اخذت تصفق فيه اجران « الكبّة » ، بعد انزوائها المديد. هذا هو الوطن المفدّى. وما تبتهج الروح بسوى مرآه، وما ترى نفسها هانئة الا لدن تقتعد حجره، وتفترش ترابه، وتستنشق هواءه، وتبترد بمائه الرسيل على ان السياسة بعزقت الشمل. ففصلت بين مجيد ونجيب، وباتا عدوين .

هذا يمشي في صفوف الفرنسيين ، وذاك في صفوف العرب . ويتباهى مجيد وهو يتحدث عن العرب : هؤلاء قومي ، يا عفراء !

ودعي على عجل الى دمشق . ما يزال الفرنسيون يعتصمون بمعاهدة « سيكس – بيكو ». وما يفتأ العرب يتمسكون بعهد الانكليز للحسين بن علي. ويعلن رجال فرنسا : « معاهدة سيكس – بيكو » تهب لنا سوريا !» . فيرد السوريون، ومن ورائهم الجزيرة العربية باسرها : « بل هي مستقلة حرة ، لا يتولاها سوى قومها العرب الافحاح ! » . وانعقد المؤتمر تلو المؤتمر ، وما لاح بصيص من وئام . وصاح « لورانس » يلهب اللظى : على العرب ان ينصفوا انفسهم من الطامعين فيهم !

وهو الحضّ السافر على القتال . والعرب ما توانوا . سيشترون حريتهم بدمهم . وسمعوا فيصلاً يذيع فيهم : « الاستقلال يؤخذ ، ولا يعطى ! » . فاستطابوا جوف النار . وشهروها على الفرنسيين حرب عصابات في جميع النواحي . ووقف يوسف العظمة في كبد دمشق يحشد القوات من البدو والحضر . فعلى كل عربي ان يذود عن العرين المهدد بالاغتصاب

وبين يدي القائد يوسف العظمة مثل مجيد حريز. وقاسه القائد، وهو من مرافقي انور باشا ، بعينيه طولاً وعرضاً . وما تمالك ان ابدى اطمئنانه . قال : مجيد ، سمعت عنك ما نشطت له نفسي . سمو الامير فيصل روى لي من مآثرك ما هزني ابتهاجاً. وتغنى عودة ابو تايه بمحامدك. وانت تدري في اي موقف نحن. اننا لفي مأزق حرج اصبحنا فيه اعداء الفرنسيين الاشداء . وانت فتى لبناني. ووطنك لبنان ينصر في شطر منه فرنسا . وزحلة بلدتك تعضدها . فاخبرني من اي فئة انت . أتكون منا ، ام انت من انصار

اعدائنا ؟... مقامك كضابط في الجيش العربي يهيب بك الى تأييد العرب !

فحيا مجيد التحية العسكرية واعلن بخيلاء : انا حيث ألقيت نفسي ، يا سيدي !

ـ أفلا تظاهر فرنسا ؟

ـ اقول اني حيث ألقيت نفسي . ناضلت تحت لواء عربي ، وساظل تحت هذا اللواء . ومن ابلغك ان لبنان ليس عربياً فقد نطق بالضلال !

فابتسم القائد العظمة واستوضح ببعض الدهش : أتبدي هذا الرأي ؟

فاجاب مجيد حريز بايمان : لست اول من يبديه . فالحقيقة والتاريخ يؤيدانني في اعلانه !

فهتف العظمة معجباً : مرحى !

وركن اليه وجاهره بالخطة المرسومة . على لبنان، وقد نزله الفرنسيون، ان يمسي في طوق من نار. فتحتدم القلاقل في الشمال، والجنوب ، والشرق والغرب . حتى اذا ما هاج الساحل باجمعه ، وانضمت اليه الجبال ، ايقن الجيش الفرنسي انه وقع على بركان . واتقت الدول سوء المغبة بسلخ فرنسا من ديار تتنكر لها . فيستقل العرب بربوعهم . وتعيش ديارهم في ظلال الاباء والسؤدد . قال القائد العظمة : وثقتنا بك حملتنا على ايلائك قيادة القوات العربية في البقاع . فتحرج فيه موقف الفرنسيين ، وانت ابن تلك الناحية . فكن عند حسن الرأي فيك . واظهر لنا ان فتى الاقدام ما يزال على سجيته المأمونة !

فكان جواب مجيد : لن اتردد في الامتثال . دمي فدى قومي !

واعلن كلماته بجزم . فالامر هو الامر . وعلى الجندي الطاعة . فاوضح يوسف

العظمة : وسيكون ملحم قاسم في نصرتك. فتمشي عن جانبيك عصاباته وتقلق الامن. وعليك ان تسير في القلب لاختراق حدود لبنان . لسنا نريد ازعاج اللبنانيين ، بل زحزحة الجيش الفرنسي عن بلد نريده حراً !

فابان مجيد بالشدة نفسها : ادركت مرمى سيدي القائد . ليتكل عليّ !

– الفرنسيون اضحوا في البقاع !

– ساقصيهم عن هاتيك الارجاء !

– عوفيت . اني لالمس في بيانك وطلعتك قلباً ينضح بالاقدام . إمش الآن إليهم على رأس الف جندي !

وصافحه وهو يقول : اننا لمؤمنون، ونحن نعتمد على بطولتك، بكوننا لن نخيب !

فانتفض مجيد حريز بتيه . وتأثر باريحية القائد السوري فارتعش . انه ليكبر هذه الثقة به ، وقد تراءت له ثقيلة على منكبيه . الا انه عاهد ضميره على بذل الوكد. وادى التحية العسكرية وهو يقول: ليتعاظم ايمان سيدي القائد باخلاصي. فلن اكون الا حيث ارادني على الجهاد. عاش العرب احراراً !

وتوارى بشموخ وهمة ، صادق الرغبة في الذود عن بني امه العرب . وفي مساء ذلك النهار كان يقود رجاله الالف في طريقه الى الزبداني، فرياق، يبتغي النفاذ بهم الى صميم البقاع

وفيما يعالن قائده بانه لن يتقهقر عما يدعوه اليه، كان القائد « غورو »، آمر الجيوش الفرنسية في الشرق ، يوفد الى البقاع خمس كتائب بمدافعها ورشاشاتها . قال : اقبضوا على كل من يظهر العصيان . حاربوا العصابات بلا رأفة . اقضوا عليها كما اطحتموها في الجنوب !

والقائد « غورو » شعر بما ينوي رجال الامير فيصل . رموه بعصاباتهم تحرجه في الشمال في تل كلخ ، وفي الجنوب في جبل عامل ، وفي الشرق في البقاع . ولو استطاعوا ان يعزلوه في حلقة لسدوا عليه البحر . ولكن ليس لهم فيه سفين

واقلقت العصابات الجيش الفرنسي بقتالها غير المنظم . فليس عليه ان يناوىء قوة تسير في حربها على قاعدة، بل جماعة تتحرك كما تشاء. تهجم في الليل ، وتحتجب في النهار . تبدو يوماً ، وتغيب اسبوعاً . تطلّ من هنا ، وتتوارى من هناك . فما يدري الجيش من يقاتل منها ، ولا اين يصادمها ولا مقر لها . وهذا شر ضروب القتال !

واشرفت الكتائب الفرنسية الخمس على سهول البقاع بطياراتها وبدباباتها ، معقودة الايدي على النزال . لن يتراجع السيف عمّا اقرّت المواثيق . ومعاهدة « سيكس-بيكو » ناطقة البنود. وان تكن ذات بنود يبرأ منها من تتناولهم احكامها ، وهي صفقة غبن لم يشهدها اهلها . على انها مشيئة القوي، ذي المخلب والناب . والجيش الفرنسي نفض منه غبار الحرب دامي الجراح ، الا انه يمسك برأس عدوه المقطوع. وما اسرع اندمال الجرح في بهجة الظفر !

ولم تجاوز الكتائب الفرنسية حدود البقاع ،وليس من حقها ان تتخطاها . فما زالت سوريا في قبضة العرب . وساد الوجوم . بل ساد الهرج والمرج . ميدان القتال يتوقد. وصال ملحم قاسم . بات من ضباط الشريف فيصل . على رأسه كوفية وعقال ، والى جنبه سيف . واقام على مقربة منه مجيد حريز ينجده بالاعتدة ، واحياناً بالرجال . بلاد العرب للعرب . وليس

لرجال الفتوح ان يعبثوا بحماها ، ولا ان يعيثوا في قطيعها !

وتساقطت الضحايا . ضحايا بريئة عزيزة . انهـا كله ان الشرق والغرب يتطاحنان . فالشرق يذود عن حوضه، ويأبى ان يكون فريسة . والغرب فاغر الشدقين ، يطلب لجشعه زاداً . انها لمعركة حق وكرامة . وليس للحق ان تلويه فورة عسف ، وغلواء دلال !

٩

شاهدت باريس بافتتان العقال المزركش بالقصب ، وعباءة الوبر الفاحمة ، والقامة الضامرة ، الممشوقة ، الدارجة في معابر مدينة النور بجلال الانبياء ، وقد شفّ الخد الاسيل عن نبل وتقى ، ودلت العينان الحالمتان على شاحط الامل

هذا فيصل بن الحسين ، وجه الصحراء اللباب ، وحامل رسالة الايمان بالحرية . ولقد اضاء ثلاثة عشر دهراً من كفاح ، ومجد ، وعثار ، ونهوض ، طلعته الزاهدة ، الحلوة ، الوقور . وما طفر من بحبوحة البدو ، الى بهرة الحضر ، الا ليجلو يقيناً ، ويبدد ظلماً . فهو رجاء امة بذلت نفسها في يوم الفداء ، ورامت استعادة العز المسلوب

واصغى قادة الحلفاء الى اللسان العذب ، الطليق ، العفيف ، الواثق بجدارة بني قومه بامتلاك امرهم ، وبناء دولتهم . وآمنوا بصدق بيانه ، ومناعة حجته . الا ان المطامع ما كانت لتلين حيال المنطق الحق . فرنسا تريد قاعدة في البحر المتوسط تكتمل بها سيطرتها عليه . وانكلترا تأبى ان تفلت من قبضتها شعرة تتصل بالهند

ورضي « كليمنصو » ، سيد الحكم في فرنسا ، بان يتولى الامير فيصل قيادة سوريا . على ان يرجع في اموره الى باريس . فرضي بعد طول جدل وجه الصحراء الحميّ . وعاد الى دمشق على وئام وجماعة الفرنسيين . غير ان المتصلبين بالرأي ، من دعاة الاستقلال الناجز ، لم يرضوا . فما ارادوها الا حرية بريئة من كل عقدة . فلا وصاية . ولا حماية . وعضدهم « لورانس » في الشهوة . لن تقوم في عاصمة معاوية غير دولة عربية صرف . وما كان للانكليزي

القحّ، ذي العينين الزرقاوين، ان يطيق رؤية ظل فرنسا في طريق الهند، بلد الاديان والفلسفات والثروات . فانه ليربأ بدولته ان تكابد شبح نابوليون آخر . وما نـدّ عنه ان فرنسا خرجت ، من حرب ١٩١٨ ، اقوى دولة عسكرية في المعمور

وصاح طلاب السيادة المطلقة في مسمع فيصل : « لا نرضى ما جئتنا به من ميثاق . سوريا حرة . وما لفرنسا ان تنشر سلطانها علينا ! ». فاعلن بإباء الفتى العربي الامين : ليس لي ان اشذّ عن المرتجى . انتم لا ترضون ، وانا لا ارضى . هذا هو الميثاق نمزقه لنكتب بدمائنا وثيقة الاستقلال التمّ . فالثورة المعلنة في الحجاز ما تزال مضطرمة . ولن تنطفىء نارهـا الا وانتم تقبضون على حريتكم بملء اليدين !

ونودي ان لا سبيل لفرنسا الى سوريا . فالحراب دون المحراب . وطرب « لورانس » . سلمت الهند من عضة الناب . ووعـد بالذخائر وبالاعتدة . وحفز المؤتمر السوري الى تتويج فيصل ملكـاً على سوريا باسم الشعب . والمؤتمر كتلة من ذوي الشأن، ومن محترفي السياسة ، تولت في دمشق تمثيل الامة السورية . ولقد اجاب فوراً الانكليزي الازرق العينين الى اربه . ففي ٨ آذار ١٩٢٠ استظلت سوريا اجنحة الملك، وقد بسطها عليها فيصل الاول ، معلناً الحرب على الفرنسيين ، حتى في لبنان

ولقيت الدعوة في لبنان انصاراً . فما خلا الجبل الاشم من فئـة تنتصر للعروبة الفيحاء، وتؤيد ابن الحسين في خلع كل نير . غير ان السواد الاعظم مال الى الفرنسيين، وقد اعتقد فيهم الغيرة والمودة . وتراءى له ان اللبنانيين يهنأون في ظل المثلث الالوان ، ويتمنون لو يعود اليهم الاجداد ، لينعموا

بمثل ما ينعم به الحفداء . بل هم حسبوا الاستقلال وديعة في يمين فرنسا على ان الفوضى انتشرت في كل ناحية . وقامت في كل بلدة الاحزاب المتضاربة الاهواء. وكثر شراء الضمائر وانفاق المال. فكأن السماء امطرت ذهباً . وفريق غير قليل استجدى العرب كما استجدى الفرنسيين . فادعى الاخلاص لاولئك ، ولهؤلاء . ومن تولته الخيبة في كفة ، انتقل الى الكفة الاخرى ، حتى اضحى المتناكران يجهلان الخصوم من الانصار . فمن هم معنا ؟ ... ومن هم علينا ؟ ... ضباب !

وجال ملحم قاسم وصال . وانتقم من كل مؤيد للفرنسيين . وتحصن في اعالي بعلبك يقاوم الكتائب المدفوعة الى سحقه . واسعفه مجيد حريز . فضايق هذه الكتائب وانقذ ملحم قاسم منها . فوقف الفرنسيون من الجيش العربي على حذر . وخيل اليهم ان في البقاع عشرات الالوف من مناوئيهم. على حين ان القوة بكاملها لم تكن تزيد على الالفين . الف لدى ملحم قاسم. والف لدى مجيد حريز

وكان يتفق لمجيد ان ينسلّ ليلا الى زحلة لرؤية ابنة عمه عفراء. فتلومه عفراء على جرأته . وتقول منذرة، فزعة : ألا تخشاهم؟...لماذا تأتي اليّ والخطر يهددك ؟... أما تدري ان في نيتهم القبض عليك ؟

فيضحك مما تخاطبه به . أيحفل بالاخطار بعد كل ما عرف منها ؟ ... قال : واين اراك اذا لم اقبل اليك ؟

– تراني عندك . انا بنفسي اذهب اليك !

– وهل تدرين اين اكون ، وانا لا اعلم اين استقر ؟

– اريد ان تتحامى غضب الفرنسيين . فقد جاءني انهم يبحثون عنك !

فما رجع عن ضحكه . قال : وانا ابحث عنهم . والغلبة للعرب ، يا عفراء !

وحدثها عن زحلة ، فقال : أيلوح لك ان زحلة باجمعها تؤيد الفرنسيين ؟... لا ، انك لواهمة . سترين ان جماعة من ارقى الاسر فيها تنتصر للامير فيصل . هؤلاء يعلمون ان لا استقلال بلا حكم اصيل . والا كنا حيال استغلال . فكل امة تشرف على شؤونها امة غريبة عنها هي في حكم الاستعباد . وهل عانينا النفي ، والذل ، والجوع ، والاستشهاد ، لنظل تحت رحمة الغرباء ؟

فاستفهمت وهي المتعصبة لشهوة الاجداد : أيحرمنا الفرنسيون استقلالنا ؟

فاجاب بشدة : لا احسب الفرنسيين اقبلوا الينا لسواد عيوننا . فكل بلد لا يتولى بنوه اموره ليس لبنيه . أتدرين متى اريدك للزواج ؟... عندما يمسي لبنان عربياً . عندذاك يعقد لمجيد حريز على عفراء !

ولم تكن تميل الى معارضتـه . بل هي اخذت تشاطره آراءه . اجل ، كل بلد لا يشرف بنوه على شؤونه ليس لبنيه . قالت : أتقوى على مقاومة الفرنسيين ، وهم عنوان البسالة العسكرية ؟

فاعلن بحماسة من يزدري الموت : لا نكير في انهم عنوان البسالة العسكرية . غير اننا لسنا من الجبناء . ثم نحن ندافع عن حق راهن . اما هم فلست ادري عن اي حق يدافعون !

فرأت ان لا سبيل الى الخروج به عما يراه صواباً . وابت ان تمضي في البحث السياسي ، فتهيج اعصاب مجيد وتتعبه . وعمدت الى خوان بسطت عليه الكأس والطاس ، وقالت تخاطب ابن عمها : لنشرب !

وشربا . قال مجيد : هذه اهنأ ساعة عندي بعد قيامي بالمفروض عليّ . ولا بدع ، فانت احب الناس اليّ . الله ، والوطن ، وعفراء !

وجذبها اليه ينعم برؤيتها الفاتنة . وتبادلا ابتسامة الحب المكين . وما عفّا عن القبل يتذوقانها . فما اشهاها تساجل الكأس، وما اعذبها في صدقها ونقاوتها . وانتصف الليل وهما في نشوتين . واذا بمجيد ينهض . قالت عفراء : الى اين ؟

قال : انا مدعو الى جولة في زحلة !

فروّعها وهتفت برهبة : الى جولة في زحلة ؟... أتجرؤ عليها ؟... وما يكون منك اذا درى بك الفرنسيون ؟

ـ يكون مني اني اتمتع باعجابهم . فالفرنسيون لا يحتقرون المخلص لامته ، الجسور !

واخرسها . وتنكر بثياب الاهلين . وطاف في ازقة بلدته ، وكأنه يسير الى هدف معلوم . واذا به يقف امام دار قام منها طابقان . ودقّ باب الطابق الاول ثلاث دقات واهية . فانفتح الباب ، كأن مجيد حريز على موعد . وأطلّت جارية سوداء كليل الليل. فقال مجيد: أيكون سيدك مفتوح العين ؟

فابتسمت وقالت بلغة تثقلها الرطانة : هو يرقب مجيئك ، يا سيدي !

فولج المنزل . ومثل في حضرة رجل في الخمسين ، بدين ، اصلع . الا ان في وجهه عينين لم يملكهما ثعبان . وما ابصر مجيد حريز حتى نهض له يرحب به ويقول : انا بانتظارك . ماذا فعلت ؟

وصافحه . فقال مجيد : وانت ، ماذا فعلت ؟

ـ اهتديت الى المؤيدين . في زحلة فريق كبير ينصرنا . على ان المهم ان نمعن في نثر المال لنتغلب على الفرنسيين ، وقد فتحوا صناديقهم العامرة!

فقال مجيد باعتزاز : وخزائن فيصل ملأى. فلا تخف . بيد ان المطلوب ان نملك من الناس قلوبهم فيما ننفخ جيوبهم !

فاجاب مخاطبه بلهجة الثعلب : لا ظفر بلا مال . كلما اجزلنا العطاء نعمنا بالاصدقاء !

– وماذا رأيت من الفرنسيين ؟

– اصبحوا ثمانية آلاف . وسيكونون بعد اسبوع عشرة . ففي نية القيادة العليا ، كما اتصل بي ، ان توفد ألفين آخرين !

– الى زحلة ؟

– اليها !

– بالقطار ؟

– وهل من سبيل الينا غير الخط الحديدي ، وهناك ألفان من الجند ؟

– ما رأيك لو ...

وشدّ مجيد كلمة « لو » ووقف عندها . فابتسم الثعلب وقال : لو نسفت القطار ؟

– هو ما تبدي !

– الفكرة رائعة . ولكن اين ؟

– عند جديتا !

– أيكون الامر بالامكان ؟

– ليس فيه صعوبة. كل ما اريد منك ان تحدد لي موعد مجيء القوة ، وان تعدّ لي بياناً باسماء مؤيدينا من الزحليين !

– معظمهم من اصدقائك !

– وهم على صواب . متى اجيء اليك ؟

– بعد ثلاثة ايام !

وهزت يدٌ يداً . وانصرف مجيد حريز كما اقبل ... يتبطن الدهمة . هذا جاسوسه في زحلة على القوات الفرنسية . وانه لمن الزحليين . ولكنه من هؤلاء الجشعين وما يتوانون في مبيع ربهم بقرش اسود. واعتمده مجيد لهذا الاسترخاء فيه حيال الدرهم . ووقف منه على اخبار زحلة جمعاء

على ان الفرنسيين ما غفلوا عن مجيد وقد تبينوا خطره . فبثوا عليه العيون . ودعوا الى امساكه . ونادوا ابن عمه نجيباً ليقيهم شره . قالوا بقسوة : امره موكول اليك . فادفع عنا جماحه ، حتى مع اضطرارك الى القضاء عليه !

وسددوا الى الشقيق سهم شقيقه . يدٌ تحارب اختها . ابناء البلد الواحد في قتال كي يفرضوا على انفسهم سلطة الغريب . انها لمذلة الخنوع . واطاع نجيب طاعة المؤمن بحسن الصنيع . واقتحم زحلة بمضاء . ودخل على اخته عفراء يصيح بها ، وفي عينيه غضب ، وفي لهجته وعيد : ابلغيه ان لا يأتي اليك. فعليه ألا يرتاد مطلقاً هذه الانحاء. انا ابن عمه مدعوٌّ الى القبض عليه!

فلمست في صيحته الحنق . انه لصخرة تتدحرج الى مهواة ، جارفة كل ما في طريقها من حجارة وحصى . قالت عفراء بذهول : أتمنعه من المجيء الينا ؟ ... أترضى بان اصرفه عني ، وهو ابن عمي ، وخطيبي ؟

وانتصبت للدفاع عمن تهوى . كيف تقصيه ؟ ... قال نجيب وقد ثاب الى الرشد ، وادرك ان لا سبيل الى التهديد ومجيد ابن عمه ، وعفراء اخته : درت به القيادة الفرنسية وكلفتني امساكه . وهي تعلم اني نسيبه .

واباحت لي دمه اذا عاند، او مال الى الفرار. وعليك ان تصونيه مما يوائبه من شر ، والا اكرهني على الايذاء !

فصاحت بذعر : أتقتله ؟ ... لك الويل !

– امنعيه من المجيء . اذا لم تقبض عليه يميني قبضت عليه يمين سواي . فالفرنسيون ناقمون شديداً عليه !

فهتفت به تنتصر لقلبها ولدمها : اذا اصبته بسوء فلست اخي !

– والامر ، يا عفراء ؟ ... والامر ؟ ... انا رجل تحت السلاح ، رهن مشيئة قادتي !

– ولكنه ابن عمك !

– ليبتعد اذاً عن طريقي . فاني لمكره على الاساءة اليه !

فوقعت بين نارين . هذا اخوها ، وذاك ابن عمها . ولعنت السياسة المفرّقة بين الاهل والاخوان . ولكن باي لسان تدعو مجيداً الى الانقطاع عنها ؟ ... أما يرتاب بها وهي تخاطبه بمقال الجفاء ؟

وشاءت ان تكتب اليه بما سمعت من اخيها . ولكن اين هو ؟ ... ومن يحمل اليه رسالتها ؟ ... وانتابها بحران اصابها به دوار . وايقنت أن جواسيس الفرنسيين دروا به ، وابلغوا سادتهم امره . قالت : انه لمغامر حتى الجنون ، مع انه ليس مضطراً الى الاستهانة بروحه ، وما يزال عليه ان يعيش !

واعتزمت ان تسير اليه . فتبحث عنه في السهول، وتروي له ما حدثها به نجيب اخوها . على انها خشيت ألا تراه . فقلقت قلقاً مريراً . وباتت يومها ساهية ، مخضودة العزيمة . وعاد اليها اخوها في اليوم التالي يقول: وقع في

مسامع الفرنسيين ان مجيداً يثير عليهم زحلة برمتها . ويحاول ان ينتزعها منهم باستمالتها الى الملك فيصل . وقد فوضوا الى كل من يراه ان يرميه بالنار . امنعيه من خفته . لست ابحث عنه وحدي . فالكثيرون يبحثون عنه مثلي . وقد عهدت اليّ القيادة في شرذمة من الجند لاصطياده . ألا تقوين على الوقوف به عنك ؟

فهتفت جازعة وهي تكاد تنوح : و كيف ؟

ـ اكتبي اليه !

ـ أتدري اين هو ؟

ـ اوفدي اليه رسولاً يقع عليه !

ـ ومن هو الرسول ؟

ـ العاملون في بساتينه على وفرة . فاختاري احدهم !

فاختارت . جاءت بشيخ طاعن في السن تعرفه مخلصاً لمجيد . وقالت له همساً ، وقد ألقت في يده ديناراً : اليك بهذه القطعة من النقد . فهي لك . واني لاطلب منك في مقابلها امراً اريد ان لا تخذلني فيه !

فاطربت رؤية الذهب الرجل الشيخ . الا انه ودّ ان يعرف المهمة الجديرة بهذه المكافأة . قال ، وهو يرهف اذنيه لسماع ما ترغب عفراء في الافضاء اليه به : ماذا تريد سيدتي ؟

ـ اريد ان تبحث لي عن مجيد !

ـ واين هو ؟

ـ في السهل !

ـ وما يروقك ابلاغه ؟

– قل له ان الفرنسيين دروا به ، وان سلامته في ألا يأتي اليّ ، وهم يرصدونه . ابلغه أن الشر كل الشر في ارتياده منزلي !

– وهل من وصية اخرى ؟

– لا . اذهب . على ان تجيئني منه باشارة تدل على انك حادثتـــه . حذار ان يقبض عليك الفرنسيون !

فضحك كأنـه يقول : « وأي شأن لي كي يهتموا بالقبض عليّ ؟ » . واتجهت خطواته الى السهل . ومشى فيه على مهل كأنه يسير الى حقله . وابصره نفر من الجند فمـا اكترثوا له . وتابع مسيره الى معسكر الجيش العربي . واهتدى ، بعد مشقة، الى مجيد حريز. واطلعه على حديث عفراء. قال : هي تريـد منك ألا ترتاد منزلها . فالفرنسيون يبحثون عنك ، وهي تخشى عليك !

فضحك مجيد وقال : وهل اوفدتك اليّ لهذا القصد ؟

فاجاب : نعم . وانها لترغب في اشارة توضح لها اني جئت اليك !

فقال مجيد باستخفاف وحزم : الاشارة اني سأكون الليلة عندها . عُدْ اليها وابلغها السلام !

وصرفه عنه ساخراً بمخاوفها . أيخشى الفرنسيين وقد صرع منهم في هذا النهار خمسة ؟... ان عفراء لتهذي. اليوم يصرع خمسة، وغداً ألفاً . فهو يتأهب لنسف القطار

ولم يكن له غنية عن بلوغ زحلة، لاضطراره الى رؤية الجاسوس العربي المقيم فيها قبل انطلاقه الى دمشق . وسيهفو الى دمشق لاطلاع قادته على خطة النسف ، واستئذانهم في المهمة المروّعة

وعاد الشيخ الى عفراء ينقل اليها كلمات مجيد . على ان مجيداً سبقه الى زجلة ، وقد امتطى الى المعلقة جواده الشحّاط . وفي المعلقة ارتدى ثياب الفلاحين . ودخل زحلة ينسلّ الى منزل عفراء . وما كادت ابنة عمه تبصره حتى صاحت مولولة : انت ؟ ... انت ؟ ... ولكن ما جاء بك اليّ ؟... اما ابلغك الرسول ما يتوعدك من خطر ؟

فقال مازحاً : لا تفضحيني . عليّ ان اشخص الى دمشق . وقد جئت قبيل الرحيل لوداعك !

وقبل شفتيها وقال: انتظريني. سأرتاد منزل احد الاصدقاء ، ثم اعود !

فحارت في ما تعلن . أتبيح له الانصراف ، أم تبقيه ؟ ... ألا يفاجئه في منزلها الجند الفرنسي اذا دعته الى البقاء ؟ ... ولكن هذا الجند قد يدركه في السابلة . وابدت الجزع . واستولت على قواها الرجفة . فقال مجيد : انت لست عفراء . عفراء كانت اصلب على النائبة . فأين هي ؟

فهتفت وفي عينيها دمعتان تهمّان بالانتثار : لا اراك الا تهزأ بالمخاطر . فمن يقاوم دولة ؟

فاجاب بزهو : دولةٌ مثلها . العرب يقاتلون الفرنسيين !

وخرج الى دار الجاسوس يقول : اين اسماء انصارنا في زحلة ؟

فقال الجاسوس : هذه هي . كتبتها لك وانا على ثقة بصدق ارابها . كلهم يريدنا ويتنكر للفرنسيين !

وألقاها اليه . وانها لاسماء متعددة ، معظم اصحابها من ارباب المكانة . فاستفهم مجيد راضياً عن الوكد : وموعد القطار ؟

فناوله رقعة اخرى كتب عليها :«في الرابع عشر من شهر تموز ١٩٢٠».

فقال مجيد : بعد ثلاثة ايام ؟... حسن . ماذا تبتغي من دمشق ؟

فاجاب المطماع ، وما يكتفي: المال نضب. ادفعوا اليّ كدسة اخرى من رقاع النقد . والا فكيف اضمن الانصار ؟

فصاح به مجيد بين مازح ومؤنب : يا لك من بالوعة لا تغصّ . ان ما وصل اليـك من مال يبني بلدة كزحلة . فأين ذهبت به ؟ ... لا بأس . سأجيئك بما تروم !

وعاد الى عفراء . وما كاد يستقر بمقعده حتى دُقّ الباب بعنف . فانخلع قلب عفراء ، وقالت وكل ما فيها يرتعش: هؤلاء هم. مجيد، عليك بالفرار !

وشوتها الحمّى . وبدا العرق في جبينها اشبه بحبات النـدى على مبسم الفلّ . ومادت بها الارض . واعادت صيحتهـا وروحها تكاد تفيض : عليك بالفرار . لا تبق لحظة !

فامتدت يده الى مسدسه وصوّبه الى الباب . واذا بنجيب ابن عمـه يلوح صارخاً به : مجيد ، مكانك !

فصاح مجيد وقد عرفه : نجيب ، ابتعد والا قتلتك !

فما ابتعد احد. فأعيدت الصيحة المهددة : نجيب، ابتعد والا اطلقت النار!

فدمدم عليه نجيب : وانا اطلق النار . عليك بالاستسلام والا هلكت !

وانفجرت رصاصة. وكانت عفراء قد وقفت بين ابن عمها واخيها زاعقة : أتتقاتلان وانتما شقيقـان ؟ ... اخجلا مني ، من صلة الدم والقربى . اي داهية تصطليان بنارها ؟

واستندت الى الحائط لدن وقع الانفجار . فالرصاص اخترق صدرها . على انها ظلت تحمي مجيداً . اخوها اطلق النار ، وهو يحسب انه يرمي ابن

عمه ، فأصاب اخته . وجنّ جنون مجيد. ولكن عفراء ظلت واقفة كالدرع المنيع بين اخيها وابن عمها ، مع سيلان دمها . واستطاعت ان تغمغم بقوة نفحتها بها صابتها المتأججة ابداً : مجيد ، اسرع الى حيث تدعوك الفروض. فما ازال اتمتع بالحياة !

وما برحت تستند الى الجدار وهي تحس بان قواها على وشك ان تفلت منها . غير انها ما انفكت تحول دون الاخوين المتناكرين . وتذكر مجيد المقدور عليه ، فوقف مرتبكاً بين البقاء والفرار. فاعادت عفراء قولها لآخر مرة : مجيد ، ليس بي شيء . اذهب الى مهمتك لئلا يضيع مجهودك الغالي !

فأصغى اليها. بيد انه التفت الى نجيب وهزّ رأسه. أيأكل لحمه بيديه ؟... وجمد مسدسه . فلم ينطق بالضغن ويردي المفاجيء بالاطلاقة . واذا بثلاثة من الجنود الفرنسيين يقتحمون المكان . فوثب مجيد الى الحديقة . ليس له ان يسقط بين ايديهم فتفلت منه النهزة. بل عليه ان يرجع الى اخوانه العرب ليقص عليهم ما استقر بوعيه من اسرار. وما كاد يتوارى حتى سقطت عفراء الى الارض ، كأنها شاءت ان تظل حاجزاً دون ابن عمها . ولم يملك الجند القدرة على الحراك ، وهم يبصرون الفتاة تهوي بين ايديهم ، كغصن قطعته الفأس . وما غاب امرها عنهم . فهي شقيقة نجيب . ولما استعادوا روعهم وتحفزوا للمطاردة لم يبق لمجيد اثر . وبلغ دمشق ينشر عليها ما جاول مسمعه . الا ان قلقه على عفراء اعماه . هل ماتت ؟ ... ما اقساه من رجل . ابصر حبيبته تصرع على مرأى منه وما حفل بها . أيكون الدافع الى نصرة قومه اسمى لديه من هيامه الركين ؟

وفي دمشق حمل الى فيصل بيان اسماء الانصار في زحلة. فأذاع فيصل

الاول بارتياح : عوفيت ، ايها اللبناني . ما ارى في بني أمك من يقلونا . كلكم في تأييد الاحرار !

ووقف بين يدي قائده يوسف العظمة يحدثه عن القطار الحافل بالجند ، وعن ضرورة نسفه في جديتا. فأعلن العظمة بغبطة الرضى: ومن للمهمة سواك ، وانت فتاها ؟

فجرض مجيد حريز بريقه ، وما تجرأ على ابلاغ قائده مصابه بابنة عمه . الا انه لم يفرّ مما عليه . فهو للمقاحم الخطرة . وحشا الخط الحديدي ، على مقربة من جديتا ، بالمتفجرات. أما علّمه « لورانس » كيف ينسف سكك الحديد ؟ ... وما كاد يقبل القطار حتى ضجّ السهل والجبل بالانفجار . وتطاير الخط وتبعثرت المركبات . الا ان عدد الضحايا لم يكن وافراً . فبلغت العشرين . ولكن الفرنسيين لم يسكتوا . فما دام العرب لا تسكن لهم فائرة ، فليحتملوا رجع الصدى . وكان انذار . وكان زحف . ففي ٢٢ تموز ١٩٢٠ وقف القائد « غورو » ، في المربجات ، يدير سير المعركة . ومشى القائد « غوبيه » الى دمشق ، عاصمة فيصل الملك الهاشمي

وماجت القوات في السهل ، وفي وادي القرن ، ووادي الحرير . طيارات ترفّ . ودبابات تزفّ . ومدافع على دواليب . وسيارات مصفحة . ودراجات . ومؤن . واعتدة

وثارت دمشق لكرامتها . وحشدت قواتها . لن يدخلها الفاتحون . وفي ميسلون أقرّ يوسف العظمة خوض المعركة . الا ان الرصاصة الاولى نزلت جبينه ، فقضى . وبموته تداعت العزائم ، وتبعثرت الصفوف . فما كان يوم ٢٤ تموز ١٩٢٠ الا محموماً ، مشؤوماً

وودع فيصل حاضنة بردى. إيه ، يا أُخت المنى، سلاماً. ما اشرق فيك الصبح حتى عدت عليـــه الدياجي ، فأمسى ظلاماً . وشعر الجيش العربي بعبء الفادحة ، فانفضّ من حول الملك الجليل ، منكفئاً ، طعيناً . ففي الروح كلوم ، وفي الصدر نزوات ناحت لها الانفة المقهورة. على ان صرخات الانتقام ادمت الشفاه ، وكتبت في الاكباد سطوراً من دافق المقت ، لا تنطفىء لها غلواء ، سطوراً تقول : سنأخذ بالثأر إن آجلًا ، وإن عاجلًا !

ووثب مجيد حريز الى زحلة يعود عفراء وهو بثيابه العربية ، لا يبالي شر الوقوع في قبضة الناقمين عليه . أما يذكر من ابقاها وراءه؟...وكيف ابقاها ؟ ... عفراء على سرير الاحتضار . وليس له ان يفقد امنيتين . غير ان عفراء ، وقد سمعت الصوت الملتهب ، المنعش ، فتحت عينيها مستعيدة رشدها . فما تشتهي الا ان ترى مجيداً . وابتسمت وهي تراه . فأسرع اليها يطوّقها بذراعيه، ويميل بشفتيه على شفتيها، كأنه يحاول ان يردّ اليها الحياة، عابثاً بنصيحة الاطباء الداعين الى التؤدة. ووقف بقربه اخوها نجيب، ينظر الى اخته المحشرجة نظرة الخجل ، والوجل . فهو قاصف زهرة السوسن . فسددت اليه عينين آمرتين، مع شيوع الالم فيهما، وعلا صوتها الحافل بالعناء يقول برغبة لا ترتضي وهناً : نجيب، عانق مجيداً . فأنتما شقيقان. وما للسياسة ان تفصل اللحم عن العظم. تعانقا واذكراني ، فتشتد بينكما روابط الاخاء والالفة . يضيم روحي ان اطبق عيني وانتما عدوان !

فاطاعا معاً الدعوة الى التصافي . انهما لكتلة واحدة ازاء ضجيعة سرير النزاع . فارتعشت شفتا عفراء بالقول الخافت ، والمستأنس ، مع خفوته، بالمصالحة المرجوّة : هكذا اريدكما على فسحة الايام ، حتى المنتهى

وامتدت بها البسمة على ناغر المضض . واذا العينان الدعجاوان تنعقدان على اغماضة. وما زالت البسمة منشورة في المحيا الساكن ، المستريح، تزيد في ملاحته ، وفي وضاءته . وهتف مجيد بوهلة الجازع : عفراء !

ولكن عفراء في غفوة الطمأنينة، تناجي القدرة. جمعت بين الشقيقين المتنابذين، بين اخيها وابن عمها، وانطلقت بسلام، تزفّ البشرى الى المنادي بالمحبة والغفران. حسبها من دنياها انها بددت ما افسدت السياسة من مودات

وصاح نجيب وهو يميل عليها بارتعاد : اختي ، اختي !

فظلت الابتسامة الهانئة ترفرف بوداعة على المحيا الانيس . نأت عفراء عن كون سلاحه الافتراء، والعدوان، لتأوي الى رحمة الانطفاء. وتصافحت يدان على المهد المبسوط الجلال ، تتعاهدان على الانتقام من كل غريب يقوّض ، في تربة الاجداد الطاهرة ، مبنى الاخاء والوئام . مجيد ونجيب يقسمان بشدة، ولهفة، على الاخذ بالثأر، فوق نعش من احبت فذابت اخلاصاً، وسمت ففنيت في معترك الفداء. عالنها مجيد بان يتزوجها يوم ينتصر العرب. فراعها الانتكاس . وهفت الى هجران دنياها ، مخافة ان تتسكع في ليل طويل لا ينفرج له صباح

زنبقةٌ من زنابق الحقل لوت رأسها للمنجل فدى امنية ما تزال بعيدة ، عصيّة . يحنّ اليه الخاطر ، وما يدنيها الراهن ، كأنها طيف هجوع

الا ان الطيف تجسد ودبّت فيه الحياة. ولكن بعد خمس وعشرين سنة من رجرجة وصدام . فالفرنسيون جلوا عن سوريا ولبنان يقصيهم عنهما « حلفاء » الضرورة المحوجة، الاصدقاء الاعداء. وقد حرضوا عليهم الاهلين. والاهلون على ملال. وما بدا « سبيرس » الا لينجز ما باشر « لورانس » !

وهناك ، في مدافن زحلة المتوسدة العشب الاخضر ، وعلى ضريح من خالص المرمر ، تتنفس فيه نضارة الريحان، جثا كهلان تشرق في اساريرهما البهجة . هما مجيد ونجيب حريز . اقبلا يبلغان عفراء ، المنكسفة جزعاً على وأد الحرية ، خميل البشرى. سوريا ولبنان خلعا عنهما وثاق الضيم . وخفق في ربوعهما لواء السؤدد التمّ . فلتسلخ نزيلة اللحد من سويدائها حزازتها . فالرجاوة تهادت على طفاح

عفراء ، يا رمز المنى ، سطع الامل والامان !

تمت

بيروت في سنتي ١٩٣٩ و ١٩٥٣

X3
12

من كتب المؤلف

صرخة الألم

أشباح القرية

أطياف من لبنان

صقر قريش

قهقهة الجزار

وامعتصماه

عفراء

أم البنين

انتقام الخيزران

[illegible]

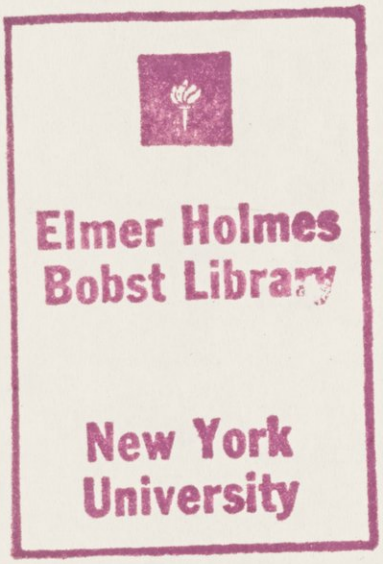
Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

NYU - BOBST
31142 02889 0542
PJ7842.A68 A32 1953
´¿Afra',